

معزرة البويسة وتضاد الغرب

تأليف: دافيد ريف

ترجمة: عبدالسلام رضوان

محمد الصاوي الديب



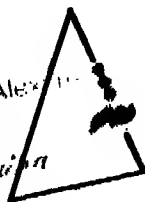
مجزرة البوسنة وتخاذل الغرب

تأليف: دافيد ريف
ترجمة: عبدالسلام رضوان
محمد الصاوي الديب



General Organization Of the Alexandria
Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina



مؤسسة الشراع العربي

العنوان الاصيل للكتاب :

Slaughterhouse:

Bosnia and the failure of the West,
Vintage, London, 1995.

— الطبعة الأولى / نوفمبر ١٩٩٥

— الناشر: مؤسسة الشراع العربي

الكويت - ص. ب. ١٠٠٥ حولي

الرمز البريدي 32011 الكويت

فاكس : ٢٥٢٥٠٧١ (٩٦٥)

— جميع الحقوق محفوظة للناشر

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
949. 742	رقم التصنيف
٢٠٢٠	رقم التسجيل

مجزرة البوسنة
وتخاذل الغرب

الفصل الأول

المجزرة

عندما ذهبت إلى البوسنة لأول مرة، في سبتمبر ١٩٩٢، كان انتصار القومية العرقية الفاشية قد أصبح أمراً محتملاً لكنه لم يكن قد تأكد بعد. وبفضل الجهود البطولية لعدد محدود من العاملين في الإغاثة ومن الصحفيين، كانت قد تسربت تقارير عن عمليات الإبادة الجماعية التي قام بها الصرب ضد مسلمي البوسنة. لكن بدا معظم الناس في الغرب غير قادرين على مواجهة الأخبار السيئة. ولقد وصلت إلى البلقان بعد شهر من كشف روى جوكمان، من صحيفة نيوزداي، عن وجود معسكرات اعتقال أقامها صرب البوسنة في شمال البوسنة، وبعد أن نجح «إدفو ليامي»، من صحيفة الجارديان، وطاقم سينمائي بريطاني من ITN في أن يكونوا أول أجنبي يدخلوا إليها. وعندما وصلت إلى شمال البوسنة كان قد تم نقل بعض المعسكرات كما كان يجري إغلاق المعسكرات الأخرى بها فيها المعسكرات الأكثر سوءاً- أومارسكا، ماناكا، ترونوبولي - لكن بدا، من نواح أخرى، أن الأمور في المنطقة تسير نحو الأسوأ. فما أصبح معروفا للعالم من عمليات التطهير العرقي لغير الصرب من السكان صار يحدث في المدن الصغيرة والكبيرة كما في القرى وأصبح أكثر تشعباً ودناءة.

لقد جئت إلى أرض البوسنة لأكتب تقريراً صحفياً لمجلة أمريكية «حول التطهير العرقي» دون أن أفهم جيداً حتى المعنى المقصود من هذا التعبير. وانتهى بي الأمر إلى العودة إلى المنطقة مرات ومرات. ولقد قيل أن السلك الصحفي أصبح منغمساً أكثر مما ينبغي فيما يجري في البوسنة، وأنه كان على الصحافة أن تكون أقل انفعالا. والواقع

ان في هذا القول جانباً من الحقيقة فحسب . فمن الصعب أن يحتفظ المرء بهدوئه أو يسيطر على انفعاله عندما يتعلق الأمر بالتطهير العرقي والإبادة الجماعية . وبعد زيارات قليلة للبوسنة ، لم أعد أرغب في أن أكون في مكان آخر . و أوقفت منذ وقت طويل اى عمل أو نشاط آخرى ، وعزمت أن أكتب بأكبر قدر ممكن من الصراحة الملتزمة قصة الرحلات التي قمت بها الى « المجزرة » التي حلت بجمهورية البوسنة والهرسك في ربيع عام ١٩٩٢ . ولقد كنت اتصور وأنا أكتب روايتي لتلك الأحداث أنه إذا ما نقلت الأخبار السيئة عن البوسنة الى الناس في بلدي - الولايات المتحدة- فسيؤدي ذلك على الفور الى وضع حد للمجزرة الدائرة .

وعندما استعيد الآن تطور الأحداث ، أجد أنه كان على أن أنحلي عن الايمان بقوة الحقائق العزلاء . ان الساء لم تظلم فوق «أوسكيفتش» ولن تظلم أيضا فوق تلال البوسنة . ذلك هو أحد الأشياء التي تعلمتها خلال العامين المنصرمين . لكنني عندما بدأت رحلتي الأولى إلى البوسنة ، كان أملى هو أن أضيف صوتي الى الأصوات الأخرى الأكثر شجاعة مني والذي كانوا يخاطرون بحياتهم ليكونوا شاهدين على ما يحدث هناك . وحتى شتاء عام ١٩٩٤ ، وحيث بدا أن الفرصة ماتزال سائحة بالأتطفئ قضية البوسنة ، بدا من المهم أيضا أن أصور لماذا ظل عزمنا قائما- أنا والعديد من الصحفيين والمصورين ومراسلي شبكات التلفزيون - على إمضاء وقت آخر في الجانب البوسني (على الرغم من اعتراضات الأصدقاء والرؤساء) . لم يكن تفكيرنا منحصرًا في مجرد ان مايجرى هو بمثابة مأساة- فكل الحروب مأساوية- بل كنا نري أيضا أن القيم التي تمثلها جمهورية البوسنة والهرسك هي قيم جديرة بالحفاظ عليها . ان هذه المثل المتعلقة بمجتمع ملتزم بالتعددية الثقافية (بالمعنى الحقيقي والجدير بالاحترام وليس بالمعنى الاميركي والوعظي لهذا التعبير الذي ابتذل استخدامه) وبالتسامح ، وبفهم للهوية القومية يراها نابعة من المواطنة المشتركة لامن الهوية العرقية ، هذه المثل هي على وجه التحديد المثل نفسها التي دأبنا على المناداة بها في الغرب . وقبل أن يمر على وجودي بالبوسنة وقت طويل أصبحت مؤمنا ، ومازلت مؤمنا حتى اليوم ، بأننا في العالم الغني لسنا ملزمين أخلاقيا فحسب بالدفاع عن استقلال البوسنة بل إن لنا مصلحة ملحة في القيام بذلك .

على أن تلك الحملة انتهت بالخسارة . وما تبقى هو الالتزام بدور الشهادة على ما يحدث ، وهو التزام نحو الأموات والأحياء على حد سواء .

إن قضية البوسنة كانت وستظل دائما قضية عادلة . وكان يتعين أن تكون قضية الغرب كله . ولو كان الغرب تدخل الى جانب البوسنة لكان هذا التدخل بمثابة دفاع عن النفس ، وليس إحسانا . إن أمريكا ، ورغم كل انشقاقاتها الداخلية ، ما تزال مجتمع التعددية الثقافية الأكثر نجاحاً عبر التاريخ . والبلدان الأوروبية نفسها تصبح الآن بصورة متزايدة مجتمعات متعددة عرقية ، وإذا ما حالها الحظ ستصبح مجتمعات متعددة ثقافية أيضا . ولم يعد كافيا ، في هذا الوقت من الدم والنار الذي تمثل المجزرة الجارية على أرض البوسنة الموجة المتقدمة من موجاته ، ان ننادى بهذه القيم بوصفها قيمنا . فالحرية لا يكفي التوكيد عليها ، بل ينبغي الدفاع عنها . ولا يمكن لها أن تأمل في البقاء على قيد الحياة اذا لم توجد سوى في نواح مرفهة محدودة من العالم ، تماما مثلما تشعر أنواع الكائنات الحية بأنها معرضة للخطر اذا ما كان المكان الوحيد المأمون بالنسبة لها هو حديقة الحيوان . أو كما قال السينمائي البوسني «أدمير كينوفيك» - الذي اختار ، بالرغم من أنه كان بإمكانه بسهولة ان يخرج من ساراييفو ، أن يبقى من أجل أن يوثق الحصار - «لمجرد أن النار تضطرم في الدور الأرضي ، فان ذلك ليعني أن ساكني الأدوار الأعلى لن يشعروا بلهيبها في النهاية» .

وإذا كنت أو من بأن البوسنيين ليسوا فقط ضحايا القتال الدائر بل هم أيضا الشعب الذي يقف الحق الى جانبه ، فاني لا أقصد بذلك القول ان على المرء أن يتجاهل ما اقترفوه من جرائم وغباوات أو أن أعفيهم من مسؤوليتهم فيما يتعلق بتفجير القتال أو استمراره ، أو أن ما حدث في البوسنة بسيط في أبعاده . فالحرب تجربة مفسدة ومضيعة انسانية ، وهي غالبا ما تظهر الأسوأ في البشر ، أيا كان الجانب الذي يقفون فيه ، ونادرا ما تترك جوانب ضعفهم دون كشفها . وتندلع الحرب دائما بسبب المال والسلطة ربا بأكبر مما تندلع بسبب الأفكار والمثل . كما تقوم الحرب بدافع الثأر ، والجريمة ، والتغطية على الجرائم . وهي تعلمك أن أكثر شكوكك تشاؤماً حتى فيمن تعجب بهم من المرجح أن تكون مبررة ، على الأقل لبعض الوقت . ومن أوضح

الأمثلة على ما أقول حقيقة أن المدافعين البطوليين عن ساراييفو كانوا يدافعون عن السوق السوداء بنفس قوة دفاعهم عن المدينة . ومع ذلك فإن هذا لا يجعل مايقومون به أقل إتصافاً بالبطولية . فالبوسنيون ، شأننا جميعا ، بشر وليسوا ملائكة .

وعلى المستوى السياسي ، كانت القصة على نفس الدرجة من التعقيد . فكما كان يعلم من يعرف شيئا منا عن سلوك الحكومة البوسنية قبل أن يتدخل القتال ، فإن التزام قادة مثل رئيس الجمهورية على عزت بيجوفيتش ورئيس الوزراء حارس سيلادريتش بقيم التعددية الثقافية بالمجتمع المدني كان أقل صلابة في وقت السلم عنه بعد ان بدأت عملية إبادة بلادهم تجري أمام أعينهم .

وقبل عام ١٩٩٢ ، كان عزت بيجوفيتش زعيما لحزب اسلامي قومي ، وكان يتحدث عن حقوق ومطالب المسلمين في البوسنة بأكثر مما يتحدث حول الشعب البوسني ككل . وبعد عامين ، أصبح بيجوفيتش زعيما بوسنيا ، وأصبحت الأفكار التي ربما لم يكن يوليها في البداية سوى اهتماما ظاهريا هي الافكار التي تبنى عليها السياسات التي يتبناها .

وقد يكون صحيحا ان هذا الالتزام بدأ بوصفه نتيجة لاضطرا رمثلما كان نتيجة لاقتناع ، وأن هذا الالتزام بدأ يخفت عام ١٩٩٤ ، بعد ان أصبح واضحا أن الدول الكبرى ليست عازمة على القيام بأى إجراء آخر لمساعدة البوسنة على البقاء . فمنذ بداية القتال ، كانت استراتيجية حكومة بيجوفيتش تتمثل في محاولة اقناع الغرب بالتدخل عسكريا . ولقد كان صحيحا أيضا أنه في داخل حزب بيجوفيتش (حزب الحركة الديمقراطية) ، وخاصة في وسط البوسنة ، أصبح الأصوليون الاسلاميون أكثر أهمية بصورة متزايدة مع تزايد حدة الصراع ، وخاصة بعد أن أصبح الجيش البوسني يعتمد أكثر فأكثر على إيران ، والسعودية ، وتركيا فيما يتعلق بالامدادات العسكرية . لكن الأمر اللافت للنظر ، بالنسبة لأى فرد أمضي بعض الوقت في البوسنة ، هو المدى الذي بلغه عمق وثبات التزام أغلب الجماهير البوسنية المؤيدة للحكومة بالتعددية الثقافية .

واذا ماكان الناس في البوسنة قد بدأوا ، بحلول خريف ١٩٩٤ ، يعرفون أنفسهم

بوصفهم مسلمين وأداروا ظهورهم للتعددية الثقافية التي قاتلوا بضراوة طوال ثلاثة أعوام من أجل الحفاظ عليها، فليس في ذلك ما يدهش. فقد كانوا يقتلون بوصفهم مسلمين، ويطردون من بيوتهم بوصفهم مسلمين. ولقد قال لي صديق من ساراييفو ذات مرة: « في البداية، كنت يوغوسلافياً. ثم أصبحت بوسنيا. والآن أصبحت مسلماً. ولم يكن الخيار خيارى. انني لم أكن ذات يوم متديناً. ولكن بعد مقتل مائتي ألف، ما الذي تريدني أن افعله؟ إن على كل انسان أن يكون له بلد ينتمى إليه ».

وعلى أية حال لم تكن الأخطاء التي ارتكبتها كل من عزت بيجوفيتش وحارس سيلادزيتش قبل الحرب هي السبب في اندلاع الحرب. فمنذ اللحظة التي بدأت فيها يوغسلافيا تتفكك، كان واضحاً أن كلا من القوميين الكروات والصرب أقل اهتماماً بالحدود منهم بتكوين دولة ذات تركيب عرقي نوعي. وكان البوسنيون وحدهم، رغم اختلاط أصولهم العرقية يؤيدون دولة المواطنة في حين كان الأمر بالنسبة للصرب، من خلال وضعهم المتفوق قوميًا، غاية في البساطة، فإذا لم يكن ممكناً أن توجد يوغسلافيا. فلا يجب أن توجد البوسنة من حيث أنها ستشكل، مع نسبة للسكان الصرب لاتتجاوز ٣٢٪ من مجمل سكان البوسنة، إنهاء لحلم أن يحيا جميع الصرب في دولتهم الخاصة بهم. قال لي محام من بلجراد: « حتى لو كان عزت بيجوفيتش ملاكاً، وهو ليس كذلك، لظلت له حربه. » وإيا كانت دوافع عزت بيجوفيتش الحقيقية وفشلته قبل بدء القتال في بذل جهد أكبر من أجل طمأنة صرب وكروات البوسنة، فسرعان ما أصبحت البوسنة التي كافح من أجل الدفاع عنها، برغم جميع أخطائها، إدانة حية للتعصب الديني والعصبية العمياء. وهذا هو السبب، وليس الفكرة المتمثلة في انه كان يؤمل أو أن بالأمكان أن تصبح البوسنة دولة مثالية يسكنها شعب يتميز بالتقوى والتسامح، في أهمية الشأن البوسني. لقد كان من الواجب انقاذها وكان من الممكن انقاذها.

ولم يكن مثل هذا التدخل هينا أو سهلاً. وتصور ذلك لايزيد عن كونه نوعاً من التمنى تماماً مثل اضمفاء الطبع المثالي على البوسنيين. ولو ان ذلك حدث لكان قد حدث من جانب حلف شمال الاطلسطي الذي كانت له وحده القدرة العسكرية

عدا التدخل . وفي المقابل فقد تبينوا أحد أضخم الجهود الإنسانية في التاريخ الحديث للإغاثة وأكثرها بطولية تحت مظلة اللجنة العليا للأجنيين التابعة للأمم المتحدة مع المثابرة على المفاوضات الدبلوماسية غير البطولية . وسرعان ما اتضح أن الغرض من ذلك ليس إنقاذ البوسنة ولكن كما يقول السياسيون « إحتواء الأزمة » . وكان العامل المشترك بين كل ماسمى بخطط السلام هو أن الحل الوحيد للنزاع يكمن في شكل ما من التقسيم على طول الخطوط العرقية .

في البداية لم تكتمل الإهانة للسيادة البوسنية . فقد قام المفاوضات الدوليان - ساويروس فانس ممثلاً للأمم المتحدة وديفيد أوين ممثلاً للجماعة الأوروبية - برسم خريطة تتسم بقدر من العدالة تصورا أنها يستطيعان بها حث الصرب - الذين كانوا قد استولوا على سبعين في المائة من الأراضي البوسنية - على قبوله ، وذلك بتقسيم البوسنة والهرسك الى عشر كانتونات ذات حكم شبه ذاتي تكون ثلاث منها تحت سيطرة الصرب وثلاث للكروات وثلاث للمسلمين . أما العاشر ، والذي يشمل قطاع مدينة سراييفو فيحكمه ممثلون عن الجماعات الوطنية الثلاث في البوسنة . وتمثلت الفكرة الأساسية لهذه الخريطة ، إسمياً على الأقل ، في حفظ السيادة البوسنية في كل أراضي الجمهورية ، رغم ضعف السيطرة التي يمكن ان تمارسها فعلياً الحكومة المركزية .

وعندما رفضت خطة فانس / أوين للسلام - بصفة رئيسية نتيجة لاحتجام إدانة كليتون عن تأييدها - تها المسرح تماماً لفكرة التقسيم . وكان السؤال الوحيد المتبقى - ولأنه لم يكن من الممكن حله فقد بدأت الحرب - هو ما الأراضي التي يحتفظ بها الصرب والأراضي التي يمكن أن يعيدها للحكومة البوسنية؟

وإلى حد كبير كان تصرف الدبلوماسيين على النحو الذي تصرفوا به راجعاً لحقيقة أنهم أدركوا منذ البداية ، حتى وإن لم ندرك ذلك في الصحافة ، أنه لن يكون هناك تدخل عسكري . وعندما قرعزم الحكومات على رأيها الجماعي فقد كان تأثير الإعلام ، الذي سمي «بتأثير CNN» ، امراً بولغ في تقديره .

لقد عقدت الحكومات الأوروبية عزمها على أنها لن تفعل أي شيء للبوسنة أكثر

من توفير الإغاثة الإنسانية . والواقع أن شجاعة العاملين في الإغاثة ، سواء من الأمم المتحدة أو المنظمات غير الحكومية ، وإخلاص كثير من الدبلوماسيين - الذين ، بعد كل ما يقال ويحدث ، لم يتمكنوا من فرض التدخل بأكثر مما فعل الصحفيون وعمال الإغاثة - كل ذلك ربما سهل على الصرب مواصلة حملتهم في البوسنة . وذلك لأن حقيقة أن هناك شيئاً يجري خلف الكواليس بدا - على نحو ينطوي على المفارقة - كما لو كان ذريعة يمكن أن تتخفى وراءها القوى الكبرى وكذلك المجتمع الدولي . وفي كل مرة يرتفع صوت الدعوة للتدخل في فرنسا أو إنجلترا أو الولايات المتحدة فإن الوزراء في حكومات الدول المعنية وممثلها في الأمم المتحدة الذين يفترض موضوعيتهم حول البوسنة (والذين بدأ كثير منا بمن يغطون الحرب يقتنعون بأنهم في الواقع لا يملكون هذه الموضوعية) يسارعون بالتأكيد على وجه السرعة على أن سبب عدم امكانية التدخل - كما استوعبنا العبارة - هو أنها « يمكن أن تعرض للخطر الجهود الإنسانية » . وعلى أية حال ، فإن أياً من الانجليز أو الفرنسيين أو الأمريكيين لم يظهر ، منذ بداية القتال في يوغسلافيا السابقة ، أي رغبة في التدخل عسكرياً . وقد أكد مسئولو الولايات المتحدة ، بخاصة مراراً ، تأييدهم لبقاء الاتحاد اليوغسلافي . ففي ٢١ يونيو ١٩٩١ زار جيمس بيكر وزير الخارجية وقتها بلجراد وحذر قادة كرواتيا وسلوفينيا بأن الولايات المتحدة لن تعترف باستقلال الدولتين . كما أصدر مسئولو الجماعة الأوروبية تحذيراً مماثلاً بعد يومين . لكن وكما إستنتج تقرير من وكالة الاستخبارات الامريكية في اول ذلك العام فإن تقسيم يوغسلافيا كان قد بدأ بالفعل . وبعد أربعة أيام من خطاب بيكر أعلنت كل من كرواتيا وسلوفينيا نفسها «دولة مستقلة ذات سيادة» . وبعد يومين ، في ٢٧ يونيو ، تحركت وحدات من JNA (الجيش الوطني اليوغسلافي) من قواعد في كرواتيا نحو سلوفينيا . ورغم وجود تحرشات طوال العام السابق ، فقد كانت تلك هذ بداية القتال الحقيقي في يوغسلافيا .

واستمر الصراع في سلوفينيا أياماً قليلة ، ولدهشة قادة الجيش اليوغسلافي (سابقاً) فقد قاتلت قوات دفاع الحدود السلوفينية ببسالة . وقرر وزير الدفاع اليوغسلافي الجنرال فيلكو كادييفتش سحب قواته بدلاً من

استمرار القتال . وكان ذلك في واقع الأمر إقراراً واقعياً باستقلال سلوفينيا من جانب السلطات في ليجراد . على أن ما لم يكونوا راغبين في قبوله هو استقلال كرواتيا ، والسبب في ذلك هو القومية العرقية للصر ب .

فلم يكن هناك وجود للصر ب تقريباً في سلوفينيا ، وفي المقابل هناك أقلية كبيرة في كرواتيا . وبإسم الدفاع عن هذه الأقلية الصربية ، وليس بإسم الحفاظ على يوغسلافيا ، بدأ الجيش الوطني اليوغسلافي العمليات الهجومية في كرواتيا في منتصف يوليو ١٩٩١ . وأسفرت هذه الحملة عن وضع أيديهم على ثلث كرواتيا ومعظمه على الحدود البوسنية . وعندها ادعى الصرب ان هذه المنطقة لم تعد جزءاً من كرواتيا بل «جمهورية كراينا الصربية» . وبدا للكثيرين ان هناك صربيا كبرى آخذة في التشكل مع تفكك يوغسلافيا .

واستمر القتال في كرواتيا حتى بداية ١٩٩٢ . ومراراً قصفت بروفينك ، فينيسيا الكروات الصغيرة ، كما سويت بالأرض المدينة الكرواتية الشرقية «فاكوفار» . ونحت ضغط شديد من ألمانيا قررت الجماعة الأوروبية الاعتراف بكرواتيا وسلوفينيا وقام سايروس فانس ، الذي كان يتفاوض على وقف إطلاق النار بين الصرب والكروات طوال النصف الثاني من ١٩٩١ ، بتحذير وزير الخارجية الألماني هانز ديترش جينشر ورئيس الجماعة الأوروبية وقتها السياسي الهولندي هانز فان دربروك من ان مثل هذا الاعتراف يجعل الحرب حتمية في البوسنة . وقد ردا على تحذيره بازدراء وأصرأ على الاعتراف . وقد أشار هيلموت كول ، في ١٥ يناير ١٩٩٢ ، الى أنه سرعان ما سيعرف كل شخص ان هذه السياسة (الاعتراف) صبيحة ، فمن دون قرارنا لن تنتهي هذه الحرب الأهلية .

وفي اوائل ١٩٩٢ نجح فانس بالفعل في اقناع الصرب والكروات بالموافقة على وقف إطلاق النار في كرواتيا الذي وإن كان قد أوقف القتال فانه لم يسترجع ، رغم إنتشار نحو ١٤ ألف من قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام ، ما كسبه الصرب من أراضي . ووجدت قوات الأمم المتحدة في كرواتيا نفسها في موقف الإشراف على خط ترسيم يبدو دائما بصورة متزايدة بين الأراضي التي يسيطر عليها الصرب والكروات . ومن الناحية النظرية كانت خطة فانس تهدف الى التوصل الى تسوية سياسية . وكان

من المفترض نزع سلاح الصرب وأن تحل قوات الأمم المتحدة محلهم . ولكن كانت هناك ثغرة . فقد سمحت خطة فانس ، بسداجة بالغة ، باستمرار عمل وحدات الشرطة . وما فعله الصرب ببساطة هو استبدال جنودهم لزيهم الأخضر بزي الشرطة الأزرق ولم يحدث شيء آخر في المناطق التي احتلها الصرب في كراينا الكرواتية وشرق سلوفانيا . وكما تنبأ فانس بدأ القتال في البوسنة في ذلك الربيع .

وقبل ذلك ، في أغسطس ١٩٩١ ، كان علي عزت بيغوفيتش قد حذر من أن سلوبودان ميلوسيفيتش رئيس صربيا « يريد كل البوسنة ، يريد كلها » . وبعد أن أصبح اتحاد يوغسلافيا بصورة متزايدة هو صربيا الكبرى تحت اسم آخر ، بذل عزت بيغوفيتش مع رئيس مقدونيا كيروجليجوروف محاولات يائسة للخروج بحل دستوري للأزمة . وفي ديسمبر ١٩٩١ ، وقد رأى أنه لا يمكن إحياء يوغسلافيا مرة ثانية ، طلب عزت بيغوفيتش اعتراف الجماعة الأوروبية كما طالب بقوات الامم المتحدة لحفظ السلام ، ورفض الطلب الأخير رغم أن مقر قيادة قوات الامم المتحدة المشرفة على وقف اطلاق النار في كرواتيا كان متمركزا في ذلك الوقت في سراييفو . لكن الجماعة الأوروبية استجابت بالفعل لطلب عزت بيغوفيتش بالاعتراف مع الاصرار على وجوب إجراء السلطات البوسنية إستفتاء حول استقلال البوسنة ، وهو ما حدث في ٢٩ فبراير ١٩٩٢ . وقد وافق مسلمو وكروات البوسنة ، الذين يمثلون ٦٣ في المئة من سكان الجمهورية ، على استقلال البوسنة بالاجماع . لكن قيادة صرب البوسنة طالبت شعبها بمقاطعة الإستفتاء ودعمت طلبها في القرى المتاخمة لمناطق مسلمي البوسنة بمنع اقامة مراكز الإنتخاب . وفيها عدا المدن نجحت المقاطعة الصربية تماما . وكان بدء القتال مسألة وقت .

وفي أوائل مارس قامت ميليشيات صرب البوسنة بإقامة الحواجز على الطرق . وكانت تلك هي الطريقة التي بدأ بها القتال مع الكروات . وبنهاية الشهر كانت الميليشيات الصربية ، بمساندة مكشوفة من قوات الجيش الوطني اليوغسلافي تستولي على الاراضي في كل انحاء البوسنة . وفي ٦ إبريل ١٩٩٢ بدأ حصار سراييفو وفي نفس الشهر سقطت بانالوكا ، المدينة الثانية في البوسنة ، في أيدي قوات الصرب . وبدأت المذبحة البوسنية .

أقول أنها مذبحه لان الإشارة الى ما كان يحدث على أنه حرب يعد تشويها، بل والاكثر فداحة من ذلك، تجميلا للطبيعة الحقيقية لما حدث. قبل بدء القتال أكد عزت بيجوفيتش أنه لايمكن نشوب حرب لأن جانبا واحدا - وهو جانبه - لن يقاتل. والواقع ان تصور امكانية تفادي تلك المجزرة لمثل هذا السبب كان واحدا من الافتراضات الساذجة العديدة الجديرة باللوم التي وقعت فيها الرئاسة البوسنية. على ان الكلام عن «حرب بوسنية» لن يكون اقل سذاجة فالحرب في واقع الامر وبرغم كل وحشيتها لها قوانينها وشرفها الخاص، ويحق للجنود، على الاقل عندما يكونون مخلصين لأعرافهم، ان يروا فيها داعيا مشرفا ومضنيا أيضا للقتال. والتفكير بغير ذلك معناه ان لا يوجد ما يضحى من أجله، واذا كانت البوسنة قد أكدت شيئا فهو ان مثل هذه العبارة ليست سوى كذبة مخجلة. على أن ما فعله الصرب في البوسنة لايمكن ولايجب على الاطلاق ان نطلق بشأنه مثل هذه الادعاءات. لقد كان هناك الكثير من المعاناة ولكن لم يكن هناك «صراع» فيما حدث في البوسنة. لقد أتى الصرب، وذبحوا، وغزوا، والعالم يتفرج. وكما قال حارس سيلازتش وزير الخارجية، ثم رئيس الوزراء، مرارا وتكرارا: «ان ما يحدث هو إبادة جماعية. لقد اختار كثير من الناس في أوروبا أن يسموها حربا. ولكنها ليست بالحرب، إنها مجزرة». وخلال كتابتي لصفحات هذا الكتاب، تكاد فصول هذه المجزرة الجماعية أن تكتمل. ولقد حطمت هذه النتيجة أي أمل في أن يؤدي صدور كتاب، أو شريط فيديو، أو خطاب علني مؤيد للبوسنة الى اي شيء مفيد عمليا. لقد فات أوان كل ذلك. فلا يمكن للكلمات أو النوايا الحسنة أن تغير الآن ما أنجزته الوقائع الوحشية للقتل والتشريد والدمار وتهجير السكان بالقوة - وهي «الحقائق الجديدة على أرض الواقع» كما يسميها التعبير السياسي. لقد كان تدمير البوسنة والمهرسك هو الثمن المدفوع لذلك ولايعني هذا ان ما حدث في البوسنة (من المهم ان نلاحظ ان الهزيمة لا تجعل المرء عاطفيا حتى مع تصور الكارثة) لم يكن ليصير إلى الاسوأ. إن ابرز شيء يتعلمه المرء من رحلة الى الحرب هو أنه يمكن للأشياء دائما أن تصير إلى الاسوأ. في اوائل شتاء ١٩٩٣، وفي حفل عشاء خاص في زغرب، اشار السفير الاميركي في كرواتيا بيتر كالبريث في يأس الى انه لن يندهش إذا استمر القتال إلى ما لا نهاية وقال «لقد

استمر القتال في بيروت سبع عشرة سنة» .

وقبل قليل من سقوط الصاروخ في سوق سرايفو في أوائل فبراير ١٩٩٤ - وهو الحادث الذي، ولصدمه كل من أهل سرايفو وقاطني المدينة الأجانب، دفع أخيرا القوى الكبرى للتداول حول أول وقف لإطلاق النار في الصراع، وهو ما كانوا راغبين في فرضه وأدرك المحاصرون الصرب أنه لا يمكن تجاهله - كان يبدو لي أن قصف العاصمة البوسنية قد يستمر للأبد. فأني شيء آخر جديد؟ في اليوم السابق سقطت قذيفة على منطقة دوبرينيا المعزولة في ضواحي سرايفو ولم يتغير شيء. وقبل عشرة أيام سقطت قذيفة على منطقة مأهولة في سرايفو الجديدة وقتلت ستة تلاميذ كانوا يتزلجون ولم يتغير شيء. فما الأمر السحري بشأن مصرع ثمانية وستين إنساناً إذا قورنوا بمائتي ألف قتيل سقطوا قبلهم؟

بدا هناك شيء ما في الأفق برغم أن الأقرب منا للوضع ربما كانوا أقل استعدادا لفهم طبيعة ذلك الشيء. وعند عودتي إلى نيويورك، في أعقاب مذبحه السوق وموجات الأثير تزخر بمناظر وأصوات ذلك الانفجار، تلقيت مكالمة من صديقة سابقة؛ وهي سيدة رقيقة لا تهتم بالسياسة وليست معنية كثيرا بما يحدث في البوسنة، قالت لي: «انني أشعر بالرعب» وكان واضحا أنها تعني ما تقول. ورغم ذلك فقد تعجبت لسبب ذلك. لماذا يثير في النهاية هؤلاء الموتى دموع الناس العاديين وكذلك الأقوياء إلى فورة قصيرة نحو القرار؟ لكن الحقيقة أنهم فعلوا ذلك. فالتقلع في الإدراك الشعبي أدت بحلف الناس لأن يصر على أن يوقف الصرب على الأقل قصفهم لسرايفو نهائيا حتى لو لم يمتد هذا الحزم، كما أثبتت الأحداث بعد ذلك، إلى غوراجدي أو أي من المناطق الآمنة الأخرى في وادي درينا شرق البوسنة. وبرغم الحديث المقعم بلهجة الإنتصار، ومعظمه كان صادرا عن واشنطن حيث سارعت إدارة كلينتون بإدعاء الفضل في وقف إطلاق النار، فإن المأساة لم تتوقف، بل غيرت فقط مسرح أحداثها.

ومع ذلك فقد سعد كل شخص يهتم بشعب البوسنة بالسلام الهش الذي تهبأ لسرايفو رغم أن صموده غير محتمل. ولكن فلندع الأوهام جانبا. فحتى لو تغاضينا عن مصير غوراجده وزيبا، فإن رفع الحصار عن سرايفو وموستار واثنتي عشرة

مدينة صغيرة أخرى غير مشهورة، وكذلك الترتيبات لإقامة اتحاد فيديريالي بين الحكومة البوسنية والسلطات الكرواتية، والأكثر أهمية من ذلك تخفيض معدل القتل - حقيقة أنه لم يتم حتى الآن إضافة عشرات الآلاف من الأسماء إلى الربع مليون الذين لا قوا مصرعهم بين ربيع ١٩٩٢ وربيع ١٩٩٤ - كل ذلك لا يجعل ما حدث في البوسنة أقل من الهزيمة، لنا جميعا وليس للبوسنيين وحدهم. فإيقاف التقتيل هو الغطاء الآن أو «ورقة التوت» التي يجري خلفها تقسيم البوسنة، هذا لو كان البوسنيون محظوظين.

وإذا لم يكن الأسوأ قد حدث بالمفهوم الإنساني - على المرء أن يفكر في المذبحة الجماعية للتوتوسي في رواندا ١٩٩٤ ليفهم ذلك - فإن الأسوأ قد حدث بالمفهوم السياسي والأخلاقي. فقد نجحت مجموعة من قومي صرب البوسنة المتشددين، عمولين من حلفائهم وموجهيهم في صربيا، نجحوا من خلال مزيج من الدعاية الماهرة والترويع في حشد غالبية صرب البوسنة حول قضية صربيا الكبرى. ودمروا البوسنة كما وعدوا بذلك. ويتمثل اللغز هنا، ومع سيطرة الصرب على ٧٢٪ من البوسنة ومع احتمال استعادة الحكومة البوسنية سيطرتها على ٥٣٪ من أراضي الدولة لو طبقت الخطة التقسيم، في أن يدعى أي شخص الدهشة من أن ذلك أدى، على جانب حكومة البوسنة، إلى البزوغ المتوقع إن لم يكن أصولية إسلامية بالمفهوم المغاري أو الأيراني فعلى الأقل لنزعة قومية إسلامية. ومهما كانت الاحتمالات بعيدة الأمد فيما يتعلق بالتقسيم الذي تصورته القوى العظمى، وبخاصة فرنسا وإنجلترا، مقبولا غالبا منذ بداية أزمة يوغسلافيا وأخيرا في أعقاب مذبحة السوق مرورا بوقف إطلاق النار الملزم الذي نجح تطبيقه بالمساعدة الروسية الأميركية، فإن البوسنة لن تعود متماسكة كما كانت قبل بدء القتال.

ستكون هناك بوسنة بالطبع كما كانت في شكل أو آخر لأكثر من ألف عام، لكنها لن تكون الدولة متعددة الأعراق المكونة من الصرب والكروات والمسلمين، التي كانت قبل بدء المجزرة. ذلك ما أفلحت في إنجازه المحاولة المنظمة من جانب الصرب لإبادة مسلمي البوسنة. وذلك ما فعلته حملة الصرب لاستئصال جيرانهم المسلمين من أرضهم ولتدمير الآثار، وبخاصة الدينية والمعمارية، لتاريخهم هناك.

وهو حدث يمثل ثالث أضخم محاولة إبادة لأقلية أوروبية في القرن العشرين ، وهو ما يعترف به حتى نقاد مسلمي البوسنة في الأمم المتحدة ودوائر الحكومات الغربية . وبدلاً من التعددية الثقافية ، رغم كل نقائصها ونفاقها وعداوتها المستترة ، التي تواجدت بالفعل في المناطق الحضرية البوسنية في توزلا وبانيا لوكا وموستار وفوق ذلك في العاصمة سراييفو ، قبل بدء القتال في إبريل ١٩٩٢ ، فإن الدمار لم يطل فقط أرواح مائتي ألف إنسان بل طال أيضاً تاريخاً من التعددية والتسامح وذلك المزيج غير العادي الذي مثلته البوسنة ، وهو ما لا بد أن يسفر عن مستقبل لا ينجىء في جعبته سوى العصبية العرقية والتصلب ثم ، آجلاً أو عاجلاً ، إنتقام مسلمي البوسنة .

وليست هناك مغالاة في مثل هذا التنبؤ . فأى شخص قضى وقتاً في البوسنة لا بد أنه سمع التهديدات الشرسة بالانتقام ، فجميع الضباط البوسنيين في مواقعهم على خطوط المواجهة والسياسيون في مكاتبهم نصف المضاءة والبوسنيون المنفيون على المقاهي في دوسلدروف وفرانكفورت يتكلمون بصوت واحد حول تلك المسألة : «ستدفع أوروبا ثمن ما جرى لنا» : هذا ما قاله لي مسؤول بوسني بعد أن اتضح أن وقف النار الذي أعلن في سراييفو في فبراير ١٩٩٤ سيصمد بالفعل . ففي ذلك الوقت بدا أن السلام كان حافزاً أقوى على المראה من الحرب ، فبعد أن تحرروا من الضرورات الملحة ، كمحاولة الحصول على الماء وهم ينحنون لتجنب رصاص القناصة ، أصبح لديهم أخيراً الوقت للتفكير . وبشكل متزايد بدأ أهل سراييفو العاديون ، فضلاً عن أعضاء المؤسسة السياسية ، يستوعبون أخيراً لا مبالاة أوروبا والولايات المتحدة بما حدث للبوسنة . قال لي ذلك المسؤول : «لن يساعدنا كليتون . انه يهتم بأمور صحته وليس ببقائنا أحياء» .

كان البوسنيون قد استوعبوا بعد سنتين من التعرض «لحفظ السلام» للأمم المتحدة ، خواء وعقم نظام عالمي يفترض أن قدسيته قد كسّرت في ميثاق الأمم المتحدة . لقد تعلموا أنه ليس هناك نظام عالمي ، قديم أو جديد . كذلك تعلموا أنه حتى المبادئ التي تبلورت قبل نصف قرن عند تأسيس الأمم المتحدة في محاولة لربط العالم قانونياً لمنع الإعتداءات في المستقبل كذلك التي شنها صرب بلجراد على دولتهم

والقتل الجماعي التالي الذي عاناه مسلمو يالوسنة، كانت في الواقع مجرد مزحة. وقد يتكلم المدافعون عن البوسنة في الخارج من أمثال سيناتور نيويورك، دانيال باتريك موينهان، عن «تمزيق» النظام العالمي والمناداة بإجراءات جديدة وأن يتخذ عند الضرورة عمل عسكري ضد الصرب. على أرض البوسنة لم يكن هناك أي نظام لتمزيقه. لقد طالب البوسنيون بالمساعدة وردت الأمم المتحدة على ذلك قائلة: «لسنا مخولين بالمساعدة» وقال الأوروبيون «إذا ساعدنا فإننا فقط سنسوّى بالأرض ميدان القتل ونحن لا نريد ذلك» وقال الأميركيون: «إننا نريد المساعدة ولكننا لا نستطيع». وهكذا إستمر إغناء البوسنيين بعد رفض الدفاع عنهم وحرمانهم من الدفاع عن أنفسهم.

وقد سمي الدبلوماسيون هذه الكارثة انتصارا. وتفاخرت الأمم المتحدة بأنها تنفذ «تفويضها» تحت ظروف قاسية. وهنا الأوروبيون أنفسهم على أنه رغم مأساوية الوضع في البوسنة فقد «إحتوت» دبلوماسيتهم الأزمة البوسنية بنجاح. أما الرئيس كلينتون، الذي وعد في حملته الانتخابية بأنه إذا أنتخب فسيوقف التطهير العرقي ثم أمضى الثمانية عشر شهرا الأولى من ولايته في حالة تأهب والتطهير مستمر، فقد وبخ في غضب كريستين أما نبور مراسلة CNN في سرايفو، عندما شككت في وصفه للسياسة الأمريكية بأنها ثابتة وناجحة، وقال لها مكذبا: «سيدتي، لم تكن هناك تذبذبات».

لا عجب إذن أن بذور مشكلة فلسطين الأوروبية كانت قد بدأت تظهر قبل وقت طويل من توقف النار في البوسنة. وأيا كان المدى الذي بلغته محاولات أوروبا وأميركا لنسيان أمر البوسنة، وما حدث فيها — فبعد شهرين من وقف إطلاق النار في سرايفو كان انتباه الصحفيين والسياسيين قد تحول بالفعل إلى كوريا وأميركا الجنوبية، وكان من الممكن أن تصبح سرايفو أخبارا قديمة — فإن البوسنة لم تنس أبدا موقف أوروبا ولن تغفره.

لقد بدا لي ذلك، ومازال يبدو، صحيحا، مهما كان ذلك الشعور مدمراً للنفس موضوعيا، وأيا كانت الدرجة التي يؤدي بها ذلك إلى دمار حياة البوسنيين تماما مثلما أدت الذكريات الماثلة للأحداث الدامية في فلسطين إلى دمار مماثل لحياة

الفلسطينيين ، وأيا كانت درجة الخوف التي تسببه لي فيما يتعلق بمستقبل القارة القديمة . فقد كان بإمكان أوروبا والولايات المتحدة أن توقفا الإبادة الجماعية ولكنها نخذلتنا عن فعل ذلك . وكان بإمكان الأمم المتحدة تفسير تحويلها على أنه يتطلب منها فعل شيء لوقف التطهير العرقي . وكان بإمكان الأمين العام بطرس غالي ، بدلا من الإصرار على أنه موظف مدني دولي تنحصر مهمته في تنفيذ أوامر الدول الأعضاء ، أن يجعل الدفاع عن البوسنة أولويته الأولى . ولقد كانت له كذلك مصلحة في فعل ذلك من حيث أن الأمم المتحدة إما أن تكون كيانا متعدد العرقية ومتعدد الثقافة أو لا تكون شيئا على الإطلاق . وربما يكون الأعضاء الدائمون في مجلس الأمن هم الذي رسموا دور الأمم المتحدة في البوسنة ولكن السبب في ذلك يكمن مثل أي شيء آخر في أن بطرس غالي أتاح لهم ذلك . إنه حتى لم يدافع عن البوسنة أو مفهوم الدولة متعددة العرقيات ولو بالكلام . بل على عكس ذلك يتمثل أحد الأنشطة الرئيسية لبطرس غالي ومثليه في أن يفعلوا كل ما في طاقتهم لإحباط أي مساعدة عسكرية خارجية يستطيع البوسنيون توفيرها . تلك هي الحقائق التي تجعل المارة لدى البوسنيين أنفسهم ومن يهتم بالبوسنة متأصلة ومتأججة . وتلك هي النقطة التي تتحول فيها قصة هزيمة البوسنة لتصبح قصة العار الذي لحق بأوروبا الغربية وأميركا الشمالية . لقد كشف ما حدث في البوسنة إفلاس كل مؤسسات الأمن الأوروبي ، من الناتو حتى مجلس الأمن والتعاون في أوروبا ، وفضح حقيقة أنه لم يكن هناك في أي مكان داخل تلك الكيانات الكبرى لا الاستعداد الذهني ولا الجلد الاخلاقي للتعامل مع أزمات عالم ما بعد الحرب الباردة أو لمواجهة إحتمال أنه قد تنشب في المستقبل حروب كثيرة ليس بين الدول بل داخل الدول . ان اقناع النفس بتحليل الهزيمة بمفردها يقودنا الى الطريق الخاطئ . فهزيمة الحق أمام القوة هي في النهاية أمر شائع في التاريخ البشري وحقيقة موجودة وجود الفضيلة الفردية ، ولو كانت غير مستساغة . ولكن الهزيمة بلا ضرورة ، الهزيمة التي كان من الممكن تجنبها ، والإبادة الجماعية التي ما كانت لتحدث أو كان يمكن وقفها في بدايتها كلها أشياء من البشاعة بحيث لا يمكن إصلاحها .

ذلك ما حدث : لقي مائتا ألف مسلم بوسني مصرعهم على مشهد من

الكاميرات التلفزيونية العالمية، وتم طرد أكثر من مليونين آخرين من ديارهم بالقوة. لقد تم السماح بتدمير دولة إعترفت بها رسميا الجماعة الأوروبية والولايات المتحدة في ٧ إبريل ١٩٩٢ والأمم المتحدة في ٢٢ مايو ١٩٩٢. وبينما يجري تدميرها كانت القوات العسكرية للأمم المتحدة ومسؤولوها يراقبون ما يحدث ويقدمون المساعدات «الانسانية» ويحتجون - ويجب أن يقال هنا، وإلى حد كبير بحق، من حيث أنه لو كان للأمم المتحدة أن تتصرف بشكل مختلف لكان على القوى العظمى اعطاءها تفويضا مختلفا. إن الأمم المتحدة «نفذت» العار ولم تخلقه - على انه لم يكن لدى المجتمع الدولي الإرادة لفعل المزيد. لقد أعلن رئيسان امريكيان متعاقبان، أحدهما جمهوري والآخر ديمقراطي، مرارا وتكرارا أنها يمثلان آخر القوى العظمى الباقية ومع ذلك كانا يصران في الوقت ذاته على أنها عاجزان عن تنفيذ التدخل العسكري أو حتى رفع حظر السلاح عن مسلمي البوسنة. وليس ذلك، كما إدعى كثيرون، بسبب قانون للتاريخ خفيف ومبهم بل هو شهادة على اختيارات محدودة قام بها أولئك الذين يحكمون العالم الغني والموظفون المدنيون الذين يديرون لهم النظام الدولي الذي وضعوه. في رسالة إلى صديق يصف لورد بايرون إعداما علنيا لثلاثة لصوص شاهده أثناء مكوثه في روما - وربما كان مدركا ان روايته لما شاهده أعطت الانطباع بأنه استمتع بما رآه - يضيف قوله: «كنت سأنقذهم لو كان ذلك في مقدوري» أما المتحدثون بإسم القوى العظمى فقد أخذوا الاتجاه المعاكس. فعلى مدى ما يزيد على ستين نجاهم يحتجون على مدى الفزع مما رأوه ولكنهم يصرون في الوقت ذاته على انعدام حيلتهم وعجزهم. ولاشك أنهم كانوا كذلك فرديا وعلى مستوى شعورهم الشخصي لكن الأمم والمؤسسات التي يمثلونها كانت لا مبالية بإعدام البوسنة. كان الأمر بالنسبة لهم أشبه بالقول: «كان من الممكن أن أنقذهم ولكني اخترت الا أفعل ذلك». وفي غضون ذلك، وكما قال الناس في سرايفو، كانت الأمم المتحدة تتفجع «مثل الخصى في ليلة عريضة».

تلك هي الحياة في عالم ما بعد الحرب الباردة. (يبدو أننا لا نملك أسهاء لعصورنا، باستثناء استخدامنا لتعبيرات مثل ما بعد الحرب الباردة و« ما بعد الحديث» كعلامات توضح المسافة التي تفصلنا عن مراحل سابقة). لقد ظلمت

لأكثر من عامين أتردد بين نيويورك وكرواتيا والبوسنة . وكنت كلما عدت وحاولت إعادة الارتباط بحياتي في وطني أسمع الاصدقاء يقولون في جدية أنه لم تكن هناك بدائل أخرى فـ «نحن» لدينا جداول أعمال أخرى ومعوقات أخرى للعمل واعتبارات أخرى لابد من أخذها في الحسبان . ويكرر أتباع المرحع كلينتون مقولتهم : «انه الاقتصاد» وهو ما قد يضيف إليه اليساريون ، الذين لا يبدون رغبة في التفكير في أي استخدام للقوة الامريكية لانقاذ البوسنة ، «إنها الامبريالية الأمريكية» . أما الأمريكان العاديون الوديعون فربما يضيفون «إن الأمر يخص أولادنا أما البوسنة فهي مشكلة أوروبا» . أما الملمون بكل المآسي التي تحدث على كوكبنا فسوف يصرون على التساؤل : «وماذا عن انجولا والسودان وشرق تيمور والتبت وهاييتي ورواندا؟» . وأتذكر هنا أحد معارفي الذي أخذ يسترجع عبارة لهيجل (ليست تلك التي أعلنها فرانسيس فوكوياما حول «نهاية التاريخ» بل كانت استحضارا لأقل مغالاة لـ «طاوله ذبح التاريخ») ليدعم دعواه بأن ما يحدث في البوسنة ما هو الا مثال أكثر ذيوعا للأحوال التي تحدث طول الوقت في كل انحاء العالم .

وقبل ذهابي الى البوسنة ربما كان من الممكن أن أتفق مع بطرس غالي الذي أبدى ملاحظة أثناء زيارته اليتمة لسرايفو في ٣١ ديسمبر ١٩٩٢ مفادها أن ما يحدث هناك هو «حرب الرجل الغني» . وكأحد رجال العالم الثالث الجيدين كان السكرتير العام يعني أن البوسنة هي حرب الرجل الأبيض . لقد وبخ أهل سرايفو المدهوشين قائلا «أنني أنفهم خيبة أملككم ولكنكم في وضع أفضل من عشرة أماكن أخرى من العالم . . وأستطيع أن أعدد لكم القائمة» ، ثم غادر المدينة . وما أن بدأت أقيم لوقت طويل في البوسنة حتى ادركت ان الامر لا يتعلق أساسا بالموافقة أو عدم الموافقة على كلام كهذا بل هو الشعور بأن هذا السجل المقارن للشهداء وكل تلك الاحصاءات لاعداد أجساد القتلى غير ذات صلة بالموضوع ، تماما مثلما كان التنافس على أفضل وضع للضحية والذي أصبح بدعة سائدة في المدن الجامعية الأمريكية في أوائل التسعينات . بعد تواجدي في البوسنة ، لم أستطع أن أجد معنى لعملية التمييز بين الآم شعب وآلام شعب آخر . فهي عملية غير ذات موضوع سواء بالمعنى الأكاديمي أو السياسي : «رتب أفضل شعراء العصر الفيكتوري حسب أهميتهم» ، «رتب أسوأ

لم أعد من جانبي أخذ بجدية ذلك الجدل حول ما إذا كان حصار سرايفو أسوأ أم حصار مدينة كويتو الانجولية أو ما إذا كانت معاناة مسلمي البوسنة أسوأ أم معاناة المسيحيين في السودان . إنني أعرف فقط ما رأيته ، أعرف ما يحدث في البوسنة ، وأعرف أن التغاضي عن تلك الأحداث بدعوى أن هناك أحياناً أكثر فظاعة لن يعني ، بالمفهوم الأخلاقي ، سوى خلق عدو شرس للخير . كذلك عرفت أن ما يحدث في البوسنة لم يكن هناك مدعاة لحدوثه ، وأن الغرب كان يستطيع تجنب المجزرة . والكلام عن جميع المجازر الأخرى التي كان يجب الانتباه إليه ليس أكثر من تبرير متفلسف من أجل الشعور بالراحة لعدم فعل شيء : « سأرى بوسنتك وأريك شرق تيمور » .



إذا ما عدت إلى الحياة التي كنت تعيشها قبل أن تشاهد منظر الذبح وسفك الدماء، على الأقل إن كنت أحد مواطني العالم الغني، فسوف تصطدم بالنفاق وبالشعور الزائف بالرضا عن كل شيء تعودت أن يكون مألوفاً ومبهجاً لك. سوف تبدأ بالشعور بأنك غريب في الحياة التي رسمتها لنفسك. وبالرغم من أنه يتعين على جميع الكتاب، بدرجة أو بأخرى، أن يكييفوا أنفسهم ليكونوا غرباء محترفين، ورغم كل ألفتي بهذا الأسلوب في رؤية الأشياء فقد كان سفري جيئةً وذهاباً من مكان مثل سرايفو أو بانيا لوكا إلى مكان مثل مانهاتن يبعدين عن أصدقاءئي وماضي بدرجة لم أكن أحلم بإمكان حدوثها. لم أشعر فقط وكأنني عدت من أرض الأموات بل كأنني أيضاً أصبحت كمن بعث بعد الموت.

وإني لأشعر أنني لست وحدي الذي يراودني هذا الاحساس . فحتى المراسلين الحريين المتمرسين كان صعبا عليهم أن يستعيدوا أنفسهم بعدما مروا به في البوسنة . وإذا كنت اكتب الآن دفاعا عن القضية البوسنية— هذا برغم أنني أميل إلى الإعتقاد بخسارة هذه القضية - واعتراضا على اللامبالاة القاسية ، والتشاؤم الضحل والنفاق الذي أحاط بجريمة ذبح البوسنة ، فإنني أشك في أنني أكثر دهشة من حالتي هذه

عن أي شخص آخر. لقد تعودت في حياتي السابقة، قبل البوسنة، على إمتداح نفسي لأن الغضب انفعال كنت محصنا ضده. ومثلما لم أكن أتوقع أن ينتهي ذلك في البوسنة، كذلك لم أكن أتوقع أن اشعر بأنني لن أشفى بعد ذلك منه أبدا.

ولادخل لذلك بالشعور بالراحة هناك، ناهيك عن التصور بأنني بشكل ما «منتمي» كما يفعل الناس عندما يجوبون دولا أو قضايا. فطوال الوقت الذي قضيته في البوسنة لا أتذكر لحظة واحدة لم أكن فيها على الاقل خائفا، وأتذكر لحظات كثيرة كنت فيها مرتعبا. ولقد كنت وقتها ومازلت شديد الانتقاد للحكومة البوسنية في سياساتها وفي سداجتها، وكنت غالبا أضج وأغضب من أسلوب كلام البوسنيين يمثل هذه الخليط من استيعاب الذات وقلة الواقعية عن أنفسهم وعن بقية العالم. وبرغم ذلك فقد بدا أن الأسهل بالنسبة لي أن أكون في البوسنة، مهما بدت الأمور فيها ميثوسا منها ومثيرة للسخط من أن أستمع إلى الطريقة التي اعتاد الغرب عادة أن يتحدث بها عن البوسنة أو، وهو الأسوأ، التي لا يتكلمون بها عنها أصلا.

وسرعان ما تعودت على ندرة ما يعرفه الناس عن البوسنة في دول قريبة مثل ألمانيا وإيطاليا. لكن اللحظة المميزة عندي (بعد عام من المجزرة وبعد فترة من بدء حصار سرايفو وبعد أن قامت قوات صرب البوسنة بطرد الغالبية من السكان المسلمين من الوديان الواقعة شرق البوسنة وبعد نصف الغالبية العظمى من المساجد في شمال البوسنة وإزالة آثار إسلام أوروبا التي دامت في المنطقة لخمس قرون) كانت عند قيام الرئيس كليتون بافتتاح متحف «الهولوكوس في واشنطن». لقد كان يوما للتبجح، مفعما بالأفواه المطبقة والملابس الكثيرة وأسراب الطنطنات البلاغية. وكان من بين الحضور رئيس كرواتيا، فرانكو توديان، الذي أعرب ذات يوم عن شكه في وقوع كل تلك الفظائع في الهولوكوست. كذلك تواجد كثير من نجوا منها بمن فيهم «إيلي ويزل» الذي وبخ كليتون على سياسة أمريكا تجاه البوسنة، وهي نقطة في صالحه. ومن ناحيته أراد الرئيس أن يحصر الحديث في العموميات. وبرغم ذلك فقد كان له بالفعل إقتراح. فلنكي لا تكرر ثانية الإبادة الجماعية التي حلت بيهود أوروبا خلال فترة النازي شدد بيل كليتون على ضرورة اليقظة غير العادية وقال «علينا أن نحيي الذاكرة».

لقد كان أقل ما يقال في هذا الصدد هو ما صدر عن الرئيس كليتون من حديث عن الذاكرة وكأنها شيء شبيه بصاروخ باليستي أخلاقي . لكن الخطأ الأخلاقي الحقيقي كان في أنه يتكلم بتفاؤل عن المستقبل في الوقت الذي تجري فيه - وكما يدرك هو تمام الإدراك ، كما كان بإمكانه ويزل أن يذكره على المنصة - عملية إبادة جماعية أخرى في أوروبا . ولم تكن الإبادة الجماعية البوسنية مماثلة لما حدث لليهود بأكثر مما كانت إبادة يهود أوروبا مشابهة للإبادة الجماعية للأمريكان عام ١٩١٥ . لقد مثلت الإبادة الجماعية لليهود حافظاً لتبني المبادئ التي قام عليها النظام الدولي في أعقاب الحرب العالمية الثانية مثل معاهدات جينيف الأربعة ، ومعاهدة الإبادة الجماعية عام ١٩٤٩ ، وفوق هذا كله ميثاق الأمم المتحدة . وكل هذه القوانين تم انتهاكها بشكل منظم في البوسنة .

لقد مثل حصار سرايفو نفسه جريمة حرب . فعلى أرض المعركة كانت الأمثلة على عدم إرتكاب جرائم حرب أندر من الأمثلة على إرتكابها . ولم يكن التطهير العرقي ، بطبيعة الحال ، مجرد جريمة حرب ، لقد كان إبادة جماعية صرفة . وقول كلمات مثل «لن يحدث ثانية» ، التي قالها كليتون في افتتاح متحف اللوكوست ، لن يعني شيئاً آخر سوى الانتقال من موقف إدعاء البلاءة إلى التبرجج الكامل ، طالما أن الإبادة الجماعية مستمرة في البوسنة وطالما لم يفعل كليتون شيئاً لوقفها . لقد كانت كلماته ، حرفياً ، بلا معنى . فإذا لم يكن هناك نية للتدخل لوقف الإبادة الجماعية الجارية فإن عبارة «لن يحدث ثانية» لن تعني أكثر من «لن يحدث ثانية أن يقتل الألمان اليهود في أوروبا في الأربعينات» ، وكأن كليتون يقول : «لن تحدث ثانية مجاعة البطاطس» أو «لن تحدث ثانية مجزرة البيجنز» . والآن ، وفي ضوء معدل سير الأحداث ، هل يتوقع المرء أن يقوم رئيس أمريكي قادم ، عام ٢٠٥٠ ، بافتتاح متحف للتطهير العرقي؟

خلال الحملة الانتخابية عام ١٩٩٢ وعد المرشح كليتون باستخدام نفوذ أمريكا في إنهاء هذه الإبادة الجماعية الجارية في البوسنة وبعد مضي كل هذا الوقت قد يصبح أحد أعوان كليتون في وجهي في غضب : «لماذا يأخذ الناس الآن وعود الحملات الانتخابية بمثل هذه الجدية؟» أو على الأقل ، إعطاء الحكومة البوسنية وسيلة

الدفاع . وبعد عامين ، يبرر تشارلز ريتمان ، مسئول الخارجية الامريكية المكلف من الرئيس كلينتون بوضع خطة سلام في البوسنة ، قبول أمريكا بمبدأ التقسيم قائلا : « كان علينا أن نفكر فوق الجسر الأخلاقي » للحصول على السلام . لكن على أقل تقدير ظل الأمريكيان ملتزمين كلاميا بفكرة السماح للحكومة البوسنية بالدفاع عن نفسها أمام العدوان الصربي ، وفي أواخر ١٩٩٤ قرروا أنهم لن يستمروا في تطبيق حظر السلاح . أما الأوروبيون فقد أنكروا أصلا وجود أي عدوان وتحدثوا بدلا من ذلك عن حرب أهلية في البوسنة . وعارضوا بإصرار رفع حظر السلاح الذي مررته الأمم المتحدة قبل أكثر من عام كجزء من مجموعة عقوبات قصد منها عقاب الصرب على الحرب التي كانوا يشنونها ضد كرواتيا المنسحبة من الاتحاد اليوغسلافي . وظلوا متمسكين بتلك السياسة رغم أن الحرب في كرواتيا إنتهت وبرغم أن هذه السياسة لا تؤدي الآن الا إلى تعزيز موقف الصرب في البوسنة . فالصرب ووكلائهم في البوسنة لديهم أكثر من كفايتهم من السلاح ، فقد ورثوا مخازن الجيش الوطني اليوغسلافي وحصلوا على القليل الذي لا يتوافر لديهم من الروس واليونانيين . أما موقف الكروات فكان أكثر تعقيدا فقد تحالفوا مبدئيا مع الحكومة البوسنية عندما بدأ القتال في ابريل ١٩٩٢ ومع ذلك فعندما صار واضحا أنه حتى وفق خطة فانس - أوين فان البوسنة بعد عام سيتم تقسيمها على أساس الغلبة العرقية في المناطق المقسمة ، بدأ الكروات حملة التطهير العرقي الخاصة بهم ضد المسلمين . وقد تفجر هذا الموقف عندما لم تتمكن قوات الكروات من الإستيلاء على القسم المسلم من مدينة موستار وعندما قامت قوات الحكومة البوسنية بهجوم مضاد ناجح في وسط البوسنة . وأخيرا ، في عام ١٩٩٤ ، وبعد هزيمتهم على أرض المعركة وتحت ضغط امريكي وألماني ، عاد الكروات ثانية الى العمل المشترك مع حكومة سراييفو بل وحاربوا معهم في هجوم الحكومة الذي طرد قوات الصرب خارج مدينة كوبريس في أواخر اكتوبر ١٩٩٤ . ولم يتمكن الكروات فحسب من شراء كمية كبيرة من السلاح من السوق المفتوحة بل إن إحياء تحالفهم مع حكومة البوسنة ضمن لهم نصيبا من أي عتاد تمكن الجيش البوسني من تهريبه للداخل . وبعد هذا كله فالبوسنة محصورة ولا بد أن يمر كل شيء عبر الحدود الكرواتية .

وبطبيعة الحال فإن الغرض الحقيقي من الإبقاء على الحظر تمثل طوال الوقت في ضمان وصول أقل عدد من السلاح إلى الجانب الحكومي . ورغم أن الحظر قرره مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في ٢٥ سبتمبر ١٩٩١ قبل أن تعلن البوسنة استقلالها فإن حقيقة أن حكومة البوسنة فقط هي التي تضررت لم تزعج أحدا . بل ان وزير الخارجية البريطانية دوجلاس هيرد رأى أن عدم التوازن العسكري الذي أطل الحظر أمده أكد في الواقع أهمية أن يظل الحظر ساري المفعول : «إننا لا نريد أن يتساوى طرفا القتال» ، هذه العبارة كررها هيرد أكثر من مرة . لقد بدا وكأن ماكان يخشاه هيرد ، في واقع الأمر، أنه إذا تحسن تسليح قوات حكومة البوسنة فسوف يلقنون الصرب درسا . ومن يدري ما كان سيحدث عندئذ؟ لقد كان هذا الاختيار أفضل كثيرا ، برغم كآبته ، من أن تمنى النصر للصرب . فعلى أقل تقدير سيتوقف القتال .

لقد كان هناك مسئولون داخل الحكومة البريطانية راغبين في مثل هذا التنازل : «لم يكن يجب علينا الموافقة على تقطيع أوصال يوغسلافيا دون أن نسوى أولا مشكلة الأقليات والحدود وربما ليس قبل أن يكون في أيدينا برنامج إنساني لمبادلة السكان . إن الاعتراف بالبوسنة وتحرير مسلمي البوسنة على إعلان استقلالهم كان أعلى مراتب العمل الأخرق» ، ذلك ما كتبه السيد ر. د. ويلكينسون من مكتب تخطيط السياسة الخارجية التابع لوزارة الخارجية البريطانية . أما بالنسبة للموقف الأمريكي فإن ما بدا نقطة جوهرية فيه هو الاحجام عن إنفاق رأس المال السياسي اللازم لإنقاذ البوسنة . فقد ذكر أن تيم ويرث ، سناطور كلورادو السابق ومستشار كليتون ، أبدى تلك الملاحظة : «إننا لا نستطيع ان ندع البوسنة تعرض للخطر أفضل أمل ليرالي لجيل كامل» . وذكر مساعدو كليتون الساخطون أن موقفا حرجا قد نشأ عندما كانت الإدارة تفكر في إرسال وزير الدفاع إلى سراييفو فعارضت هيلاري رودهام كليتون بانفعال هذا التحرك على أساس أن ذلك سيخفي برنامج الرعاية الصحية من الصفحات الأولى خلال زيارة وزير الدفاع للبوسنة . وعندما سمعت بهذه القصص فإن كل ما استطعت أن أفكر فيه هو الموتى وكيف كانوا في حاجة إلى ألا يموتوا . ومازال يرادوني هذا التفكير البسيط أيا كانت آثاره على المستقبل السياسي «الأفضل

أمل بجيل كامل».

إن كون إنجازهم الرئيسي تمثل في القتل في واقع الأمر، وإن كان القتل ذا أهداف سياسية وعسكرية دقيقة التخطيط (لم يكن التطهير العرقي مجرد جريمة حرب بل مثل تكتيكاً للسيطرة على الأراضي المحتلة دون قلق من وجود سكان منائين)، قد بدا، في ضوء الاحباط المتزايد للصحفيين الذين يغطون القتال ودور الأمم المتحدة في تخفيف آثاره دون التوسط فيه لا يصنع فرقا على الإطلاق. وفي نظر الضباط العادي في «قوات الحماية» التابعة للأمم المتحدة - وهذه التسمية، والمكرهه من جانب المسلمين البوسنيين، كانت تعني في الواقع قوات الحماية الذاتية (أي حماية نفسها) - لم يكن الجو في ميس الضباط في بالي، مع بعض التجاوز نتيجة لظروف الحرب وخصوصيات البلقان، يختلف كثيرا عن أي قاعة ميس تعود فيها تناول الوجبات والإستراحة.

وعلى الوجه الآخر، كان جنود الحكومة البوسنية أقرب ما يكونون إلى مدنيين يتدربون على كيفية أن يكونوا جنودا. كانوا يستلقون على كراسيهم ويسرون بمشية غير عسكرية بالتأكيد مثيرين الإنطباع بأنهم بعيدون تماما عن الطقوس والتقاليد التي هي صلب العسكرية في كل دولة تقريبا. فكثير منهم إن لم يكن معظمهم مدنيون والباقيون ضباط صغار. ومن المؤكد أنه من النادر أن تقابل ضابطا ذا رتبة عالية في قوات الحكومة البوسنية كان قبل الحرب يحمل رتبة تفوق رتبة الرائد في الجيش الوطني اليوغسلافي.

إن ما كان يملكه البوسنيين بالفعل هو أوهامهم، وبخاصة إعتقادهم أن ما كان يحدث لهم منذ بدء القتل مثل بشكل ما نوعا من الخطأ الفئوي المروع. كان الأمر، كصورة معكوسة لوصف بطرس غالي لورطتهم، وكأن البوسنيين تصورا أن كونهم أوربيين سيحميهم من أهوال الحرب. فأوربا، بالنسبة لهم، هي قارة أصبحت فيها القيم العالمية التي يدافعون هم عنها عرفا متبعا.

وفي سرايفو، بصفة خاصة، وحتى لحظة إندلاع القتال، كان متوقعا أن تكون الحياة في المستقبل لا تختلف في شيء عن الحياة في «مدن الأقاليم» الأوروبية الاخرى، مثل تريستا او غراز. وحتى عندما أدركوا أنهم وقعوا في خطأ مريع حول ما يجبؤه لهم القدر في المستقبل لم يستطع، سوى عدد قليل منهم، أن ينبذ تماما تلك التوقعات.

فلم يكن يفترض أن تندلع حروب في غابات أوروبا كثيفة الخضرة في التسعينات، بين أناس أصبحت ملكية أكواخ على شواطئ البحر والسيارات المستعملة والتعليم الجامعي أمرا شائعا لديهم . فالحروب تندلع في العالم الفقير . وفي دولة غنية مثل يوغسلافيا السابقة، كان من المفترض أن يسود سلام راسخ الأسس ومتحضر، برغم تاريخها الدموي .

وعندما جاءت الحرب، أدرك سكان البوسنة من الطبقة الوسطى، وبخاصة في مدن سراييفو وموستار وتوزلا وبانيا لوكا، في ألم أنه رغم استماعهم لخطابات القوميين الصرب من أمثال سلوبودان ميلوسيفيتش، رئيس صربيا، ورادوفان كاراديتش، زعيم صرب البوسنة، فإنهم في الحقيقة لم يسمعوا شيئا . إن المقارنات بين ميلوسيفيتش وبين هتلر غبية ولا تعني شيئا (تلك الرغبة الجائعة لعهد ملطخ بالشطط البلاغي الذي يصر على أن أي شيء جيد هو الأعظم وأي شيء رديء هو الأسوأ) - ولكن عجز سراييفو هذا عن السماع يذكرنا برد فعل كارل كراوس الممثل النموذجي للتيار العالمي النزعة في وسط أوروبا خلال فترة ما بين الحربين - الذي كتب يقول: «عندما أفكر في هتلر لا يرد شيء في عقلي» . كذلك لا يستطيع كثير من مواطني سراييفو العالمي النزعة، وحتى هذه اللحظة، إستيعاب ما حدث لهم . والواقع ان ذلك الخلط الادراكي وسوء الفهم لوضعهم التاريخي هو الذي يميز رد الفعل البوسني على الحرب التي أحاطت بهم عن رد فعل الافغان أو الأنجوليين . ففي البوسنة، اكتسى الألم العالمي الذي تشهه الحرب بتلك المسحة من الدهشة لدى أولئك الذين اعتقدوا أن حياتهم المادية ستكون دائما سعيدة .

فلقد قيل الكثير عن أن «نهاية التاريخ»، ذلك المفهوم الذي لم يكن يعني أكثر من «نهاية الشيوعية»، سببها عصر الاستهلاك الذي تسوده البلادة والهدوء .

وأصور الآن أنني إعتقدت ذلك أيضا، متخيلا أنه قد وُلّت بشكل حاسم عهود الدموية، بالنسبة للأوروبيين البيض على الأقل . كنت أعرف أن أوروبا لم تكن، تاريخيا، مكانا لطيفا بشكل خاص، وأنها كانت في فترات معينة - مثل الخمسين عاما الأولى من القرن العشرين وهي التي يجب أن أوليها إهتمامي - مكانا «وحشيا» بصورة خاصة . ولكن رغم أنني كنت أعرف ذلك، فإنني لم أعتقد بهمق أيا كانت مشاعر

الأسف والاشفاق التي كنت أحس بها إزاء هيروشيا وأوزويتش وخراب افريقيا وأرخييل الجولاج . فهذه الأحداث كان من الممكن أن تقع أيضا في حقبة جيولوجية أخرى .

لقد ظننت قبل بداية ذهابي إلى البوسنة أن الأزمة التي تلوح في أوروبا يمكن أن تتمحور حول الأزمة الدولية العامة التي بدا أن العالم الغني سيمر بها .

لقد كانت أعداد متزايدة من الناس من العالم الفقير غير الأوروبي تهاجر بنجاح إلى دول الإتحاد الأوروبي وأمريكا الشمالية ليقوموا بالأعمال التي لم يعد المواطنون راغبين في القيام بها . كان وجود هؤلاء المهاجرين والتحديات - الثقافية والعنصرية واللغوية - التي فرضوها هي التي بدا أنها الورطة الكبيرة والعنيدة التي يخوضها المستقبل للعالم الغني . فلم يكن لأوروبا تقاليد للهجرة . ويعكس الولايات المتحدة ، التي مرت بتحولاتها الخاصة المرتبطة بالهجرة ، ولم يكن هناك سياق معرفي قوي لما كان يجري . ولكن الأزمة لا تعني الحرب ، رغم أنني في لحظاتي الأكثر كآبة وجدت انه من السهل تصور مستقبل أوروبا وقد أصبح القمع والنزعة المناهضة للديمقراطية هو القاعدة . وستتألف أوروبا تلك من مواطنين ومهاجرين أو بعبارة أخرى ، ستكون كمجتمع أقرب إلى أننا جامعة العبيد منها إلى العالم الاجتماعي الديمقراطي فيما بعد عام ١٩٩٥ وقبل الإجماع الأوروبي الغربي عام ١٩٨٩ . ولكن ما لم أستطع تصوره هو صوت رصاص الدبابات وصغير طلقات القناصة وهو يدوي عبر نوافذ المباني العالية وعبر الحدائق الأنيقة والمتاجر والمقاهي المتلاثلة ومعارض الفن التشكيلي ومعارض السيارات والمراكز التاريخية في مدينة مثل سرايفو . لم أستطع أن أتصور هذه الأشياء بأكثر مما تصورها البوسنيون أنفسهم قبل أن يغمروهم ما لم يخطر لهم قط على بال .

الفصل الثاني

أتيت إلى البوسنة بمحض الصدفة تقريباً، دون خبرة في الحرب، مدفوعاً بفكرة أن القتال الدائر في أوروبا لم يكن نذيراً للمستقبل بل مفارقة تاريخية مرعبة وعميقة لنياط القلب. وربما كان هذا هو السبب في أنه حتى في ذلك الوقت من صيف ١٩٩٢ ظلت مذبحه البوسنة لا تزيد عندي عن كونها فكرة مجردة كما كانت، في اعتقادي، بالنسبة لكثير من الأوروبيين والغربيين والأمريكيين الشماليين. فرغم المعلومات الكثيرة التي تسربت عما كان يحدث هناك لم أجد سياقاً لتفاعل معه، لقد تعاطفت تلميحاتاً - وأعني بذلك في ألم - عندما كانت الصورة المرئية للمذبحة أقوى ما تكون ولكن التعاطف كان يختفي عندما تغيب القصة عن إذاعات الأخبار المسائية، ولكنني لم أفهم. وفي ذلك الصيف، وبعد أن انتهت حرب الكروات وبدأ أن تدمر البوسنة قد أصبح وشيكاً، صار من الشائع أن تسمع أناساً لطفاء ذوي مصادر وثيقة من كلا جانبي الأطلسي يتكلمون باستغراب عما كان يحدث، كما كان شائعاً بنفس القدر أن تسمعهم يمزجون تعبيراتهم عن التضامن الأخلاقي بتعابير عن انعدام الحيلة والتي كانت معرفية بقدر ما كانت عملية. وبوجه عام، بدا أنهم أقل صدمة إزاء وقائع «التطهير العرقي» - وكانت في ذلك الوقت عبارة جديدة - أو بحصار سرايفو عن صدمتهم إزاء حقيقة أن تلك الأحداث كانت دائرة في أوروبا في التسعينات.

لقد بدت لي العبارات التي أخذت تبرز بشكل متواتر عندما ظهر موضوع البوسنة بمثابة التأكيد على أن الحيرة التي أصابت الناس عندما أجبروا على مواجهة أي حادثة رهيبة ارتبطت، في حالة البوسنة، بذهول حقيقي بأن ما كان يحدث يجري في أوروبا. ظل الناس يتساءلون كيف يمكن أن يحدث ذلك هنا، (و«هنا» هذه تمتد لتشمل جزيرة مانهاتن وجورج تاون وكامبردج وماساشوستس إلى جانب فرنكفورت وميلانو وباريس)، ويهزون رؤوسهم متعجبين من فكرة أن سرايفو، وهي مدينة

أوروبية، كانت بطريقة تتحول منظمة إلى أنقاض على يد عساكر الصرب على المرتفعات المحيطة. لم يكن هناك مجال للدهشة في أن أوروبا، في هذا السياق، قد أصبحت تصنيفاً أخلاقياً بقدر ما هي تصنيف جغرافي.

وبالرغم من أزمة الثقة المفترضة في أوروبا فإن الصيحات ضد «المركزية الأوروبية» التي أدت إفتراضاً، بعبارة الكاتب الفرنسي باسكال بروكنر، إلى «التحلل الأخلاقي غير المبرر في نصف الكرة الغربي» فإن المفهوم القائل إن أوروبا أكثر تحضراً أخلاقياً كان مترسخاً بأكثر مما يزعم عادة. وإذا كان ما يحدث في البلقان يوحي بأنه لا يمكن رسم خط واضح بين قيم أوروبا وقيم الأجزاء الأخرى من العالم - أو بين الغرب وبقية العالم كما يرى أصحاب النزعة المحافظة - فإن الأخبار السيئة ظلت منفصلة عن التجربة اليومية للحياة في الغرب التي ظلت فكرة الحرب غريبة تماماً عنها.

كان على الحضور إلى أوروبا للذهاب إلى حرب، وكنت قد بدأت العمل في كتاب عن أثر تلك المجموعات الجديدة والمنبوذة من اللاجئين والمهاجرين الذين وصلوا إلى القارة القديمة من كل من تلك المناطق من العالم التي يميل معظمنا إلى تسميته بالعالم الثالث تعبير - وهو تعبير فضفاض بحيث لم يعد له معنى سوى أنه يعكس نيتنا السيئة - ومن العالم الثالث «الأشقر» الجديد المكون من المناطق المدمرة من الامبراطورية السوفيتية السابقة التي تحصنت منها أوروبا الغربية منذ ١٩٨٩ بالأسلاك الشائكة والنزعة الاستبدادية. لقد انجذبت لوقت طويل إلى الحدود سواء في ذلك الحدود الفعلية أو النفسية وبعد توحيد ألمانيا فقد أصبح لنهر الأودر جاذبية لا تقل عن جاذبية نهر ريو جراند أو مضيق فلوريدا. وربما لأنني في سن مكنتني من معرفة كثير من المدن الأوروبية الكبيرة على عهدها قبل عصر الهجرة الجماعية فإنني لم أكن أغالب الصدمة، كلما رجعت إليها، من التشابه المتزايد بين لوس انجلوس بالغالبية الجديدة المكونة من اللاجئين من شرق آسيا والمكسيك ووسط أمريكا وبين مدينة بروكسل التي، وعلى نقيض التجانس النسبي عرقياً وجنسياً التي تميزت به منذ جيل واحد فقط، أصبح أكثر من ربع سكانها من تركيا والمغرب وأفريقيا. ولكن ان تصبح لوس انجلوس نموذجاً لأمريكا المتحضرة في القرن الحادي والعشرين فهذا شيء محتمل أما أن تمر بروكسل، المدينة التي أصبحت العاصمة الإدارية للاتحاد

التي تأثرت بالهجرة في أوروبا وأمريكا وتلك التي لم يحدث لها ذلك . وخلال تلك الرحلات، حاولت أيضاً أن أزور أكبر عدد من مخيمات ومراكز اللاجئين الجدد التي أقامتها مختلف الحكومات الأوروبية القومية والمحلية، وطول الوقت أكتب الملاحظات متمنياً، كما يفعل أي كاتب عند البدء في موضوع جديد، أن تتضح في النهاية ملامح كتاب أقوم بكتابته .

كنت أقضي أيامي مع الباحثين عن ملاجئ والشبان حليقي الرؤوس، والأخصائيين الاجتماعيين ولكن ظلت الحرب في يوغوسلافيا مادة للأخبار المسائية أينما سافرت . ولكن من منظور روستوك ليختنهاجن، حيث أشعل النازيون الجدد بيتاً مخصصاً للباحثين عن اللجوء السياسي، أو في مولن حيث أحرقوا عائلة تركية أحياء داخل متجرها، أو في الجانب البولندي لنهر أودر حيث يتجمع العمال غير الشرعيين من وارسو القريبة أو من الصومال كل ليلة ليعبروا المياه الضحلة إلى الجانب الألماني، فقد بدا لي إنهيار يوغوسلافيا مسألة ثانوية أيا كانت مأساويته ليس فقط مقارنة بالموضوع الذي بدأته بل كذلك مقارنة بانهيار الاتحاد السوفياتي قبل ثلاث سنوات . كانت الحرب الباردة هي التي حددت فهمي للعالم، وإذا لم يكن لسبب آخر، فقد جعلت أيضاً نهاية فكرة الفناء النووي التي صاحبت ذلك الصراع ومنذ مولدي، يبدو عام ١٩٩٢، رغم أنه لم يكن وقتاً مفعماً مثل ١٩٨٩، فترة يكون فيها أي شخص عاقل على ثقة تامة من تحققها بفعل السير العام للأحداث .

وبعد كل ما كان يقال ويحدث، ماذا يمثل سقوط يوغوسلافيا إذا ما قورن بالدمار النهائي والذي طال انتظاره للنظام الشيوعي؟ بالتأكيد كانت يوغوسلافيا دولة مثيرة للاهتمام، وإذا كنا قد ضللنا بالشعور الكاذب بما صارت إليه يوغوسلافيا من خلال الدعاية الموالية لتيو التي أبرزتها وسائل الإعلام المضادة للشيوعية في الغرب ، فإن الغرباء مثلي لم يكونوا أكثر إرتياحاً لإدانتها كما فعلنا مع بلغاريا وبولندا بل حتى المجر الأكثر تحوراً تحت شيوعية «الجولاش» في عهد كادار . ولقد بدا تيتو نفسه، أيا كان خطؤنا عند استرجاع الأحداث، شخصية أبعد كثيراً عن الملامة من أي شخص آخر في الكتلة الشرقية — كان طاغية كما هو واضح ولكنه كان أشبه ما يكون بكاسترو أو «هوشي منه» الذي لم تكن لهما جاذبية «كارزمية» هائلة بل كان كل منهما

يبدو أيضاً أكبر بكثير من البلد الذي يقوده . وبمعكس كاسترو أو هو، وأقرب إلى فرانكو، كان تيتو شخصية يمكن أن تنهي حياتها، ربما رغماً عنها، بإدخال نظام أكثر ديمقراطية مما توحى به أيدولوجيته أو تاريخه .

ومع ذلك ومن منظور العالم اللامبالي، هل يهم الأمر؟ ألم تبدو يوغوسلافيا دائماً، بموقعها بين الشرق والغرب، والتي تحيا على المساعدات الأمريكية في الأربعينات ثم على التحويلات المالية لعمالها الوافدين إلى أوروبا الغربية في فترة الازدهار الاقتصادي لألمانيا ثم في الشرق الأوسط في عهد البترودولار وفي نهاية حكم تيتو على القروض وامويلات غير الناجعة من المعونات الدولية والبنك الدولي - ألم تبدو يوغوسلافيا على الدوام مسألة ثانوية؟

في عام ١٩٨٠، عندما ذاعت الأخبار عن حرب الإبادة الدائرة على يد نظام بول بوت في كمبوديا لم يدع أحد أن المأساة مهمة بسبب أهمية كمبوديا من ناحية الجغرافية السياسية . فإذا استنتج الناس أن حرب الإبادة هناك غير محتملة فقد كانوا يفعلون ذلك على أساس أخلاقي معتقدين أن هناك حالات شاذة - من حرب الإبادة بشكل خاص - العالم ملزم على أساس أخلاقي وربما شرعي كذلك إذا صدق المرء أن اتفاقية حرب الإبادة ١٩٤٩ ملزمة لكل من وقوعها، بالتدخل لوقف استمرارها . وحتى على أيام كمبوديا، كان هناك من أشاروا إلى أي عدد آخر من الكوارث المستعصية التي كانت تحدث في كل أنحاء العالم في ذلك الوقت . أو كما ذكر مدير اليونيسيف جيمس جرانيت للكاتب الانجليزي وليم شوكرس «إنها بالتأكيد مزعجة»، ولكن برويتها بعيداً عن العاطفة سنجد لها واحدة من كوارث كثيرة ولكنها ليست أسوأها بكل المعايير . هل ما جعل يوغوسلافيا جديرة بالملاحظة عام ١٩٩٢ هو أنها كانت تحدث في أوروبا، في تلك القارة السعيدة والموهوبة حيث لا يفترض للحروب، بمعكس الكوارث الطبيعية والجرائم، أن تنشب؟

هل يعني ذلك أن ما كان يحدث هناك كان جديراً بالاهتمام بشكل خاص؟ لماذا البوسنة؟ لم لا تكون . . . ؟ يبدو أن القائمة تطول وتطول .

لعل هذا كان السبب في أنه كان أسهل كثيراً على أناس مثل مارجريت تاتشر والمحافظين الآخرين - والذين لم تكن لديهم شكوك في الحضارة الأوروبية بوصفها لا

تمنح فقط الامتيازات بل تتطلب مستوى أعلى من السلوك السياسي لمن هم في فلكتها - أن ينادوا بالدفاع أولاً عن كرواتيا ثم عن البوسنة . بالنسبة لهم فإن العدوان الصربي ، الذي عرفوه بشكل سليم - مستنكرين كل الإدعاءات حول الحروب الأهلية والأصولية الإسلامية والعنف الكامن في شخصية البلقان - كان ببساطة خطأً وشيئاً غير مقبول يجب تصحيحه . أما بالنسبة للبراليين ، الذين كانوا قد تحرروا من وهم فكرة الحضارة الأوروبية (أيا كان تأصيل قرارهم لها في أعماق أعماقهم) فقد كان الوضع أصعب بكثير، فعلى مدى جيل حاولوا أن يزيحوا عن أنفسهم وحاولوا أن يروا العالم ليس من منظور زاويتهم الضيقة داخله بل بكلية . وقد جعل ذلك مواجهة موضوع يوغسلافيا ، وحتى الاهتمام بيوغسلافيا ، أصعب بغير حد حيث تعودوا على التفكير بأن أوروبا إحدى مناطق العالم التي لا يجب على أحد الاهتمام بها كثيراً ، في الواقع ، التي من الخطأ الاهتمام بها بمثل هذا القدر . والذين كانوا مهتمين بالفعل كانوا متأكدين أن شخصاً ما ، سواء كان بطرس بطرس غالي في الأمم المتحدة أو كاتب العمود المحلي اليساري ، يمكن أن يتهمم بالتأثر على نحو خاص بمعاناة الأوروبيين البيض . ولقد شعر السكرتير العام بالحرية في إبداء ملاحظته الشهيرة عن كيف أن البوسنيين أفضل بكثير من ضحايا العديد من المجازر الأخرى القائمة في العالم وذلك خلال زيارته لسرايفو عشية السنة الجديدة ١٩٩٢ .

كان تأثير ما حدث كابحاً ، على أقل تقدير ، فقد أضاف كبحا أخلاقياً إلى الفوضى التي أفرزتها الحرب عند الكثيرين . وحتى بين أنصار قضية البوسنة كان من الشائع أن تسمع عبارات مندهشة آسفة حول الوقوف في صف واحد مع السيدة تاتشر أو كبار المسؤولين السابقين في إدارة ريجان . أضاف إلى ذلك حقيقة أنه طوال الحرب الكرواتية ، أيّاً كانت صدمة العديد من الليبراليين في فرنسا وبريطانيا وبخاصة أميركا الشمالية بما كان يفعله الصرب ، فقد استولت عليهم أيضاً ذكرى فظائع الفاشيين الكروات أثناء الحرب العالمية الثانية . ولم يكن الأمر يتمثل فقط في تذكرهم أن كرواتيا كانت تحت إمرة آتني بافيليتش وحزب أوستاشا الفاشستي الذي تعاون مع النازيين وكان مسؤولاً عن قتل مئات الآلاف من الصرب واليهود . بل في أن هذه الذكرى جعلتهم يشككون ، بصورة غير منطقية ، في أن جميع الكروات ظلوا في

أعماقهم فاشيين ومعادين للسامية حتى الآن . وقد عززت فكرة ان المانيا والنمسا هما أكبر مساندين لكرواتيا التحفظات لدى الناس في دول الناتو الأخرى . كما أن الكروات لم يفعلوا شيئاً لمساندة قضيتهم في الخارج . فقد أُلّف الرئيس فرانكو توديان الذي كان في السلك الشيوعي وجنرالاً في الجيش الوطني اليوغسلافي قبل تحوله إلى القومية كتاباً يشكك فيه في حقيقة كارثة اليهود ورغم أنه أنكر بشدة أنه معاد للسامية فقد كان يولي أهمية لربط التحالف الحاكم أكثر من شجب هؤلاء الأعضاء داخل حزبه (الاتحاد الكرواتي الديمقراطي) من ذوي الميول الواضحة المؤيدة لحزب «الأوستاشا» . وكان الأكثر جوهرية أن الصرب في التصور الشعبي الغربي كانوا الأولاد الطيبين أثناء الحرب العالمية الثانية . ولم يكن سهلاً وبخاصة على الناس العاديين أن يقفوا إلى جانب أعدائهم السابقين وأن ينسوا بسهولة تحفظاتهم تلك تجاههم حتى بعد تدمير مدينة فوكوفار الكرواتية . وفي فرنسا على وجه الخصوص ، حيث كان الشعور لصالح الصرب قوياً ، كان من الصعب حتى أن تدافع عن الكروات ، وكان من أوائل الكتاب الفرنسيين الذين قاموا بذلك آلين فينكلركوت بكتابه المثير للجدل «كيف يمكن للمرء أن يكون كرواتياً»؟

ومع كل تلك الإدعاءات والمحاذير المتعارضة التي تتدخل في فهم المرء ، فليس من المدهش ، باسترجاع الأحداث ، أن تكون الأخبار من البلقان على CNN والقناة الثانية وسكاى نيوزالبريطانية و ZDF الألمانية في بعض الأوقات منتشرة في كل القنوات ومنطوية في الوقت ذاته على تأثير أقل قوة بكثير من تأثير الأحداث التي تدور على مسافات جغرافية أبعد بكثير.

ولا أظن أنني كنت وحيداً في تعجبي ، عند مشاهدة حصار فوكوفار عند انتهائه واستيلاء الصرب على المدينة ، من كيفية دمارها الكامل على الطريقة القرطاجية ، وفي تساؤلي أيضاً إن كان الكروات قد فعلوا شيئاً يستحقون عليه ما أصابهم وحتى في أوضح حالة ، وهي القصف الوحشي لدوبروفنيك التاريخية ، وأنا أجفل لرؤية الصور التلفزيونية التي عرضت قذائف البحرية تفجر حوايط القلعة القديمة وتشعل النيران في المباني الفخمة للمدينة القديمة ، ظللت أفكر أنه كان على الكروات المدافعين عن المدينة الاستسلام وإنقاذ المدينة . فحتى بالنسبة ليهودي مقتلع الجذور مثلى ، فإن

فكرة أن القومية الكرواتية تمثل قضية تستحق الموت من أجلها - وهو أمر يبدو لي الآن عادياً بذاته - كانت لا تزال تبدو لي عشية قصف دوبروفنيك أمراً يصعب قبوله .

ولقد مرت عملية تدمير دوبروفنيك بسهولة ، على الأقل كما عرضت على التلفزيون . لقد كانت محاولة تدميرها تخريباً متعمداً وليس حرباً ، حتى وإن اتضح أن الدمار الحقيقي للمدينة كان مبالغاً فيه في التقارير الأولية للسلطات الكرواتية - كما كانت شاهداً أيضاً على الطريقة التي كان يتم بها استقبال الأحداث في يوغسلافيا السابقة - حيث تستقبل غالباً بدون تحليل سياسي أو سياق تاريخي . كان المراسلون في المواقع يعرفون أكثر بالطبع وحاولوا نقل ما يعرفون بأفضل ما يستطيعون . وعندما أسترجع الأحداث الآن أوقن أن الصيغ التي يعملون في إطارها كانت تمخّضهم في أغلب الأحيان . فما كانوا يكتبونه في تقاريرهم ، ما لم يكن للشخص سياق يضع فيه المعلومات التي تقدم إليه ، كان قراءات عاطفية عما كان يدور في المدينة الشهيدة والأسرة اللاتجة ورجال المليشيا قساة القلب . بالطبع كانت كل هذه الأنماط موجودة ، لم يكن لأحد أن يمضي أسبوعاً في البوسنة أثناء القتال دون أن يواجهها . ورغم الابتذال دون شك في قول هذا فإنني أعتقد أن الصرب كانوا المدانين في الحرب أكثر مما كنت أعتقد عندما كان كل ما أعرفه عن «التشتيك» هو صورة على CNN وما ذكره لي المراسلون مثل كريستين أمانبور عن وحشتهم .

لقد جعلتني مشاهد الحرب المتلفزة سريع التصديق - فلا أذكر مثلاً مجرد التفكير فيما إذا كان هناك المزيد في القصة عما كان يعرض ، وكان هناك بالفعل المزيد حتى في حالة واضحة مثل دوبروفنيك - ولكن وللمفارقة ، فبرغم وربما بسبب عاطفية ردود فعلي أو ضحالة احكامي ، فقد كان من السهل علي أيضاً ان انتقل الى اهتمامات أخرى : الهجرة الكبيرة وانهار الشيوعية وقيام رأسمالية كونفوشية جديدة في شرق آسيا - رغم علمي بأن القتال كان يدور عن قرب . إن زغرب ، العاصمة الكرواتية ، تبعد ساعتين بالطائرة عن فرانكفورت . أما سراييفو فتبعد فقط بخمس وأربعين دقيقة ، أو كان يمكن ان تكون كذلك لو ان المجال الجوي البوسني لم يغلق أمام كل الطيران عدا رحلات إغاثة الأمم المتحدة وغزو طائرات الهليكوبتر التابعة للصرب وطائراتهم الحربية ذات الأجنحة الثابتة .

وعلى أية حال فالمعرفة ليست القوة، ان وعملية سقوط يوغسلافيا متلفزة بكل تفاصيلها تثبت هذه الحقيقة. فعندما ذهبت أخيراً إلى البوسنة كانت لدي معلومات كثيرة ربما أكثر مما كان لدى معظم من ذهبوا إلى معظم الحروب لدرجة أنني كنت أعرف موقع الأرض في أماكن لم أطأها مطلقاً. وعندما ذهبت إلى سراييفو للمرة الأولى، كنت أعرف مسبقاً أنه لكي أنتقل من المطار إلى هوليدياي إن، حيث يقيم الصحفيون، كان علي أن أتجامل للحصول على تصريح لركوب سيارة مصفحة تنقل الموظفين إلى رئاسة الأمم المتحدة في مبنى الاتصالات القديم في المدينة، الـ PTT حيث أن ركوب سيارة «مرفهة» على طريق المطار كان عملاً طائشاً بسبب وجود القناصة، كما عرفت أنه للوصول من الـ PTT إلى فندق هوليدياي إن، كان علي أن أحتال لأركب ثانية، أما إذا اضطرت لركوب سيارة مرفهة، وليس في سيارة مصفحة للأمم المتحدة أو في لاندروفر مصفحة خاصة بالمراسلين، فأخذ الطريق الخلفي وراء PTT فهو أسلم من الطريق الرئيسي الذي كان يسلكه الناس قبل الحرب والذي عرف بزقاق القناصة منذ بدء إطلاق الرصاص. بالطبع عرفت كل ذلك لأنني قد رأيت مثل هذه الطرق على شبكة CNN وكان يمكن أن تكون سراييفو مليئة بالمفاجآت عندما بدأت أخيراً في قضاء وقت هناك ولكن على الطبيعة كانت بالضبط كما توقعتها. ومع ذلك فلم أكن أعرف شيئاً.

يتحدث الناس بشكل روتيني عن المعلومات والمعرفة وكأنها نفس الشيء والأسوأ أنهم يواسون أنفسهم بفكرة أنه طالما حصلوا على المعلومات ذات الصلة فإنهم سيبدأون العمل وهذا وهم قديم. ويقول الناس: لو أن العالم علم بالهولوكوست لكان قد فعل شيئاً ما - ربما ليس الألمان «السيئين» بل بقية العالم «الطيب» - وبعد عامين في البوسنة فإنني أميل إلى التفكير أنه لو كان هناك كاميرات في «أوسكوفتش»، لكان العالم قد فعل القليل كما فعل في عصر ما قبل التلفزيون، ما لم يكن مناسباً، بالطبع لأصحاب القوة في العالم القيام بعمل، صحيح أن منظر ثمان وستين من الموتى وحوالي مائتين من الجرحى في السوق المركزي في سراييفو وُلد استجابة أخيراً وأرجو على أي حال أن أكون مخطئاً. ولكن كان هناك الكثير من أمثال تلك الصور من قبل وسيكون هناك الكثير في المستقبل. فإلى متى ستستمر اتهامات الناس

العاطفية؟ شهر؟ سنة؟ بالتأكيد، ليس أطول من ذلك، سواء في البوسنة أو في أي من المجازر في الامبراطورية السوفيتية السابقة، والتي تمثل البوسنة تمهيداً لها فحسب.

كانت العاطفة دليلاً سيئاً خلال الحرب الكرواتية وكانت كذلك خلال مذبحه البوسنة. لقد كانت مثل المنشار السوطي. ففي لحظة، يذرف الناس الطيبون الدمع على فوكوفار ودوبروفنيك، ويطلبون في غرب أوروبا بالذات من حكوماتهم أن تعترف بكرواتيا وسلوفينيا الانفصاليين. وفي اللحظة التالية، وبعد أن يكتشفوا (أو يتصورون أنهم اكتشفوا) أن هذا الإقرار لم يمهذبه المذبحة والخراب بل على العكس بدا أنه أدى إلى قتال جديد في البوسنة والهرسك التي كانت في سلم من قبل يسارع الكثيرون برفع أيديهم في استسلام مقرّين بالفكرة التي يروج لها كثير من الأوروبيين الغربيين ومسؤولو الأمم المتحدة من أن الاعتراف كان خاطئاً على طول الخط. ويصرون بعد هذا الإدراك المتأخر أنه فقط من خلال الاتحاد اليوغسلافي يمكن احتواء العنف العرقي الذي تعرض له السلاف في الجنوب.

لقد وجدوا أن الفكرة، التي كانت متأصلة في الوعي الأوروبي على أية حال، القائلة إن البلقان كانت دوماً موطن عنف، فكرة معقولة جداً. كان الكاتب السياسي الأيرلندي كونر كرور أوبراين يعبر عن رأي الكثيرين عندما كتب عام ١٩٩٢: «هناك أماكن حيث بفضل الكثيرون الحرب وكذلك النهب والاعتصاب والاستبداد المصاحبين لها عن أي لون من الاحتلال مع السلام. ومن بين هذه الأماكن أفغانستان ويوغسلافيا بعد إنبهار النظام الشيوعي المركزي». لقد تمثل الدرس التاريخي المستخلص من تلك النظرة في، أنه القدر المأساوي والتاريخي للصرع والكروات ومسلمي البوسنة أن يحاول كل منهم تذيب الآخر مرة كل جيل أو نحو ذلك. وتكون النتيجة السياسية المباشرة لذلك هي القول إن البوسنة والهرسك لا يمكن اعتبارها دولة خارج إطار الاتحاد اليوغسلافي بأي شكل. قد تجلس في الأمم المتحدة، ولكن كان ذلك خطأ أوروبا. فمثل هذا الاعتراف القانوني، مهما تصوره البوسنيون عقلانياً، لا يمنح الشرعية الحقيقية.

ان مشكلة أي رد فعل لحادث سياسي عاطفي في أساسه - والعاطفة رغم سهولة

تحريكها، فانها النقيض للقناعة الحقيقية - هو أنها تجعل المرء متأرجحاً بين رأي وآخر. لقد فكر الناس في أشياء كثيرة عما كان يدور في البلقان منذ بداية المأساة، فقبل أن تبدأ حرب الصرب والكروات في ١٩٩١ أبدى معظم الليبراليين في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية تعاطفهم ثم بعد فوكوفار ودبروفنيك أصبح الكروات هم الأبطال. أما وقد بدأت الحرب البوسنية فإن أكبر ضحايا القتال وهم مسلمو البوسنة هم الذين نالوا تعاطف الناس في كل أنحاء العالم. وعندما تناحر المسلمون والكروات عام ١٩٩٣ ساد الخلط حتى أعاد عنف صرب البوسنة المتجدد مسلمي البوسنة لوضعهم ثانية بوصفهم الطرف الذي يفترض التعاطف معه.

ولأن أغلب الناس كانوا قليلي المعرفة فياضي المشاعر. لم يكن غريباً أن استطاع السياسيون الأوروبيون والأمريكان الذين لم يريدوا فعل شيء لرد عدوان الصرب أن يصمدوا أمام عواطف الغضب والأسى الشعبي الذي يهيج من وقت لآخر بعد وقوع بعض المذابح و أمرها على نطاق واسع. وعلى أية حال كان معظم السياسيين يميلون للتراخي منذ البداية. وكانت ملاحظة بسمارك الساخرة حول ان أهل البلقان «لا يستحقون حياة سمكة الفرناد البحرية السليمة من بويرانيا» هي أشهر عبارة عن المنطقة كتبها رجل سياسي أوروبي ذائع الصيت. وما ارتجله المستشار الحديدي، كان متجذراً، بصورة أوسع، في قناعة سبعة أجيال من الأكاديمية الأوروبية والتحليل السياسي. وقد ساعد معظمها في تضخيم وجهة النظر القائلة إن يوغسلافيا، بموقعها على الحدود بين العالم الأرثوذكسي والعالم الكاثوليكي، وقبل ذلك بين عالم العثمانيين وهابسبرج، هي من أساسها مكان غير مستقر، بل ربما لا يمكن إنقاذه.

ولا يبدو مهما هنا أن هؤلاء الناس أنفسهم الذين سمعهم يرددون في واشنطن وباريس وفرانكفورت هذه الحجج حول الطابع الوحشي للشخصية السلافية الجنوبية كانوا، قبل سنوات قليلة، يستمتعون بإجازاتهم في تلك البلاد السيئة البربرية نفسها. وكانوا يشعرون بالأمان الكامل رغم أنهم يعتقدون الآن أن الناس هناك متعصبون بالرواية. في عام ١٩٨٥ كان الذهاب إلى ساحل إقليم إقليم دالماتيا، إلى دوبروفنيك مثلاً، يمثل أي شيء غير سياحة جريئة، لقد كانت إجازة أوروبية شاملة لا تختلف عن قضاء وقت على الساحل الإيطالي حول أنكونا وهي تقابل مباشرة مدينة

سبلت على ساحل دالماتيا على بعد مائة ميل على الجانب الآخر من الأدرياتيكي .

في عام ١٩٨٥ كان من الممكن أن يتنبأ معظم الناس ان ساحل دالماتيا من إستريا على الحدود الإيطالية بطول الطريق الى دوبروفنيك ، سيلعب نفس الدور في التقدم الاقتصادي ليوغسلافيا الذي كان قد لعبه إقليم كوستاديل سول في الخمسينات في دمج اسبانيا الفاشية في التيار الرئيسي لتطور أوروبا الغربية . ولقد ظل ممكنا الاعتقاد ، حتى اللحظة التي بدأ فيه اطلاق الرصاص ، أن يكرر التاريخ الاقتصادي نفسه ، مع امتلاء ذلك الاقليم بساحات الكرفانات والمناطق البحرية (المارينا) والأسواق الحرة وفنادق المصايف ، ومع مناظر طبيعية أجمل من ساحل إيطاليا الأدرياتيكي وقد تتفاخر إيطاليا بأجمل المدن والمنافس الوحيد كان دوبروفنيك وسيليت ، وجزر إقليم دالماتيا ومناخ اقل تلوثا من الجزر اليونانية . كما يشهد إزدهار المباني على طول ساحل دالماتيا والذي امتد في الواقع الى البوسنة والهرسك حتى مدينة موستار التاريخية ، بأنه حتى في أواخر الثمانينات كان المستثمرون راغبين في تأكيد إعتقادهم بأن دماج يوغسلافيا في أوروبا بأموالهم . فعمر كثير من الفنادق على طول الأدرياتيكي والتي تستضيف الآن اللاجئين لا يزيد عن خمس سنوات . وهناك مساكن وفنادق ومناطق للالعاب البحرية نفس الامتداد بعد ان توقف انشاؤها . وبالتأكيد فقد اعتقد اليوغوسلافيون وأنفسهم أنهم سوف يزدهرون وأنهم سيفعلون ذلك من خلال صناعة السياحة .

وحتى الان مازال الشائع ان تسمع الناس في كرواتيا يقولون أنه لو توقفت الحرب ، بافترض ان يترك الصرب كرواتيا لحالها ، فإن الامور ستكون على مايرام فسيعود السواح وكذلك سيعود الإزدهار الذي صاحبهم . وفي دوبروفنيك لا يزال يوجد بين الزخارف الباقية في الجدران رسم جداري يعبر بدقة عن ذلك الوقت وتلك التوقعات « الغربية » المسكرة . لقد خبت الكلمات الآن كما طوقتها وعمت عليها شعارات عسكرية ومباعدة مبتذلة . ومعظمها يقدم مساندة متعثرة ومهزوزة لحزب يوستاشا الفاشستي أو يمي ذكرى شهداء فوكوفار وأوزجيك أو ينادي بانتقام رهيب ضد الصرب ولكن هناك شعار يسترجع ما قد يكون عليه مصير دالماتيا وينادي « الجنس والمراكات الألمانية ، وسيفاي » والأخيرة هي الطبق الشعبي في يوغسلافيا .

ولكن ايا كان ما تشعر به شعوب يوغسلافيا السابقة نحو أنفسهم وأيا كان ما يفعلوه دون ادراك عندما يقارنون بين حاضريهم وحياتهم السابقة وايا كان مدى ما حل بهم وما جلبوه على أنفسهم على مدى السنوات الثلاث والنصف سنة الماضية . وغير طريقة فهمهم لكل من مصائيرهم الفردية ولهاوياتهم كجزء من أمم ومجموعات عرقية أكبر فإنهم لم يطردوا أنفسهم من أوروبا لقد اجريت تلك العملية الحساسة على يد الأوروبيين الغربيين والأمريكيين الشماليين أنفسهم . ومع استمرار القتال بدأوا ثانية كما فعلوا على فترات منذ عهد بسمارك بالشعور بالراحة وهم يتكلمون ويفكرون في البلقان وكأنها منطقة في مكان آخر غير أوروبا ، وكأنها بالمثل شيء غير متحضر فأوروبا الحقيقية ، أوروبا التي ظلت مكانا متحضرا ، كانت بالطبع توجد على أراضي الاتحاد الأوروبي المتضمن ستة عشر عضوا بالإضافة لسويسرا وربما ، عند الحاجة ، قد تضم جمهورية التشيك « وليس سلوفاكيا » والمجر . وبإختصار ، يمكن صياغة هذا النهج في شكل القياس المنطقي التالي : « الأوروبيون لا يمكن ان يفعلوا هذه الأشياء مع بعضهم البعض ، وعلى ذلك فإن سكان يوغسلافيا السابقة لا يمكن ان يكونوا أوروبيين » .

وغني عن القول ان نظرية الأوروبية كانت دوما في أساسها أيديولوجية تعدلت جغرافيا بمفهوم كان دائما عرضة لإعادة التشكيل الدرامي - فكم من مرة أثناء الحرب الباردة تكلم الناس عن براغ ، وهي غرب فيينا على انها عاصمة في « أوروبا الشرقية ؟ - لكن ما حدث عند نقطة ما من مذبحة البوسنة عندما تمزق كل من الفهم السياسي والقرار الإنساني بفعل ما كان يحدث من أهوال ، ظهر حديث مبني على الأفكار الأصولية العتيقة عن شخصية البلقان مصحوبا بذلك الهراء غير التاريخي عن الاحقاد الموروثة والنزوع الإقليمي للعنف . وهي قصة طالت جميع السلافيين الجنوبيين باستثناء السلوفين خارج أوروبا . و لم يتصرف الأوروبيون على هذا النحو - الأوروبيون الحقيقيون - على أية حال وكثيرا ما سمع المرء ما زال يسمع اناساً لا يرتاحون مطلقا عند الحديث عن طابع سكان غرب افريقيا أو سكان امريكا اللاتينية ، وادعاء أن ما يدور في البلقان رغم مساوئته ، ربما كان حتما نظرا لتلك الاسباب الثقافية والتاريخية .

وخلافا للامتيازات التي اعطتها لهم بشرتهم البيضاء يأتي المزيد من الادعاءات حول فهمهم للناس ، وربما ساعدت حقيقة أن البوسنيين كانوا في الاصل قوقازيين على ان ينفض الكثير من الناس الغبار عن شعارات يوجينية (أي متعلقة بتحسين النسل) لم يكونوا يلمنون باستخدامها في سياقات غير اوروبية

وفي الولايات المتحدة تترتاح الشخصيات ذات التوجهات الجيدة سياسيا والذين يرتعدون حتى لمجرد تخيل وقوع الهفوات اللفظية ضد الاقليات العرقية لكلمات مثل العنق الأحمر و« الرعاع البيض » وكان شيء من نفس هذا النمط من التصرف الاخلاقي واضحا في اسلوب حديث الناس عن يوغسلافيا السابقة . ولكن إذا كانوا قد فهموا ما اسماه الدبلوماسي والمؤرخ سيفيتو جوب ذات مرة بـ « الشعر الشعبي المتوهج للبلقانيين » على انه يعبر عن الطبائع المتأصلة في الكروات والبوسنيين المسلمين فالسبب في ذلك يعود نهاية الأمر الى أن فعل ذلك أسهل من محاولة التفكير في سجلات أقل اختزالا .

و تكاد تكون حتى الان ، تلك الهفوات القائمة على « طبيعة » البلقانيين الوحيدة التي يجدها الناس مقبولة . وفي عبارات عملية فإن مثل هذه الروايات لعبت دورا مؤثرا في عقلنة السبب في عدم بذل المزيد من الجهد لوقف الحرب في كرواتيا أو انقاذ البوسنة . وهي تجد تأييدا خاصا لدى دبلوماسي الأمم المتحدة الذي يستطيعون الإدعاء بشكل عام بأنهم كانوا سيتصرفون بشكل صحيح في يوغسلافيا السابقة فقط لو أمكنهم تقديم بعثتهم « لحفظ السلام » كأمر مئوس منه منذ البداية . احد مسئولو الامم المتحدة الذي شارك في عمليات « الحماية » ، وهو دبلوماسي لامع كان مشاركا عن قرب عام ١٩٩١ و ١٩٩٢ في محاولة ترتيب وقف اطلاق النار في كروتيا والذي تم اخيرا بعد سقوط فوكوفار ، إبتسم في في ارهاق أثناء أول حوار لي معه - وكان ذلك قبل ان تطأ قدمي أرض البوسنة - وحاول الاجابة على اسئلتي حول القصف « المجنون » لمدينة دوبروفنيك القديمة بمقارنته بالغيرة الزوجية البلقانية . قال : « تعرف ، يخبرك الناس انه في ريف يوغسلافيا عندما يفقد رجل المرأة التي يحبها فإنه أحيانا يشوهها بسكين إعتقادا منه أنه طالما لن يملكها فلا يجب ان يحبها شخص آخر ، فلا تتجاهل هذا الدافع عندما تفكر في دوبروفنيك . لقد كانت مدينة جميلة

ومحور جذب شديد للسياح . ولست متأكدا ان بعض جنود الصرب لم تراودهم
الفكرة نفسها « اذا لم نستطع تملكها فلندمرها إذن للكروات ذلك »

وعلى نقيض كتابة التقارير عن البوسنة أو سماع الأحاديث عن طبيعتهم
التأصله كشعب ، قابلت البوسنيين أول مرة في مركز للاجئين على الحدود الشرقية
لبرلين صيف ١٩٩٢ . كان المعسكر يقع على طريق تحفه الاشجار حيث كانت مبانيه
ذات اللون الواحد المزينة ، مثل كثير من الطرق المشجرة في جمهورية المانيا
الديمقراطية سابقا . بإعلانات تجارة السيارات المستعملة والافتات الملونة المثبتة على
اشجار الزيزافون للدعاية عن جميع الاشياء بدءا من المنتجات الاستهلاكية
المستحدثت « جرب الغرب » كان شعار النوعية المحببة للسجائر الغربية - الى الأماكن
المفتحة حديثا لنوادي العرا والكازينوهات ومصارعة السيدات .

لقد ذهبت الى يوغسلافيا مرات عدة ولكن الاماكن التي ادعي معرفتها وبطريقة
عابرة أيضا ، كانت الجمهورية الاتحادية سلوفينيا في اقصى الشمال وكرواتيا وبخاصة
المنتجعات بين زادار ودوبروفنيك على طوال ساحل دالماتيا ولم يكن ذلك بالكثير .
وحتى في الستينات عندما بدأ نظام تيتو يظهر بوقاحة زائدة الروح القمعية لجيرانه في
الكتلة الشرقية ، فإن سلوفينيا شعرت أنها اقرب للنمسا المجاورة - التي انتشرت
النمسا « البعيدة » في جنوب نهر إنز كما تقول النكتة التي انتشرت على جانبي الحدود
في جراز وفي لوبليانا تقول لست متأكدا أني اعتقدت في ذلك الكيان الأكثر شؤما
والأميل للأجنبية المعروف « بالبلقان » تاهيك عن ذهابي الى مثل هذا المكان .
وبالطبع عرفته من الكتب ومن تقارير أتباع تيتو بل وأساسا من تاريخ الأحداث التي
ادت الى اغتيال الدوق فرانز فرديناند في سرايفو عام ١٩١٤ وكذلك من كتب
الرحلات العظيمة لفترة ما بين الحربين مثل كتاب ريبيكا وايس « الحمل الأسود
والنسر الرمادي » .

وفيا يخص البوسنة ، فكل ما كان في رأسي هو البقايا المألوفة وانصاف الحقائق
والكليشيهات والمعلومات المضللة التي يتشارك بها المثقفون من الناس ، حول هذا
الموضوع ، أو التي يمكن ان تجدها في أي دليل سفر تقليدي بداية من أوائل
الستينات وحتى الثمانينات والتي يمكن الآن الحصول عليها في أحد مكاتب السياحة

وسط سرايفو. والذي ظلت ابوابه مفتوحة رغم الحرب . من هذه الكتب المعروضة هناك قد يكون الزائر قد عرف - طالما استوعب فكرة ان الحقيقة العرقية والقومية في يوغسلافيا قد حلت نهائيا على يد تيتو وأن «الأخوة والوحدة قد سادت» أن البوسنة ممثلة بالمسلمين وأنه بالرغم من ان البوسنة والهرسك مثل صربيا والجبل الأسود ومقدونيا ، كانت جزءا من الأمبراطورية العثمانية حتى الثلث الأخير من القرن العشرين ، فقد كان المسلمون من أصل سلافي أكثر منهم أتراك أو ألبانيين . وإن هؤلاء المسلمين لم يهاجروا الى المنطقة ولكن تحولوا الى الاسلام ليس من المسيحية الأرثوذكسية بل من البوذية - وهي بدعة من العصور الوسطى يقال انها ازدهرت في كل من البوسنة وعلى طول ساحل دالماتيا ومناطق الهرسك . كانت شواهد قبور البوذييين - ما أسهل ان تكتب مثل كتيبات السياحة - عادة ما تذكر في نفس اللحظة مع اثنين من معالم البلد السياحية - الجسر العثماني القديم على نهر نيرتيكا في موستار أو «ستاري موس» وجسر آخر أعيدت تسميته باسم جسر « برنسيب» بعد الحرب العالمية الأولى لتكريم الرجل الذي تسبب فيها كما تقول النكتة المحلية . وأن تعرف ما يعرفه السياح أو ما يود السكان المحليون أن يقولوه للسياح ، فستكون قد تعلمت التاريخ كما يتعلمه الأطفال . فعندما يحاول شخص تعلم لغة فعليه أن يبدأ بتلك الأساسيات المألوفة لمواطن في سن الرابعة . كذلك تكون متطلبات دراسة الثقافات الجديدة . لذلك عندما بدأت قضاء الوقت في البوسنة ، سرعان ما اكتشفت الأمر الواضح وهو انه حتى في فترة حكم تيتو لم تكن قضية القومية قد حلت ربما يكون تيتو قد فرض شعار « الأخوة والوحدة» على جميع شعوب الاتحاد ، ولكن كما اشار سفييتو جوب فإن «درس التاريخ هذا لم ينجح كما كان متوقعا . فقد ادعى القوميون من كل مجموعة (الصرب والكروات والمسلمون الألبان) أنه قد بولغ في السلب والنهب من جانبهم في حين تم التهوين من شأن السلب والنهب من جانب العدو» .

تواجهت في كل مكان صراعات بدون حل مع حكايات متباينة حتى عن اكثر الأحداث مباشرة . وليس فقط الموضوعات المأساوية كما في الجدل الدائر حول عدد القتلى من الصرب في معسكر اليوستاشا للاعتقال في جاسينوفاك . وحتى على

مستوى المواد الأرشيفية فقد كان من الصعب إيجاد الحقيقة . ففي البوسنة على سبيل المثال ، كانت هناك مسألة أصول البوجوميل الملحددين . لقد افترضت دائما أن تفسير تحولهم يكمن في كونهم ملحددين قبلوا الاسلام أملا في الحماية من الجيوش الصليبية للأرثوذكسية المسيحية واليونانيين والرومانيين على حد سواء على أن البعض قال ان الامر ليس كذلك . لقد اختفت البوجوموليه تماما فترة وصول العثمانيين وبالنسبة لغريب مثلي فإن مجرد القلق حول مثل هذه المسائل يؤكد تعليقات الكاتب اليوغسلافي الكبير دانييلوكيس عن البوسنة قبل الحرب والذي كانت له افكار اخرى اكثر تشويقا . فقد كتب عن البوسنة يقول : « تلك الدولة الغريبة في قلب أوروبا » . ومع ذلك فعلى اساس قراءات عن أحداث ملغزة بنفس الدرجة حدثت قبل ذلك بمئات السنين هاهم الناس يقتلون ويقتلون في البوسنة . وقد تكون الأحداث نفسها قد طواها النسيان أو أن ذكرها عولجت ببراعة من قبل مثيري الرعاع القوميين المعاصرين ، أما في البوسنة فحتى عندما اختفى كل شيء فإن أمرا واحدا تبقى : الحقد ، كما تقول النكتة القديمة عن شمال أيرلنده .

لم أحضر الى معسكر الالاجئين في ذلك اليوم لأناقش تاريخ البلقان . فما أملت ان أراه هو كيفية تعامل المهاجرين من العالم غير الأبيض والإمبراطورية السوفيتية السابقة مع بعضهم البعض ، والتي كانت في أساسها غير طيبة . فقد كان في المعسكر ، مثل كثير من المعسكرات التي ذهبت اليها خلال الشهور القليلة الماضية ، مراتب عنصرية وجغرافية ، فقد كان الشرق أوسطيون يزدرون الأفارقة والأوروبيون يزدرون الشرق أوسطيين وكانت كل من المجموعتين تخاف الغجر وتحتقرهم صراحة ويتكلمون بمراة عن مجرد مشاركتهم هم ثكنات الجيش الوطني لألمانيا الشرقية المتبقية حيث تم اسكان الجميع . ومع ذلك ، فقد سجل المسؤولون الذين يديرون المعسكر في تقاريرهم ان معظم السكان من أي جهة جاءوا ، سرعان ما تعلموا ان يندمجوا بسهولة مع بعضهم البعض في الأمسيات (كان يسمح لهم بالخروج أثناء النهار) . ثم يضيفون بسرعة أن هذه المصادقة لم تمتد الى الغجر .

ذكر لي أحد مديري المعسكر أن عائلة واحدة ليست من الغجر لم تتكيف مع هذا النمط ، والمدير شخص ودود من شرق برلين مشيته وحركاته تشبه كثيرا مدربا لكرة

القدم في مدرسة أميركية بمدينة صغيرة . ونحن في طريقنا الى المجموعة عهده
استعرض ذلك المزيج الغريب من النفور والقلق الذي قد يقال أنه يميز نظرة دولته
نحو وجودهم في ألمانيا . قال ان تلك الاسرة غير الاجتماعية موضوع المناقشة كانت
مسلمة . وربما لأنه لاحظ تعبير الدهشة لدي فقد اضاف بسرعة أنهم مسلمون من
أوروبا ، من البوسنة « إنهم ليسوا من ذلك النوع من المسلمين الذين تتصورهم .
فهم لا يلبسون غطاء الرأس ولا يصلون طوال النهار . في واقع الأمر هم أوروبيون ،
مجرد أوروبيين عاديين » .

بعد ان اكملنا جولتنا في المعسكر ، اخذني لرؤيتهم . اتضح ان زيارتي توافقت مع
زيارة مجموعة من التلاميذ من احدى الضواحي ببرلين الغربية والتي كانت اكثر
اذدهارا قبل عهد التوحيد ، وقام مدير المعسكر بضم الجولتين . كان التلاميذ قد
جمعوا الألعاب لأطفال اللاجئين وحملوها ربا في خجل وهم يسرون في عنابر النوم
 . وقد اصرت معلمتهم ، رغم ان عدم رغبتها في تركي للتحدث مع التلاميذ عهدها
في غير حضورها جعلني اتشكك في ان الزيارة والهدايا كانت إختيارية كما تدعي ،
على القول إن « كان هذا من اقتراحهم » وأخيرا خلصنا أنفسنا ، كانت المعلمة لا تزال
تحاضر أطفالها عن « جمال » الثقافة الغجرية ونحن نبتعد عم مجال السمع - واتجهنا الى
المبنى الذي تقيم فيه العائلة البوسنية .

كانت العائلة مكونة من سبعة افراد ، خمسة كبار وطفلين و تتراوح أعمارهم بين
الحادية عشرة والخامسة والاربعين وكلهم في غرفة واحدة . كانوا جميعا في هيئة معقولة
جسائيا ونفسيا ما عدا شابة في منتصف العشرينات كانت محمرة العين وهزيلة .
كانت ملابسهم رثة ولكن بالتأكيد ليست اكثر رثاءة من يراهم المرء في ذلك الجزء من
برلين الشرقية المتاخم للمعسكر . ومثل اللاجئين في العالم كله ، بدا انهم جميعا
يدخنون باستمرار مع الاختلاف المضحك بالنسبة لي في أنه على عكس اللاجئين في
أماكن كثيرة من العالم الثالث ، كانت السيدات يدخن بشراهة قد تفوق الرجال .

وأيا كانت دوافعه فقد كان مدير المعسكر على حق في الواقع عندما قال ان هؤلاء
الناس كانوا يتصرفون بغرابة كلاجئين . فعلى النقيض من السري لانكيين والأكراد
والصوماليين بل وبعض البولنديين والرومانيين من غير الغجر الذين تحدثت اليهم

في ذلك اليوم (لم يتكلم اي من بالغى العجر الذين قابلتهم) ، فقد كان مظهرهم كله يفتقر الى السلبية السائدة بين اللاجئيين في معسكرات الايواء . فقد ظهر انزعاج واضح لم يستطع مدير المعسكر إخفائه عندما لم يظهر أي من اللاجئيين أدنى إحترام ولو مفتعل . فقد حملقوا فينا في تعال عند دخولنا وبعد ان أشاروا بالجلوس . . وأوسعوا مكان لنا بدأوا بالحديث عن عدد كبير من الشكاوى - للهجة اقرب الى نزلاء يشكون الى مدير الفندق أو مشرف بناية سكنية منها للهجة أناس فقدوا كل شيء يمتلكونه وهربوا بجملدهم من حرب تلتهم بلدهم . فقد قالت الشابة حمراء العينين : « لم تعمل التدفئة الليلة الماضية أين يمكن لطفلتنا ان تلعب هنا ؟ » كما تساءلت أكبر السيدات « ومتى تبدأ الدراسة ؟ »

أما الرجال فقالوا القليل كما يحدث غالبا عندما يكون المسؤول رجلا كذلك ، ونتيجة لذلك فليس هناك أدنى احتمال في مشاجرة تؤدي الى العنف الجسدي . ولكنهم كانوا يومثون مؤكدين ماتقوله النساء . وعندما تصغى إليهم يتتابك الإحساس بأنه وإن كان هؤلاء البوسنيون متواجدين هناك في تلك الغرفة الرثة في المعسكر ، فإنهم لم يحتازوا نفسيا بعد الرحلة من وطنهم الى منفى مخوف بالمخاطر . هو ثقة الطبقة المتوسطة ، وهو شعور بالاعتداد بالنفس استطاعوا حتى الان الإبقاء عليه في وجه خسائهم المادية ، في وقت يمكن ان تنتزع منهم (لم أر هذه ثانية رغم أنني حاولت بعد سنة إعادة الاتصال بهم) ، لم يكن ذلك ذخرا لهم بأي حال فعندما سألتني احد الرجال « كيف تتوقعون ان نعيش هنا ؟ » ذكرني قوله بأن التنشئة في الطبقة المتوسطة لا تنطوي على أدنى إستعداد لحياة اللاجئيين .

لقد كان مدير المعسكر على حق ، هكذا فكرت وأنا أنظر اليه . لقد بدا انهم غرباء على وضع المعسكر بالنسبة لأنفسهم بمثل ما كانوا بالنسبة للمسؤول الألماني ولي . . وقال الرجل الأكبر سنا في هدوء وكأنه قرأ أفكاره : لا يجب ان نتواجد بين هؤلاء الآخرين « فقاطعه مدير المعسكر ردا على ذلك مستجمعا ما بدا بالنسبة لمسؤول سابق في جمهورية ألمانيا الديمقراطية ألفة مستحدثة مغلفة ببلاغيات التسامح العرقي والتعددية الثقافية : « نحن جميعا آدميون كما تعلم » لكن البوسني لم يتأثر بهذه الدغدغات من « قصيدة للفرح » فقال في سخرية ثقيلة « أنا لا اقول أنني ضد

الآخرين هنا . أنني فقط أقول أنني وعائلتي لا ننتمي لهذا المعسكر، يجب ان تعرفوا ، ورفع صوته « ان ما حدث لنا في البوسنة ما كان يجب أن يحدث . هذه أوروبا . هذا عام ١٩٩٢ لقد كنا نعيش مثلكم وليس مثلما عاش المقيمون هنا قبل ان يصلوا الى المانيا » وأشار بذراعه نحو قوس يطوق كل المعسكر « هؤلاء الآخرون ، نعم ، انني أرثي لهم ولكن ما حدث لهم مأساة أخرى . أما ما حدث لنا . . فهذه مأساتكم مثلما هي مأساتنا وحملنا مباشرة في مدير المعسكر وفي .

أوماً مدير المعسكر قائلاً في نبرة حكيمة « ان فقدان أي وطن مأساة فظيعة » ثم خطا بسرعة خارج الحجرة وتركني وحدي ، كما خططنا ، لآتحدث مع البوسنيين . إستمر الصمت طويلاً كما يحدث غالباً في مثل هذا المواقف فهناك دائماً شيء نخجل عند القيام بمثل هذه اللقاءات ، إنه الشعور بأنك تسرق النظر وأنت تقترب من خسائر الناس : ، متى غادرتكم؟ ماذا حدث لعائلتكم؟ كم عدد قتلكم؟ والمغتصبات؟ والمعتدين؟ لم تكن هذه الأسئلة على نفس طريقة النكتة المريفة للمصحفي البريطاني الذي وصل الى مسرح الفظائع قائلاً « هل اغتصببت إحداكن وتتكلم الانجليزية؟ » ولكن الوضع كان قريباً من ذلك ، ويسجل المرء القصة الرهيبة وبعد انتهاء المقابلة ينتقل الى الأخرى - طريقة لترضية النفس بعد ان يفرغ الاجئون لك مافي أحشائهم أو على الأقل بقدر ما تريد لقصتك - أو ينهيها المرء مكتفياً بما قيل ذلك اليوم . ثم يذهب الى حانة أو الى بار الفندق .

يرتبط هذا القلق بالحدود . وما جعل البوسنيين يبدون مختلفين لم يكن بالتأكيد ورطتهم - فاللاجئون جميعاً أصبحوا ظاهرة مألوفة مع نهاية هذا القرن - ولكنني ادركت بأسى حقيقة أنني كنت أخاطب أوروبيين . في بادئ الأمر كنت غير راغب في قبول تلك الحقيقة . فلدي ، مثلي في ذلك مثل مدير المعسكر ، قناعاتي الليبرالية . فوجدت نفسي غير متأكد مما أقوله . إنتهت فترة الصمت . وفي النهاية ، كسرته السيدة البوسنية الأكبر سناً : « هل تريد شيئاً تأكله ؟

سألت بنبرة المضيفة التي تحاول ضم ضيف غير اجتماعي الى محادثة عامة . فأومات موافقا وقطعت لي شريحة من السجق الناشف وقطعة كبيرة من الخبز الأبيض وقطعتين من البرتقال متوقفة قبل كل عملية لمسح حصد سكين صغيرة للجيش

الفصل الثالث

كانت أول مفاجأة عن زغب، بالنسبة لي كزائر أجنبي يتوقع أن يصل إلى مدينة في حالة حرب، هو أنها بدت لي كأى مدينة أوروبية غربية هادئة. فلا توجد مبان عامة أمامها أكياس الرمل ولا بنادق منصوبة على أسطح المباني التجارية ولا نقاط تفتيش ثابتة للشرطة بعد أن تعبر محيط مطار زغرب. والشعور السريع الوحيد بأنك لم تصل إلى ركن منعزل من أوروبا الغربية يكمن في حقيقة أنه لا يوجد عمال وافدون غير بيض في أي مكان. فعلى عكس فرنسا أو ألمانيا فإن كرواتيا، بصرف النظر عن العجز، متجانسة عنصرياً. وفيما عدا ذلك فإن المفاجأة أنه ليس هناك مفاجأة. فمن الغريب بمكان أن تصل إلى فرانكفورت أو زيورخ وتكتشف كم أنك قريب من الحرب في يوغسلافيا السابقة. ولكن الأغرب أن تصل إلى زغرب نفسها والتي تبعد أقل من ٣٥ كيلو متراً من خط النار ومع ذلك لا يكون لديك إحساس حقيقي بالتعبئة العامة ناهيك عن الحرب. فالمباني السكنية على مشارف زغرب تشبه كثيراً أحياء الطبقة العاملة في أي مدينة أوروبية بينما، وقبل الوصول إلى وسط المدينة، يمر المرء خلال أراضٍ تتناثر فيها المواقع الإنشائية والمباني التجارية الجديدة كما أن اللافتات بطول الطريق تعلن عن أحدث البضائع الاستهلاكية الغربية - كنزات بنيتون والسيارات الألمانية وما شابه ذلك. إنها تبعث برسالة واضحة أنه حتى وإن لم تكن مستويات الرخاء الأوروبي الغربي قد تيسرت بعد، فلدى الكرواتيين كل الأسباب لتوقع بدء التحرك نحوها في المستقبل غير البعيد.

في وسط زغرب التاريخي تتضح الرسالة نفسها رغم أنها أقل استهلاكية. فلا يملك الزائر تحت ظل معمار القرن التاسع عشر الأنيق بألوانه الصفراء والرمادية والزرقاء أن يشك حقيقة في أعماق مفاخر كرواتيا وهي إنتهاؤها للغرب. فرغم أنها لعهد قريب كانت جزءاً من الدولة المعروفة بيوغسلافيا، كما يقول لك أهل زغرب، فإن التشارك الثقافي - لكرواتيا مع أي من دول البلقان عموماً وصربياً بصفة خاصة،

بأقل بكثير مما تشارك به مع ماضيها الهابسبرجي أو مستقبل أوروبا الغربية . ومن أكثر اللافتات شيوعاً على السيارات ماتشير إلى هذا التطابق مع عالم الاتحاد الأوروبي . فالحروف HR وهي اختصار للكرواتيا (هرفاتسكا) مكتوبة على خلية زرقاء ومحاطة بالإثني عشرة نجمة ذهبية للاتحاد الأوروبي . وبالطبع ، فإن انتشار هذه اللافتات يدل على التمنيات الكرواتية أكثر مما يدل على وضع الدولة الحقيقي . ومع ذلك فمن الشائع أن تسمع حتى المثقفين في زغرب يصرون على أنه إذا توقف القتال فقد يصبح الحلم حقيقة .

في زغرب يقدمون الكابتشينو أكثر مما يقدمون القهوة التركية في المقاهي المطلة على ميدان بان يلاسيك ، وكما يحدث غالباً في النمسا ، فإن الجلوس على المائدة لتناول وجبة في زغرب يبدو مثل تمهيد طويل للحلوى . على أن هذه التفاصيل الصغيرة عن الحياة ليست مجرد حقائق عن الحياة فهي تحمل في داخلها طابعاً ايولوجياً ففي رغبة فنجان القهوة وفي كريمة الخباز توجد أصداء رمزية بالنسبة لكثير من الناس قد تبدو غير متناسبة مع أهميتها الظاهرية . فالمرء يتوقع أن يتكلم الناس عن مشكلات كرواتيا الاقتصادية أو عن الحرب وبدلاً من ذلك فغالباً ما يتكلمون عن حياتهم العادية متمثلة في أي نوع من القهوة يفضلون . ولأن تذكير المرء أن المقاهي تقدم الكابتشينو ليس كافياً ، فالكرواتيون يركزون أيضاً على إخبار الآخرين مراراً وتكراراً بأنهم يفعلون ذلك «تماماً كما في مقهى في فيينا» .

إن هذا التقديم لكرواتيا كدولة منتمية بحق إلى وسط أوروبا أكثر من البلقان هو جزء من الدعاية الرسمية بمثل ما هو نوع من المفخرة الشعبية . يقول مقال في مجلة الخطوط الداخلية الكرواتية « اليوم بما يتجاوز المليون نسمة فإن زغرب في نواح كثيرة مدينة أوروبية » . وفي مكان آخر من نفس المجلة في قسم عنوانه «كرواتيا . . . » يزود الزائر بمعلومات تقول أنه «في المناطق الشالية فإن أسلوب الحياة هو على نمط أوروبا الوسطى بينما يسود في نمط البحر الأبيض المتوسط . . » والرسالة الحقيقية هنا أنهم بما ليست عليه كرواتيا بمثل ماتتهم بما هي عليه ، كما أن تلك الرسالة تعني أنه لا صلة لكرواتيا بالبلقان تاريخياً أو ثقافياً .

وهناك في هذه التأكيدات ، سواء فيما يخص عضوية الاتحاد الأوروبي أو

رفيع ، يعمل مستشاراً غير رسمي في حكومة توديان منذ ١٩٩١ ، قال « قبل الحرب كنت أملك منزلاً على ساحل دالماتيا قرب دوبروفنيك وسيارتين ومدخرات كبيرة بالمارك . أما الآن فقد دمر منزلي جزئياً في القصف ولم يتم إزالة الأنغام من بعض الأرض حوله وقد جمدت الحسابات البنكية بالعملة الأجنبية لكل شخص . إنني لا ألوم الحكومة - ولكن هكذا تسير الأمور إنها في الواقع صعبة جداً علينا .

ورغم ذلك فبعد لحظات قليلة كان يصصر على أن حياته كانت أكثر بؤساً في يوغسلافيا قبل الحرب ، فقد قال لي « لم تكن نستطيع العيش بنفس الأسلوب . كانت حياتنا لا تطاق . فقد كان الصرب يسيطرون على كل شيء . لم تكن أحراراً والأدهى من ذلك فقد بدأ أننا لن نكون أحراراً أبداً ، فقد أخذ تيتو التطلعات التاريخية للشعب الكرواتي في الاستقلال . وكان هذا سيئاً للغاية . ولكن على الأقل فقد أعطانا تيتو قليلاً من فرصة التنفس . وعندما أمسك ميلوسيفتس بالسلطة في بلجراد وبدأ في تحويل الاتحاد اليوغسلافي إلى دولة متمرزة في بلجراد ، فقد أصبح من غير المتصور الإستمرار في بقاء كرواتيا جزءاً من يوغسلافيا ، وربما كان الأمر . دائماً كذلك . أنني أعلم أن بعض الناس هنا كانوا يشعرون حتى النهاية أنهم يوغسلافيون ، بل كذلك أشعر أنا أحياناً . ولكني كنت أشعر دائماً أيضاً بأني كرواتي أولاً وأخيراً .

إذا كان الماضي مستحيلاً من الناحية السياسية والحاضر غير محتمل مادياً واقتصادياً فلم يتبق إذن سوى المستقبل فقط وقد استمر معظم الكرواتيين في الأمل بأوقات أفضل . وكانت هناك لحظات بدا فيها مثل هذا التفاؤل يقترب من مستوى الخيال . فعلى سبيل المثال ، وفي يناير ١٩٩٣ ، برر الرئيس توديان هجوماً عسكرياً كرواتياً في دالماتيا استعادت به قواته ثانية مطار زارار من صرب كرايينا وكذلك الموقع على جسر مالمسينيكا المدمر - وهو حلقة حيوية في الطريق الرئيسي الذي كان من قبل الحرب يربط بين زغرب ودوبروفنيك - بإعلانه أن الهجوم كان ضرورياً من أجل الموسم السياحي الصيفي المقبل ، وكأن دوبروفنيك ، والتي مازالت مشارفها ملغمة ، ما فتئت مقصداً بتوق لزيارته المتردد الألماني أو الهولندي العادي . ومع ذلك فقد أكد توديان أنه سيتم بناء الجسر قبل الصيف . وللترويج لخطته وتنبأ على نحو يستحضر للأسف أصداء شعار هتلر « الف عام للرايخ » ، فقد واصل حديثه مدعي أن الجسر

سيعيش «ألف عام».

لكن هذه الصور الوردية لمستقبل كرواتيا التي قدمها توديان في خطبه لا تتفق مع الواقع. كانت بعض مناطق الدولة غنية نسبياً. ففي إيستريا، وهي منتجع يقع شمال غرب كرواتيا بين مدينة رييكا وحدود سلوفينيا، بدأ السياح في العودة بأعداد كبيرة. ولكن إيستريا كانت آمنة من الحرب بشكل كبير. وكانت قد بدأت تشهد إحياء السياحة في فترة ما قبل الحرب في ربيع ١٩٩٣. كذلك ظلت الأمور محتملة نسبياً في زغرب. ولكن حتى في العاصمة، فإن حياة اللاحرب واللاسلم كانت صعبة وتزداد صعوبة باستمرار على معظم الناس. فالمتاجر مملوءة بالبضائع ولكن يمكن تبيين وضع المشتريين من شراء ربيع رخيص من السلالم المملوءة بالخبز. أما الخبز الأسمر، والذي مازال أرخص والمدعوم من الحكومة الكرواتية، فيتوفر في المخازن فقط في ساعات الصباح الأولى قبل أن تفتح المحلات أبوابها. وتشكل الطواير عند الفجر وتختفي عند الساعة. وقد يصادف رجل أعمال أجنبي يقوم برياضة المشي في الصباح الباكر مثل هذه الطواير مثلما قد يفعل شخص عائد إلى بيته بعد قضاء ليلة في سرير شخص آخر. فيما عدا هذا فمن الممكن قضاء وقت طويل في زغرب متنقلين في سيارات تاكسي مرسيدس جيدة بين المباني الحكومية وأبراج المكاتب وفندق «اسبلنديد» الراقى (وهو الملتقى المفضل للصحفيين الأجانب) دون استيعاب للمصاعب التي يمر بها الناس في حياتهم اليومية. ناهيك عن حقيقة أن خط المواجهة الأول يبعد حوالي خمسة وثلاثين كيلو متراً.

على أن بعض أوجه القصور تبدو أكثر وضوحاً فالصناعات لم تعمل بشكل سليم لمدة طويلة حتى في زغرب. ففي عامي ١٩٩٣ و١٩٩٤ وبعد وقت طويل من إنتهاء الحرب الصربية والكرواتية، كان مألوفاً أن تسأل عن شيء عادي مثل حبوب منع الإسهال فيقال بأنها ناقصة ولا يعرف أحد متى تتوافر. ومع ذلك فإن زغرب في أسوأ حالاتها ليست أدنى من مدن كثيرة أخرى في وسط وشرق أوروبا بما فيها معظم المدن في ألمانيا الشرقية السابقة. كما أن الهوة بين الفقراء والأغنياء أقل وضوحاً بكثير عن موسكو مثلاً أو حتى وارسو والشوارع نظيفة ومعظم الناس مهندمين، وبينما يغضب سكان زغرب من وجود المتسولين والشحاذين في شوارعهم — كما قالت لي الكاتبة

الكرواتية سلافينكا دراكيوليتش وهي تمديدتها إلى ورقة نقدية لتعطيها الزوجين مسنين إقتربا منا للاستجداء «لسنا متعودين على هذا - فحتى خلال أسوأ فترات التقشف الإقتصادي والبطالة الجماعية فقد كان عددهم منخفضاً حسب معدلات أوروبا الغربية ، ناهيك عن المعدلات الأمريكية .

لذلك كله تظل مخاوف زغرب ليست فقط صعبة التمييز بل متناقضة داخلياً . فكرواتيا ليست دولة بوليسية كما أنها ليست دولة مفتوحة ديمقراطياً كذلك . فهناك ضغط هائل على الاعلام وأماكن العمل لتتوافق مع الأوضاع . وأية معارضة لسياسات حكومة توديمان يجري استنكارها في الصحافة الحكومية على أنها أقرب إلى الخيانة العظمى تشويه لصورة الوطن في الخارج بتحريك من أعداء كرواتيا . وقضية صورة الدولة مسألة محورية ، فلا ينتهي الجدل في الدوائر الحكومية حول كيفية تحسينها . وقبل أن يبدأ الألمان في الانضمام إلى القوى العظمى الأخرى في ممارسة الضغط عليهم كان الكرواتيون أقل قلقاً . وقد لخص كتاب يسرد مشاركة الألمان في دفع المجتمع الأوروبي للاعتراف بكرواتيا المزاج عام ١٩٩٣ في زغرب الرسمية عنوان الكتاب وهو كتاب رائج : «بون : خط كرواتيا الثاني» . ولكن عندما اتضح في ألمانيا مدى إسهام الكروات والصرب في تقطيع أوصال البوسنة وأصبحت بون غير متعاطفة بشكل متزايد مع نظرة الكروات ، فقد أصبح المزاج في زغرب دفاعياً وتآمرياً . كان الحديث يتزايد بشكل كبير عن أعداء كرواتيا الكثيرين في الخارج . وعبر عن الكثيرين مسؤول حكومي رفيع عندما طالب الكرواتيين «بالعمل معا لرسم صورة إيجابية لكرواتيا في العالم» وبالطبع فإن الصورة التي كانت في ذهنه تمثل كرواتيا البراءة ، والضحية ، والفضيلة .

في هذا الجو مما يمكن اعتباره نوعاً من الحكم العرفي اللغوي ، فإن المعارضة اللفظية العلنية كمقابل لكلمات التذمر في المقهى أو الشكوى للزوار ، بالنسبة انطوت على مخاطرة حقيقية للمواطنين الكرواتيين وقد أغلقت معظم وسائل الإعلام المستقلة أو وضعت في أيدي صحفيين . . موالين لحزب توديمان . وفي أقصى حريتها نادراً ما تقترب الصحافة الكرواتية من الموقف الانتقادي الشائع في الإعلام المطبوع في بلجراد الدكتاتورية . فمهاجمة الحكومة بعنف كان يؤدي بالذكور في كرواتيا بين

سن ١٨ و ٥٠ إلى الاستدعاء فجأة للخدمة العسكرية . وقد حدث هذا ليفكتور ايفانيتش رئيس تحرير فيرال تريبيون الأسبوعية الساخرة المعارضة في أوائل يناير ١٩٩٤ . وبعد قضاء ثلاثة أسابيع من التدريب سمح له فجأة بالعودة للمنزل مع تحذير بإمكان استدعائه . . . وإلحاق زملائه في الجريدة بالخدمة العسكرية في أية لحظة . وكانت الرسالة واضحة .

وطوال الحرب فهم كثير من المتحضرين المهنيين الكروات ، وليس فقط المتورطين في نشاطات ومعارضة ، التعبئة العسكرية (العامة) على أنها التهديد المعلق فوق رؤوسهم إذا لم يلتزموا بخط الحرب . وقد قال لي طبيب شاب من زغرب : « لا تضحك على نفسك فقد أكون مع الموجه الآن ولكن حركة واحدة خاطئة وأجدي أعمل في مستشفى ميداني في وسط البوسنة . إنني لا أبالي بالبوليس السري يدق بابي بعنف في منتصف الليل . بل أخاف من الموظف الذي يدق الباب برفق بعد الظهر ليقدم لي أوراق التعبئة . وهذا ما يدفعني لأن أؤدي عملي وأطبق شفتاي » .

في عهود سابقة في كرواتيا كانت الهجرة إختياراً على الدوام لكن الحرب غيرت ذلك كله . وبسرعة أصبح من المستحيل على الكروات أن يحصلوا على التأشيرة المناسبة لوجهاتهم التقليدية - كندا وأستراليا والولايات المتحدة وألماني . فقد أصبح الحصول على التأشيرات السياحية غاية في الصعوبة . وإذا حصل كرواتي على إذن بالسفر فلم يكن واضحاً أنه سيستقبل بنفس الحماس كما كان الحال قبل الإستقلال . ففي المجتمعات الكرواتية الكبيرة في الخارج كان المزاج ، كما هي الحال مع أهل الشتات ، أكثر تطرفاً بكثير منه في الداخل ، إذ أصبح ينظر للسفر من كرواتيا إلى ملبورن أو شيكاغو بشكل متزايد على أنه نوع من الخيانة . ففي تلك الأماكن كان الحديث كله يدور حول العودة للوطن ليس بالضرورة للقتال ، كما فعل الكروات النفيون بوحشية وفعالية عام ١٩٩١ في شرق سلفوفينيا ، ولكن للمساعدة في بناء البلد . وكما قال الأستاذ الجامعي فإن الحياة في كرواتيا الحرة قد تكون صعبة ولكن مازالت كرواتيا حرة . وقد لا يكون هذا كافياً لطرد الحرب من عقول الناس ، ولكن الناس في زغرب بدوا في الغالب متوافقين مع خوفهم من خلال إبقائهم بقدر المستطاع مستترين بالعيش وكأن زغرب مدينة سلام وأنهم ، مواطنوها ، يمرون فقط

غير موال لأي من الصرب أو الكروات. ولكن بمجرد حصار سرايفو في إبريل ١٩٩٢ مركزت الأمم المتحدة رئاسة عمليات قوات الحماية الدولية وقوافل المساعدات في زغرب. ونتيجة لذلك أصبحت المدينة نقطة الوصول الإجبارية لعمال الإغاثة والصحافيين الذين يلزمهم تصديق الأمم المتحدة، وأي شخص آخر يريد الدخول إلى البوسنة. وقد استخدم معظم الأجانب كرواتيا كمكان لتقديم المؤتمرات.

أما السر القذروء ذلك. وكما اكتشف الكروات لحية أملهم، فهو أن الأجانب لم يهتموا في الحقيقة بما كان يحدث في كرواتيا منذ طبق وقف إطلاق النار بوساطة سيروس فانس وزير الخارجية السابق في أمريكا وتدخلت قوات الأمم المتحدة بين الصرب والكروات في أوائل ١٩٩٢.

وإذا كان الكروات مايزالون يعددون بكل الوسائل ماثبت أنهم شعب غربي ويقارنون بين زغرب والمدن الأخرى في الشمال والغرب، فإنهم أكثر من أي شيء آخر يتحدثون إلى أنفسهم وليس للأجانب الذين أتى معظمهم من تلك المدن. ولا يعني ذلك القول إن مسألة القومية، كما يسمونها في يوغسلافيا السابقة، ليست في صميم السياسة والثقافة الكرواتية والصربية منذ القرن التاسع عشر على الأقل. فذلك النوع من العبارات البلاغية التي سمعها المرء في زغرب عام ١٩٩٢ كانت بمثابة صدى لما كان يمكن أن يسمعه المرء في يوغسلافيا الأولى بعد الحرب العالمية الأولى. ولقد استبدلت كرواتيا القوانين التشريعية والسياسية المأخوذ معظمها من هاسبرج بقوانين وإجراءات حكمت الحياة في صربيا قبل «مملكة الصرب» والكروات والسلوفين». وكانت تلك الاختلافات حقيقية. وكان عام الاتحاد هو أيضا السنة التي ثار فيها موضوع العقاب الجسدي في الجيش الذي مثل مسألة رمزية رغم تفاهتها. فقد ألغى الكيراج في كرواتيا عام ١٨٦٩ ولكنه أعيد لسابق عهده حسب الأعراف العسكرية للصرب عام ١٩١٨، وقد دفع هذا القرار بكثير من الكرواتيين للمقارنة بصوت عال بين غريبتهم المتحضرة وبين البربرية البلقانية لمواطنيهم الصرب.

وبعد حوالي عشرين عاما، عندما وصلت ريبيكا ويست إلى زغرب عام ١٩٣٨ في بداية رحلتها إلى ما أصبح مملكة يوغسلافيا، فقد نبهها مرشدوها الصربي كونستانتين إلى أنه يمكن الاعتماد على معظم الكرواتيين الذين الذين ستقابلهم في

توضيح مسألة اختلافهم . وقال أنهم سيخبرونها أنهم « ليسوا مثل الصرب في بلجراد ، فنحن هنا رجال أعمال ، نؤدي الأعمال كما تؤدي في فيينا »^١ . كانت ويست تكره الكروات بقدر كانت تعجب بالصرب وتكره الألمان على أساس أنهم كانوا يتقدمون لصالحهم هم معتقدة أنهم « أضعفوا بتأثير النمساويين وكأنه مرض عضال » وكتبت تقول : « هذا حقيقي . لقد قالوا لي ذلك باستمرار في البنوكة والفنادق والمتاحف » .

ورغم أصالتها فإن ويست في كتابها الشهير كانت معبرة عن زمنها تماماً . فرغم كراهيتها « للتفكير العنصري » للألمان فإنها لم تستطع أن تجد معنى لكثير مما رآته خلال ست أسابيع في يوغسلافيا من دون اللجوء للتفسيرات المبنية على مجموعة مزعومة من « الصفات القومية » الثابتة والتي اعتقدت أنها تنطبق على الأفراد من الصرب والكروات والمسلمين والألمان الذين صادفتهم . وسرعان ما يكتشف أي شخص يصل إلى زغرب بعد ستين عاماً ، من أماكن في الشمال أو الغرب حيث كانت هذه الإقتراضات . . فقدت مصداقيتها ، أنه أيا كان مصير تلك العادات في التفكير في الغرب فإن أحد السبل التي تبدو بها كروايتا مختلفة عن المجتمعات الغربية « المتقدمة » التي إدعت نسبتها إليهم إنما هو اعتقاد الناس المسبق بفكرة أن كل أمة لها شخصيتها المحددة والثابتة .

فقد يقوم شباب كرواتيا بالتسوق في نفس المحلات مثل قرائهم في نيويورك ويكون لهم نفس الذوق في الموسيقى الشعبية أو يتبنون عادات جنسية مشابهة ولكن ذلك كله لا يجعلهم مواطنين عالميين بمفهوم « ما بعد القومية » الذي ميز كثيراً من الأوروبيين الغربيين والأمريكان الشماليين من الطبقة المتوسطة . إنهم يتحدثون عن أنفسهم ككروات بنفس الأسلوب الذي كان يتحدث به أجدادهم عندما زارت ريبريكا ويست زغرب . وعلى أيام ويست ، لم يكونوا مثل الناس في بريطانيا أو ألمانيا فقد إنعكس الفارق بين التفكير الغربي والبلقاني في ملابسهم . ولكن انضح أن تشابه تسريحة الشعر مع أهل هامبورج أو إرتداء أحذية الرياضة مثل أهل كامدن تاون لم تغير مقدار ذرة من فهم شباب كرواتيا القومي والقبلي . وسواء كان العالم قد أصبح قرية عالمية أو لم يصبح فقد ظهر أن المرء قد يصبح عضواً كاملاً في مجتمع استهلاكي متجاوز للقومية — كما فعل كثير من اليوغسلاف بين عامي ١٩٧٠ و ١٩٩٠ — ومع

ذلك يظل في نفس الوقت قلباً محضاً . ويكمن الخطأ في تصور أن مجرد اكتساب أذواق وهويات جديدة يعني تساقط الولاءات السابقة آلياً . وفي البلقان على الأقل لم يحدث ذلك .

علاوة على ذلك فكلما انصت المرء باهتمام أكبر، كلما بدا أوضح أن الكلام عن كون كرواتيا غربية كان بنفس الدرجة - إن لم تكن أكثر - إفتراضاً سلبياً، طريقة لإخراج الصرب من أوروبا ومن «الغرب» بقدر ما كانت إدعاء إيجابياً يقصد به تثبيت أحقية كرواتيا في عضوية أوروبا الموحدة في القرن الواحد والعشرين . كما أنها كانت وسيلة لإعادة تأكيد الإعتقاد بأن يوغسلافيا كانت فكرة مستحيلة منذ البداية، وأن الكروات كانوا يختلفون عن الصرب لدرجة أن الشعبين لم تجمع بينهما أي سبل للعيش معاً في نفس البلد الواحد . ولو أن الاختلافات كانت سياسية فقط - بفعل القرارات السياسية المحددة التي اتخذها سلوبودان ميلو سيفيتسن بعد ١٩٨٧ عندما تولى رئاسة الحزب الشيوعي الصربي - لكان من الصعب على أقل تقرير سيكون من الصعب إنكار إمكانية حلها سياسياً في يوم ما . أما إذا كانت الاختلافات مبنية على نهجين روحيين للحياة لا يلتقيان، فإن الشعار الضخم لحكم تيتو «الأخوة والوحدة» يكون مرفوضاً كنكتة سخيفة . أما الذين قالوا بعكس ذلك في كرواتيا فقد استنكروهم أتباع النظام ب «معتوهي يوغوسلافيا» أو «المتشوقون لليوغوسلافية» وبأنهم أناس، أي كانت الأسباب، رفضوا أن يتعلموا دروس فوكوفار ودوبروفنيك .

كان من السهل في زغرب، رغم ما يبدو عن بعدها من الحرب، التسليم بأساليب التفكير القبلية تلك . فبعد ثلاث سنوات من الحرب، أصبح التمييز بين الروحاني والسياسي مستحيل واقعياً في كل مكان من يوغسلافيا السابقة . فكل ما حدث في كرواتيا منذ ١٩٩١ أو ما حدث منذ ذلك الحين في البوسنة أصبح يفهم من خلال منظور فكرة الكياسة والبربرية اللتان تم تقديمهما وكأنهما الصفات القومية المتأصلة في الشعوب المعنية . وغالباً ما كان يعثر على الدليل على هذه الميزة، في زغرب كما في أجزاء أخرى من يوغسلافيا السابقة، في وجود بعض الخطأ التاريخي، كأن تكون ضحية - كما كان كل فرد في البلقان في وقت أو آخر من التاريخ - هي فكرة

تصلح بذاتها لأن تجعل المرء عضواً في شعب جيد» .

النتيجة المباشرة لذلك ، هو أن الكروات كشعب ضحية لا يمكن أن يقعوا في الخطأ هم أنفسهم ، وفي الوقت ذاته ومن حيث أنهم شعب غربي متحضر ، لا يستطيعون التصرف ببربرية . وبعبارة أخرى ومثل كل سياسة متعلقة بالهوية ، فإن القصص التي تروج عن الكروات ، سواء ما يخص الصراع من أجل الدولة والذي دام تسعمائة عام أو شعور شعور الشعب الكرواتي المتأجج بغريبتهم ، تعد مسرحية أخلاقية وليست سياسة على الإطلاق بمعناها المعتاد .

وبصورة حتمية فإن هذه الدرجة من حب النفس ، أيا كانت كيفية فهمها تاريخياً كاستجابة كرواتية للخللان الحقيقي للطموحات القومية تحت حكم هابسبرج وكل من الحكم الملكي و يوغسلافيا تيتو ، حملت معها عجزاً مدهشاً عن تحليل ألا تكون لدى أي شخص فكرة جيدة عن كرواتيا . كما أدت بكثير من الكرواتيين إلى أن يتستروا حتى على أفضع الفترات في تاريخهم ويصبحوا ساخطين عندما يذكرها الأجانب . وفي حين أن الغالبية العظمى من الكرواتيين ليسوا فاشيين أو متعاطفين مع الفاشيين ، فقد رأى الكثيرون فترة يوستاشا بشكل مختلف عما رآه معظم غير الكرواتيين . فبينما رأى الغرباء في مرحلة دولة انتي بافيليتش المدعومة من النازية هبوطاً إلى البربرية الفاشية ، فقد ظل كثير من الكروات يستندون إلى حقيقة أنه رغم أن نظامه كان مشيناً ، فقد كانت دولتهم مستقلة لفترة قصيرة . وحيث كان الغرب يوبخونهم - كما فعل كثير من الصرب المحليين - لاستمرار تمسكهم بشعار المربعات ، فقد ردوا بحسم أن استخدام بافيليتش له لا يعني الا يستخدم هذا الشعار القديم للأبد . وحين تعجب الغرباء ، عندما قررت السلطات الكرواتية إلغاء العملة اليوغسلافية وهي الدينار ، بسبب أصرارهم على تبني الكونا ، وهي العملة التي كانت مستخدمة في كرواتيا أثناء حكم بافيليتش ، فقد أصر الكروات على أن صورة الكونا ظهرت لأول مرة على عملة فضية عام ١٢٥٦ .

في كل حالة كان الرد الكرواتي صحيحاً من الوجهة الفعلية وبلدياً من الناحية الأخلاقية في آن واحد . فقد كانت رقعة المربعات رمزاً قديماً وقد استخدمها الاتحاد الثقافي الكرواتي ، لأكثر من قرن ، وتوجد في واجهات مباني القرن التاسع عشر في

أجزاء كبيرة من كرواتيا والبوسنة بها فيها مبنى منذ عهد هابسبرج في شارع المارشال تيتو في سرايفو حيث موقع فرع الاتحاد الثقافي . ولكن رقعة المربعات كانت بلا جدال مصدر تحدي ، وبخاصة للصرب في كرواتيا الذين فقدوا أسرهم في مذابح يوستاشا زمن الحرب أو أقاربهم المعدودين بين الضحايا الذين قتلوا في معسكر اعتقال جاسينوفاك ، حيث ذبح طبقا للتقديرات الأكثر تحفظا مئات الآلاف من الصرب واليهود . كذلك لا تستطيع أي مراجع علمية بعلم العملات في العصور الوسطى أن تخفف من الإنطباع المتمثل في أن السلطات الكرواتية باختيارها للكونا كانت أيضاً تختار استمراراً رمزياً بينها وبين نظام بافيليتش . وبعمومية أكبر فإن إدعاء مبررات تاريخية لاستخدام تلك الرموز في وقت تنكر على الصرب والآخرين نفس التبرير التاريخي خوفاً من استخدامه ، مثل نموذجاً بالغ الدلالة على التصاق الناس بماضيتهم القومي ولامبالايتهم التامة بماضي الأمم الأخرى .

وبحلول عام ١٩٩٣ ، وفي كل أنحاء يوغسلافيا السابقة ، وصل هذا الفهم الذي كونه كل الجماعات عن نفسها بوصفها الضحية التاريخية للمجموعات الأخرى إلى حد أن الوضع الوحيد المقبول لكل منها هو البراءة المجروحة ، وبهذه الروح ، أعلن الكرواتيون الذين لا تحري في عروقهم دماء معادية للسامية أنهم لا يفهمون سبب شكوى الغرباء عندما أصر الرئيس توديان على أن زوجته ليست صربية ولا يهودية وذلك في حملة عام ١٩٩٠ حين دافع عن نفسه أمام معارضيته الذين شككوا في كروايتيه . كما أنهم لم يفهموا لماذا ثار الغرباء عند إعادة تسمية الشوارع بأسماء شخصيات من عهد يوستاشا مثل ماييل بوداك وزير الشؤون الدينية والتعليم في عهد باقليتش . كان الكروات متحضرين . ولذلك فالرد الحاسم بأن الصرب كانوا كذلك يتكلمون بنفس اللهجة يعتبر إهانة لا تحتمل . كان الإستشهاد الصربي عقيدة زائفة ومُجيرة لمصلحتهم الذاتية أدت بالصرب إلى ارتكاب الجرائم الفظيعة بينما لم يكن الاستشهاد الكرواتي من ذلك النوع من الدفاع الزائف ، بل كان تقييماً صحيحاً لما حدث . وقد لخصت نكتة لازعة ، تحكي في كل أنحاء يوغسلافيا السابقة ، بدقة الربط المميت بين البراءة المجروحة والغرور الزائد . تقول النكتة «لماذا أكون أنا الأقلية في بلدكم بينما يمكن أن تكون أنت أقلية في بلدي؟» .

وأجد لزاماً على أن أعلن أنني كنت أجد دائماً من غير المعقول أن تكون مجموعة من الناس فاضلة بشكل خاص أو أن هوية الانسان يمكن أن تكون شيئاً آخر سوى كونها مرنة وطائرة . كنت أعتقد قبل وصولي إلى يوغسلافيا السابقة أنه لا شيء محتوم في الحرب هناك - أنها كانت نتيجة لاختيارات سياسية وليس للشخصية القومية أو لأحقاد وضغائن دموية تاريخية - واعتقدتها كذلك الآن بعد قضاء ما يقرب من سنتين متنقلاً هنا وهناك أشاهد الناس يموتون ويقتلون . ومع ذلك فعندما بدأت أستمع لأول مرة إلى الأحاديث المتباينة عن مدى الاختلاف الجوهري بين الكروات الصرب فقد وجدته ، مثل كثير من الأجانب الآخرين أميل إلى قبول ذلك على علاته . فقد بدا أن كل الدماء التي أريقته وستظل إراقتها مستمرة ، الانفصام أياً كان الثمن بالتعبير المادي وأياً كانت التضحيات المطلوبة ، باسم الانفصال العرقي أو الغرور العرقي ، وذلك في أيامي الأولى في كرواتيا ، بدا أنه يعطي دحضا حاسماً لكل الأوهام العالمية عندي .

يتعين على الصحفي ، طبقاً للنظام المعمول به ، أن يكرس أول يوم له في زغرب لتوفير أوراق اعتماده كمراسل صحفي . وبعد ساعة في المركز الرئيسي للأمم المتحدة للحصول على بطاقة قوات الحماية الدولية ، انتقلت إلى فندق انتركونتينتال للحصول على أوراق اعتماد . صحيفة كرواتية . وكما هو الحال في مثل تلك المكاتب فقد كان الموظفون شبان كنديون من أصل كرواتي بعضهم انتقل إلى هنا للأبد والبعض الآخر لم يقرر بعد أين سيعيش . سألت أحدهم وهو موظف في العلاقات العامة لطيف المظهر - والذي اضطر إلى أن يملأ بطاقة هويتي بخطه هو - متى قرر المجيء إلى زغرب ، فأجاب بابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه الناصعة البيضاء : «لقد كنت أحلم دائماً بها . حتى وأنا أشب في ويست فان كنت أنتظر ذلك اليوم» . لقد طلبت أن يسجلوا في الكتاب السنوي للمدرسة الثانوية «أن (جيف يريد أن يعود إلى كرواتيا الحرة المستقلة) وقد فعلتها كما كنت متأكداً أنني سأفعل . فسألت» وهل تشعر بالراحة؟» فأجاب مبتسماً «تماماً . فكما قال والداي دائماً - اللذان جاءا إلى كندا بعد الحرب العالمية الثانية - إنه شيء رائع أن تكون في وطنك» . كان كل ما قاله عن انتقال والديه أنها كانا «ضد الشيوعية» ولم أستطع أن أجعله يقول إذا كان من يوستاشا أم

لا. ولا أظن أن الأمر بهم بشكل خاص، فكروا تيا الحرة أو وحدة البوسنة أو ترحد الصرب داخل أو خارج حدود صربيا والجبل الأسود، كل ذلك مثل العقائد التي دفعت الناس ليموتوا ويقتلوا ويتنازلوا عن مستوى المعيشة الذي كان متوفراً ببساطة قبل بدء الحرب. سألته «وماذا عن ويست فان؟» فأجاب «حسناً إنني أفتقد الهوكي - الكانوك - ولكن من الأفضل أن تكون في النهاية حيث يكون انتهاؤك». سألته مرة أخرى: هل كان يمكن أن يعيش هنا عندما كانت كرواتيا جزءاً من يوغسلافيا؟ فضحك قائلاً: «لا فرصة لذلك، فحتي لو كان قد سمح لي بالعودة، وهو ما أشك فيه، لم أكن لأرغب في ذلك. ففي تلك الأيام كان الصرب يريدون كل شيء - الشرطة والحكومة والجيش - هذا ما فعله الصرب والشيوعيون. أما أنا فكرواتي، إنني أستطيع أن أتعايش مع أمريكيي مثلك أو أحد أفراد طائفة «السيخ» في فانكوفر أفضل مما أستطيع مع صربي.

إن ما يشعر به الناس نحو الإنتهاء لا يمكن تفنيده فقط بالعقل، ناهيك عن النظريات العقائدية - وأكثرها تهوراً الفكرة الماركسية عن «الوعي الزائف» - القائلة إن يظن الناس أنهم يحسونه ليس ما يشعرون به في الواقع. ولكنني أتذكر أنني كنت أتساءل حتى في ذلك اليوم، ما إذا كانت تأكيدات الشاب المحكومة عن الاختلاف ذات مدلول في الواقع. فإذا كان الكروات، والصرب والمسلمون في الواقع مختلفين، إذن لماذا تتصف الأمثلة التي يختارها الناس للدلالة على ذلك الاختلاف - نوع من القهوة في زغرب ونوع آخر في بلجراد وميل بين الكروات نحو الدقة مقابل تفريط صربي «جنوبي» في الوقت وهاجس جرمانى معين بين الكروات فيما يتعلق بالنظافة والنظام - ليس فقط بأنها تافهة نسبياً بل إنها تبدو كذلك تلخيصاً شاملاً لكل الكليشيات واللافئات التي تقابل الشاليين الاقتصاديين المحين للعمل بالجنوبيين الجنسيين ومعدومي المسؤولية، والتي يمكن تواجدها تقريباً في كل بلدا أوروبى وكذلك في كثير من البلدان الآسيوية الشرقية؟

وبعد أن قيل لي مرات لا تحصي أن الكروات غربيون في الواقع وأن الصرب
بيزنطيون في الحقيقة (في لحظة معينة بعد استقلال كرواتيا أصبح تعبير «بيزنطي»
بمثابة لطخة عار في الدوائر القومية، وقد وقف عضو بارز في حزب في البرلمان ليقول

أنه مسرور بأن يعلن أنه لا توجد «دماء بيزنطية» في أسرته لثلاثمائة عام) بدأت، ربما بصورة مشوشة، اتساع إلى أي مدى، رغم كل الدماء التي أريقت، كانت هذه الاختلافات حقيقية. وبعد كل شيء فإن هذا البرلماني الذي قام ليطمئن لزملائه حول أصوله لم يكن مضطراً لعمل ذلك لو أنه كان يتحدث بلغة مختلفة أو كان من السهل تمييزه شكلاً عن الصرب البغيضين - كما يدعى متشددو الهوتو على أعدائهم التوتسو بالخطأ غالباً، أو كما ظن النازيون في اليهود - هل لأنه كان يشبههم بشكل أو آخر وكان يتكلم مثلهم باللغة نفسها ولكنه في أعماقه يشعر في نفسه أو يريد أن يشعر بأنه مختلف - في الحقيقة، لأنه اعتقد أن قوته وخصاله كفرد وككرواتي، تكمن في إحساسه باختلاف العرقي والقومي - هل لتلك الأسباب شعر هذا السياسي الكرواتي كفرد بالتزام خاص بإشاعة بأعلان كرواتيته لأكثر عدد من المرات؟

عادة ما يصحب ميلاد الدول الجديدة رواية الأساطير. ويعطي المؤرخ إريك هو بسبوم مثالا كلاسيكياً لئلا هذا النوع من التفكير، الاشارات الواردة في الكتب الدراسية الباكستانية إلى خمسة آلاف سنة من التاريخ الباكستاني، يقول أنه في الحقيقة ربما تكون فكرة دولة باكستانية منفصلة قد نبعت عند القوميين من أنصار جناح في الثلاثينات وأن أية علاقة بين حضارة وادي لاندوس وبين حكومة ما بعد ١٩٤٨ هي محض خرافة. ولكن فكما في باكستان كذلك في كرواتيا (وبالطبع في صربيا كذلك) كان السياسيون القوميون يواصلون إختلاق إستمرارية ومجتمعات وهمية لم يكن لها وجود، تاريخياً. وعلى سبيل المثال فإن مدينة «دوبروفنيك» الشهيدة والتي استخدم الكروات دمارها المزعوم كأفطع مثال على بربرية الصرب لم تكن حتى جزءاً من يوغسلافيا الأولى. فلو تركنا جانباً حقيقة أنه إتضح أن قصف دوبروفنيك كان أقل كثيراً مما يظهر باديء الأمر فإن المدينة كانت تاريخياً بيزنطية وفينيقية وعثمانية لفترة أطول كثيراً من كونها كرواتية.

بدا أن المهمة الأساسية عند القوميين (ودائماً وما تكون الإدعاءات في الحرب بالغة، وإن كان ذلك لا يعني بالضرورة أنها أكاذيب) تكمن في خلق أو تضخيم الاختلافات بأكثر من الموجود فعلاً. لقد فصلت بالفعل العداوات التاريخية بين الكروات والصرب كمجتمعات على فترات مختلفة في تاريخهم. ولكن بعد كل ما

يقال، فإن أقصر تعريف يحدد أفراد الكروات والصرب والمسلمين عرقياً وبنفس الأهمية، يميزهم عن بعضهم البعض هو الدين وبدقة أكبر، في حالات كثيرة، الأصل الديني، حيث أن معظم الناس في يوغسلافيا السابقة كانوا علمانيين. فهم جميعاً من جنوب سلافيا ومعظمهم مرتبط بالمنطقة والطبقة وما إذا كانوا يعيشون في المدن أكثر من ارتباطهم بالعرقية بمعناها التقليدي، ويمكن ملاحظة أن الوضع الديني فقط هو الذي كان يمكن أن يدل على ما سمي في يوغسلافيا بالمجموعة القومية فيما حدث عام ١٩٧٤ عندما كرس تيتو البوسنيين المسلمين كأحد «الأمم المؤسسة» ليوغسلافيا. ولتسويغ ذلك كجزء من حصة سياسية معقدة قصد تيتو من خلالها موازنة كل من مطالب الصرب والكروات، كان عليه أن يرجع إلى كلمة «مسلمين» والتي أصبحت تفهم في جميع الإحصاءات التالية في يوغسلافيا على أنها تشير فقط إلى هؤلاء المسلمين البوسنيين. أما المسلمون الألبان في كوسوفو ومقدونيا، والأكثر تديناً، فكانوا يوضعون في قوائم الألبان.

وبرغم كل دعاية السياسيين القوميين، وبخاصة في كرواتيا، التي كانت تدفع للربط بين العقيدة الدينية والدول الجديدة التي يجري إقامتها - أو «استعادتها» كما يفضل القوميون - فإن معظم الكروات، مثل معظم الصرب ومعظم مسلمي البوسنة. ظلوا علمانيين على الأغلب كما كانوا أثناء فترة الشيوعية. ولم يكن الدين يهتم في حد ذاته (رغم أن الكنيسة الصربية ليست عالمية، من الناحية التاريخية، بل قومية) بل كان بالأحرى الأداة الرئيسية للتحالف العرقي والقومي في الدول الجديدة التي كانت تتجه نحو تعريف المواطنة من خلال حصرها في الهوية العرقية وبصورة سيئة السمعة كانت كرواتيا قد أعادت صياغة دستورها القديم عام ١٩٩٠ وهو قرار اعتقد كثير من نقاد نظام زغرب أنه سيجعل من المحتم حدوث ثورة في كرايينا الخاضعة للصرب. فبينما كانت الجمهورية الكرواتية أثناء حكم الشيوعيين مكونة دستورياً من شعبين ناخبين - وهما الكروات والصرب - إضافة إلى أقليات أخرى، فإن كرواتيا المستقلة قد عرفت نفسها بأنها «الدولة القومية للشعب الكرواتي ودولة الأمم الأخرى والأقليات القومية الذين هم مواطنوها، وبذلك نزلت درجة الصرب إلى «الأقلية القومية» وصنّفوا مع اليهود والمسلمين والسلوفين وغيرهم.

ومع ذلك فقد كانت تلك الاختلافات، على وجه الدقة، ثقافية أكثر منها عرقية. فما كان يجعل من شخص ما كرواتياً هو حقيقة أنه كاثوليكي روماني، تماماً مثلما ما يجعل شخصاً ماصرياً هو عضويته، مهما ضعفت، في الكنيسة الأرثوذكسية سواء في كرواتيا أو صربيا. ولم يكن معنى ذلك أن اللولاء الديني تلك الأهمية، بل كان المهم، وبعد أن نجحت خرافة القومية هو الطريقة التي يوظف بها الدين. فعندما ما يذهب المرء إلى قرية كان قد حدث فيها قتال، فقد كان من الأسهل أن تأخذ درساً في التاريخ من أن تحصل على وصف موثوق لما حدث في نفس اليوم. فلم يتحدث الصرب فقط، من خلال الاحاديث المتلفزة والبيانات الصحفية، عن هزيمتهم على يد الأتراك على أرض كوسوفو في أواخر القرن الرابع عشر، بل تحدث الكروات كذلك عن مملكة كرواتيا التي زالت في القرن الحادي عشر، وإيضاً تحدث مسلموا البوسنة عن البوجوميليين. بل تحدث بعضهم بهذا الأسلوب في ميدان القتال. ففي موقع لصرب البوسنة قرب مدينة بيريودور الشمالية ودعوني بالسلام بالأيدي وجركن (وعاء كبير) مملوء ببراندي مصنوع يدوياً من الخوخ المحلي وعليه كلمة «١٣٨٩» - وهو تاريخ هزيمة الصرب في كوسوفو. وفي مكاتب زغرب للـ«مرهاميت»، وهي المراكز المسلم للصليب الأحمر في يوغسلافيا السابقة، فقد أنصتت شخصية محلية مرموقة إلى وصفي للظروف في شمال البوسنة وإجابني بمحاضرة مسهبة عن التسامح العثماني.

على إن قيمة هذه الروايات كتاريخ ضئيلة. فأياً ما تحيل الكروات فإن فكرة رسم خط مستقيم بين دولة كرواتيا التي حكمها توميسلاف العظيم في القرن الحادي عشر وتلك التي أقامها فرانكو توديان عام ١٩٩١ هي شيء يتعذر تفنيده. فقد كانت دالماتيا تحت حكم البندقية وسلافونيا الشرقية تابعة للمجر. لكن الرغبة في إعادة صياغة الماضي في صورة الحاضر كان دائماً دافعاً قوياً في كل مكان. ففي يوغسلافيا السابقة، ولأكثر من ثلاث سنوات، مات مئات الآلاف دفاعاً عن إحساس بهويتهم بدا، في حالات كثيرة، أنهم يفتقرون أساساً إلى تأكيد وجوده وفي كثير من الأحيان كانت الأخطاء التي ارتكبت في سياق كل هذا التليفق الحماسي باعثة على الضحك. يذكر الكاتب الإنجليزي مارك تومسون مسلسلاً عرضه التلفزيون

الكرواتي باسم « الكروات الذين صنعوا العالم »، وكان اولهم البابا سيكستوس الخامس، وهو بابا من العصور الوسطى لم يكن هناك منطلق، كما قال تومسون، في افتراض انه كرواتي.

ولكن كثيراً ما كانت النتائج فظيعة مثلما حدث، اثناء الحرب، حين اشارت قوات صرب البوسنة الى قوات الحكومة البوسنية على أنها الجيش التركي وعبأت الجنود بزعم الانتقام لـهزيمتهم في كوسوفو عام ١٣٨٩.

وخوفاً من المستقبل بعد انهيار النظام الشيوعي بدأ الكروات والصرب بصفة خاصة يحكيون الخرافات الكثيرة عن ماضيهم البطولي المحرف وعن آلامهم عبر الزمن وعن مستقبلهم الزاهر. وبلاشك، كانت إعادة اكتشاف شخصية الكرواتي والصربي، قبل بدء التقتيل، عزاء للناس الذين بدا انهم يفقدون بحق السيطرة على حياتهم الشخصية والبلد الذي شـبوا فيه. فعندما تقوضت يوغسلافيا انهارت كذلك الأجور الحقيقية. فالطبيب الذي كان يحصل في سراييفو على الف مارك الماني شهرياً في بداية الثمانينات اصبح يحصل على عشر هذا المبلغ بعد نشوب الحرب. لقد كان الخوف حقيقياً. ولكن رغم ان حياكة الخرافات كانت ضرورية نفسياً فلم يكن من الواجب المبالغة في الاختلافات الحقيقية في أسلوب الناس في الحركة والملبس والانياء في زغرب وبلجراد وسراييفو. والواقع أن ما قد يكون دفع الناس للقتال هو أفكارهم المبصرة عن العظمة التاريخية وضغائنهم الدفينة. ولكن ما يفرقهم الآن ليست الافكار بل الموتى والمطهرين عرقياً والنساء المغتصابات والاطفال المشوهين.

إن من السهل جداً أن ننسب ما حدث لسياسات الهوية التي عولجت بمنتهى التطرف. فـالناس يتكلمون عن «قبلية» يوغسلافيا السابقة ويعيدون الحياة شبح كل تلك العوائق المنيعـة المفترضة للثقافة والعرقية التي تقسم الكروات والصرب ومسلمي البوسنة. وهم بذلك يذهبون في الواقع - حيث أصبح من السهل القيام بذلك في هذا العصر حيث نالت القومية العرقية مكانة في أماكن كثيرة، من جنوب الوسط الى سراييفو حيث فقد الناس الامل أو تغمرهم المعاناة - في البلقان على أدنى تقدير، إلى أن هوية الناس المجتمعية ثابتة ودائمة مثل الـDNA بينما يتوجب عليهم أن يتأملوا في مصير السلافيين الجنوبيين وفي هؤلاء الناس الذين هم أقرب الى التماثل منهم الى

الاختلاف ، وكذلك في المأساة السياسية التي فعلت فيها الكوادر الصغيرة من المتسييسين والسياسيين المتعطشين للسلطة والجنود والمثقفين كل شيء يستطيعونه للتضخيم والمبالغة في الاختلافات الفعلية القائمة بين الكروات والصرب والمسلمين وذلك من أجل الاستحواذ على ، أو الوصول لى ، السلطة . وإذا كانت الهوة بين تلك الجماعات تبدو واسعة كما هي عليه الآن بعد التجربة الطويلة والوحشية من العنف المجتمعي والحرب ، فليس معنى ذلك ان العنف كان محتوماً من الناحية الثقافية أو التاريخية . فقد كانت هناك ثقافة لجنوب سلافيا ضمت الكروات والصرب ومسلمي البوسنة معاً مثلما كانت هناك ثقافات كرواتية وصربية و«بوسنيك» فرقت بينهم ، . وهذه الثقافة السلافية الجنوبية تجاوزت ، في بعض الأوقات وعلى أقل تقدير- رغم انها ليست «يوغسلافية» سواء بمفهوم الملكية قبل الحرب العالمية الثانية أو الدكتاتورية في عهد تيتو- الأشكال السياسية الاقليمية والحدود العرقية والمحاذير الخاصة للتاريخ والمكان . وقد استلزم تفتيت تلك الثقافة ، مثل تفتيت يوغسلافيا ، عملاً كثيراً . كذلك فعلت الحرب في كرواتيا . وكذلك فعلت الإبادة الجماعية لمسلمي البوسنة .

فليس الصرب والكروات والمسلمين جميعاً سلافيين جنوبيين فحسب بل إنهم يتكلمون أيضاً لغة واحدة ، أو على الأقل كان ذلك هو التصور الشائع قبل نهاية الاتحاد اليوغسلافي . وقد كتب الكاتب والناشط السياسي بوجدان دينيتش ، وهو نفسه صربي من كرواتياً ، يقول في مرارة «ثلاثة وثلاثون في المائة من سكان يوغسلافيا (السابقة) يتكلمون لغة واحدة و الاختلافات في طريقة استخدام اللغة بينهم تشبه الاختلافات بين الطريقتين الانجليزية والأمريكية في استخدام اللغة الانجليزية» . ويضيف دينيتش ان الدليل على ذلك كله هو أنه رغم استخدام الصرب للابجدية السيريلية واستخدام الكروات والمسلمين للابجدية اللاتينية فإن كل لهجة إقليمية لما كان يسمى قبل الحرب باللغة الصرب كرواتية كان يتحدث بها كل شخص في الاقليم المعنى اياً كان أصله العرقي . وبرغم ذلك فسرعان ما يتعلم الزائر لكرواتيا الا يسأل عن معنى هذه أو تلك الكلمة بالصرب كرواتي أو حتى بالكرواتي الصربي بل دائماً يقول «الكرواتي» . وفكرة لغة كرواتية قد تكون جديدة

الأعلى قليل من غلاة القوميين ، ومع ذلك فقد أصبحت الوهم الأكثر عمقا الأكاذيب . فقد انهمكت زغرب الرسمية في تضخيم الفوارق التي تواجدت لفترة ما ووضع فوارق أكثر كلما أمكن ذلك . وعندما بدأت في الذهاب الى زغرب كانت الآفنة في المطار هي نفسها التي مازالت موجودة في صربيا ، وبحلول ربيع ١٩٩٣ «تكروت» الكلمة لتصبح « زراكنا لوكنا » وهذه العبارة تعني ، وعلى أقل تقدير نفس الشيء . وكانت هناك تحويرات جديدة أخرى ، كاستخدام كلمة بدلا من «حزام» تعني ترجمتها «شيء يرفع السروال» وهي ببساطة شيء يبعث على الضحك . وسواء كان الأمر مضحكاً أم لا فقد أصر القوميون انه لابد أن تحمل تلك الكلمات محل الكلمات الصربية أو البوسنية التي شب الناس على استخدامها . ومع ذلك كله ، فقد تم اختراع الكلمات الجديدة في كرواتيا مستقلة - تلك الدولة التي كان جميع الكروات . يحملون بها منذ وفاة توميسلاف العظيم عام ١١٠٩ .

على أنه إذا ما فاذا بدت تلك الفوارق ضئيلة ، وبخاصة عند مقارنتها بشيء ذا وزن مثل وجود قواعد لغوية مشتركة وكذلك المفردات والاستخدامات اللغوية المتماثلة تقريبا ، فإن كثيراً من الكرواتييين ، وهم يمرحون ويعربدون فرحاً باستقلالهم الحديث ، يبدون غير قادرين على التوقف عن الإشارة إليها . ففي خندق على خط مواجهة نشط قرب نتوء خارج زادار تحت سيطرة الصرب ، حدث ان أخرجت من جيب سترتي كتيبا للعبارات الشائعة وبدأت في تصفحه بحثاً عن كيف أقول عبارة «هل أصبحت هادئة ؟» فأخذ الضابط الشاب الذي كنت معه الكتاب من يدي وسحب قلماً من جيبه وقام ، بعد ان التف حولنا رجاله ، وشطب فوق كلمة « صربي على الغلاف ليصبح العنوان : «كتيب العبارات الشائعة الكرواتية» . وأتذكر انني قلت في صوت واهن : «عليهم أن يعيدوا طبعه» وأتذكر دهشتي عندما أجاب الضابط بجدية : «أتمنى ذلك» ومع ذلك فمحتوى الكتاب كان هو المستخدم في كرواتيا وفي البوسنة وفي صربيا كذلك . و مايقسم الناس هو لهجاتهم واستخدام ابجديتين وليست الكلمات نفسها .

ولا أريد أن أقول أن الناس قبل الحرب لم يكونوا قد رسموا هويتهم وفق أعراقهم أو أن أنكر أن القضية القومية كانت الخط الفاصل في التاريخ اليوغسلافي - في كل

من ملكية ماين الحرين وجمهورية تيتو - كما كان العنصر هو الخط الفاصل في التاريخ الأمريكي. ومع ذلك فخلال الحرب قام معظم الناس في كرواتيا وصربيا ثم مع استمرار الحرب، في جانب الحكومة البوسنية أيضاً، بتقديم تلك الأشياء التي تقسمهم وكأنها واضحة وملموسة. ذات مرة سأل رادفان كارادزيتش مجموعة من الصحفيين، وكنت بينهم، حيث ذهبنا لمقابلته في مكتبه في بالي في ضواحي سراييفو التي اعلنها «عاصمته» في الحرب، سأل «لماذا تصرون أيها الغربيون على أن يعيش الصرب مع المسلمين؟» واستطرد وهو يبدو بخصلة شعره الكبيرة البارزة وبذلته الزرقاء الأنيقة مثل مغن شعبي فرنسي: «الصرب والمسلمون يشبهون القط والكلب. انهم لا يستطيعون ان يعيشوا معاً في سلام. هذا مستحيل».

كانت «الصربية» و«الكرواتية» و«المسلمية» حسب صياغة كرادزيتش، جواهر- ثابتة لا تتبدل. فكان يتكلم عن العرقية كما قد يقول معالج من تلامذة يونج عن «النماذج الأصلية»، رغم أنه، وكما حدث فعلاً، قام الدكتور كرادزيتش كأحد أتباع فرويد بالتدريب قبل التحاقه بقسم العلاج النفسي في مستشفى كوسيفو في سراييفو. وأياً كانت صياغته الخاصة فلم يكن وحده الذي يستخدم مثل هذه اللغة. فإن وحشية الحرب التي أطلقها جعلت آراءه المجنونة مقنعة للناس، بل والادهي من ذلك، جعلهم يبدون وكأنهم متأكدون من تجربتهم. ولم تغير حقيقة أنه كانت لديهم تلك الخبرات بسبب الخطط التي صممها كاراديزيتش وميلوزوفيتش وزملائها، حقيقة ان الناس الآن يميلون الى الشعور في أعماقهم بأنهم كانوا على حق على طول الخط. وكما قال زرافكوا جريجو وهو استاذ قانون من سراييفو ومعارض سياسي قديم لكاراديزيتش في مرواغة «ان رادوفان كارادزيتش هو أعظم عبقرية أفرزتها البوسنة. فهو يقول شيئاً يعتبر وقتها أكذوبة كسرة وبعد سنتين يتحول الى حقيقة».

وأيا كان ادعاء كارادزتش فإن الصرب لم يعتقدوا دائماً بأنهم لا يستطيعون معاشة المسلمين والكروات . فقد كانوا جيراناً لعقود طويلة : كانوا يذهبون معاً الى المدرسة كما عملوا معاً ، وإلى درجة مذهلة كانوا يتزوجون -وبخاصة في المناطق الحضرية من البوسنة والهرسك . لقد بذلت دعابة كبيرة لكي يبدؤا أول الامر في الخوف من بعضهم البعض - لقد بدأت الحرب بالخوف وإنتهت بالإبادة الجماعية - ثم بتذيع بعضهم

البعض . ومع ذلك فما أن بدأ التقتيل حتى اعتبر الكثيرون ان العنف يؤكد صحة تشخيص كارازدتش الأصلي . و غالباً ماكان ذلك صحيحاً لكثير من أعتى خصوم قائد صرب البوسنة كما كان بالنسبة لأولئك الصرب الذين بدأوا في إتباعه عن تراخ . ان كثيراً من هؤلاء الذين اعتبروا الصرب الطرف المعتدي في كل من كرواتيا والبوسنة ورأوا في كارازدتش مجرم حرب مازالوا يقبلون مع ذلك واحداً من أهم مزاعمه - أن العداوة العرقية الثابتة هي التي أوقدت الحرب التي شنها الصرب . كان يقال للمرء - وقد لاقت هذه الفكرة قبولاً لدى مستولي الأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة والذين كانوا ملزمين «كحافظين للسلام» بالتعامل مع كل الجماعات في حياد ، ومن ثم انجذبوا بصورة طبيعية نحو هذا الموقف - أن الشيوعية فقط هي التي كانت تمنع شياطين القومية من الاقتراب . أما وقد تهاوى النظام ، فقد أصبح إحياء العداوة العرقية أمر حتمياً حتى ولو خفف من شكل الكارثة التي اتخذته تلك المناوشات جهود دبلوماسية دولية أكثر الهاماً أو قادة أفضل من داخل جمهوريات يوغسلافيا السابقة .

ذات مرة قال لي ضابط روسي يعمل في الأمم المتحدة : «إنكم أيها الأمريكان غير قادرين دستورياً على فهم ما يحدث في البلقان . إنكم أولاد وبنات طيبون ، طيبون جداً . إنكم لاتريدون أن تروا أن الأمر ليس سياسة هنا ، بل الدم والتاريخ . إن كل ماتستطيعون عمله هو الافلات من دوامات القتل ومحاولة رعاية الجرحى . أما بالنسبة للآخرين فإنه كالزلازل لايمكن السيطرة عليه . عليكم بفهم فن تشويه اديم الاض لرؤية مايجري في يوغسلافيا» . وتوقف قليلاً ثم قال في تكشيرة » ستري ! سيقتل كل منهم الآخر حتى يشبعوا ثم سيتوقفون ولكن ليس قبل دقيقة من ذلك مهما فعل اي منا» .

أما صديقه ، وهو رائد مظلات بلجيكي ، فقد كان ينصت في هدوء . ثم قال فجأة : « لو أن الامر بيدي لبنيت سوراً حول كل ذلك البلد الملعون وتركت آخر الأحياء ينادي على الأمم المتحدة بعد أن ينتهى كل شيء . إنك حين تنزل إلى البوسنة ستري مانعنيه . »

في صباح اليوم التالي ، كنت في طريقي لأرى بنفسي للمرة الأولى . لقد مثلت

مغادرة زغرب دراسة للتنافر المعرفي الذي سرعان ما أصبح مألوفاً لدي . وللوصول الى كرايينا الصربية أو الى شمال البوسنة الذي احتله الصرب على المراء ان يغادر الفندق ويقود السيارة عبر شوارع زغرب الى الطريق الرئيسي الحديث الذي كان يوصل السائحين عبر البوسنة الى ساحل دالماتيا - سابقاً كنت أشكو من أن الحليب في الكابتشينو ليس بالدفع المطلوب، وكان احد الصحفيين الانجليز قد طلب من المضيفة في غرفة الطعام بعض الكرواسان الطازج حيث ان تلك الموجودة على طاولة البوفيه متعفنة . لم تكن زغرب تبدو، من خلال زجاج السيارة أقل من أى مدينة أوروبية . ولفترة من الوقت وحتى بعد أن دخلنا الطريق السريع ، كان الشيء الوحيد المختلف عن أى طريق في النمسا أو إيطاليا هو عدم وجود حركة سير .

كانت اول علامات حالة ل الحرب هي أن محطات البنزين الضخمة والمراكز التجارية كانت مغلقة أو إذا كانت مفتوحة فكان الذي يعمل بها مضخة أو إثنان فقط . ثم وصلنا الى مخرج جمارك خال من الموظفين كان هناك شيء مبهج في الإستمرار في القيادة عبر ساحة جمارك بسرعة ٩٠ كم في الساعة . لعله إنقضت حتى الآن خمس عشرة دقيقة من الرحلة وبعد خمس عشرة دقيقة أخرى لم تكن محطات البنزين مغلقة فقط بل منفجرة وقد غربلت المدافع الرشاشة اكشاك العمال ، وسلام الخروج اصابتها شظايا الهاونات . أما على الطريق نفسها ومن ثم فعليك أن تقود، أياً كان تجاهك فقد الحاجز الفاصل بين اتجاهاها وكأن دبابة دهسته ، على جانب واحد فقط من الطريق . وبعد دقائق قليلة ، تعبر آخر نقطة تفتيش كرواتية ثم بعد دقائق قليلة أخرى - ها انت تقود الآن فوق مسار قمامة وقرى دمرتها القنابل وجسور هدمتها المتفجرات وحقول ألغام ومواقع مدفعية ، ثم تمر من حاجز مزين بشرايط بيضاء وزرقاء وحراء - علم الصرب - وتدخل الى كراييننا الصربية وبعد ذلك بعشرين ميلاً تجد نهر سافا ثم على الجانب الآخر تجد البوسنة .

الفصل الرابع

كان شمال البوسنة الذي دخلته في أواخر صيف ١٩٩٢ ، وبخاصة ذلك الجزء من المنطقة المعروف ببوسانسكا كرايينا المتاخم للحدود مع كرواتيا ، كان قد بدأ بالفعل في تحويله ماديا . ولم يكن القتال هو الذي فعل ذلك : فعلى عكس وسط البوسنة أو في سرايفو أو موستار ، كان الدمار في الشمال بسيطا نسبيا . ولكن في القرى حيث كانت تقوم المساجد ، كان يتم وضع الأساس للكنائس الأرثوذكسية وكان أناس جدد ينتقلون إلى الشقق النظيفة في العمارات السكنية الحديثة حول مدينة بانيا لوكا .

وحسب قول المسؤولين في الوكالة العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة فإن كثيرا من المائتي ألف صربي الذين هربوا من بيوتهم في كرواتيا أثناء الحرب الصربية/ الكرواتية عام ١٩٩١ كانت تتم إعادة توطينهم في بوسانسكا كرايينا ومعظمهم في أملاك العائلات المسلمة والكرواتية الذين عاشوا في المنطقة لأجيال . فما كان يغير وجه شمال البوسنة لم يكن الحرب بل العملية التي قام بها الصرب لتعزيز نصرهم . ما كان يغير وجه شمال البوسنة كان مشروع التطهير العرقي .

وهذا تقرير وصفي للتطهير العرقي ، أو رؤية شاملة : «تحولت المنازل وقرى بكاملها إلى ركام وكان السكان الأبرياء يذبحون بالجملة مع أعمال عنف لا تصدق وسلب ووحشية من كل لون - كانت تلك هي الوسائل التي إستخدمت ومازالت تستخدم من قبل جنود الصرب والجبل الأسود بهدف التحويل الشامل للشخصية العرقية (لتلك) المناطق ، وبعد أن يهدأ القتال في أي منطقة معينة ويتم طرد السكان المحليين الباقين على قيد الحياة يتم جلب المستوطنين الصرب وأبناء الجبل الأسود وغالبا من على بعد مئات الأميال ليحلوا محلهم ويسكنون في المنازل - تلك التي لازالت قائمة - التي يمتلكها الناس الذين أجبروا على الفرار . كذلك كان تحويل الأماكن العامة يتم بشكل جذري . كانت المساجد تدمر بالنار والمتفجرات لتحويلها

في كثير من الحالات إلى مواقع إنشائية حيث يبدأ أفراد المليشيا من الصرب في وضع الأساس لكنائس أرثوذكسية والتي كان تشييدها معياراً على انتصارهم لا يقل أهمية عن قتل أو تشتيت السكان غير الصربيين .

هذا التقرير الوصفي ليس معاصراً . فهو مأخوذ من «تقرير البعثة الدولية لبحث أسباب ومسيرة حروب البلقان» الصادر عن منحة كارنيجي للسلام الدولي عام ١٩١٤ . وما حدث في البوسنة وكرواتيا منذ ١٩٩١ لم يختلف كثيراً في الايديولوجية والأسلوب عن ذلك الذي حدث في أوائل القرن في كثير من نفس المدن والقرى وحدث مرة أخرى أثناء الحرب العالمية الثانية . ولكن كان هناك وهم أوروبي – تولد عن التمنيات وعن الرضا الذاتي الذي أصاب أجزاء كثيرة من أوروبا الغربية حتى جعل انهيار الشيوعية كل شخص يفكر مرة أخرى – في أن الناس في القارة القديمة وحتى في البلقان لن يستمروا في ذبح بعضهم البعض بهذا الانتظام . وبالفعل انتهى هذا الفصل . بالطبع هو لم ينته . والاختلاف الآن يكمن في أن الكارثة في نظر الغرب عن المنطقة من نوعية ناشئة فالأمر يبدو وكأن يوغوسلافيا قد تغيرت أكثر مما تغير اليوغوسلافيون . فهذه المرة تنشب الحرب في بلد توقفت عن أن تكون إحدى «الأراضي السيئة» في أوروبا لعقود مضت . إنها مجزرة تدور في بلد سياحي سواء في المدن الفينيسية على ساحل دالماتيا أو منتجعات التزلج أو ضواحي سراييفو أو كرمات غرب الهرسك حول موستار .

على جبل ياهورينا فوق العاصمة البوسنية تريض استحكامات مدافع صرب البوسنة في ظل بوابات مصاعد التزلج المدمرة وعلى طول مدارج الزلاجات العملاقة للألعاب الأولمبية التي استضافتها سراييفو عام ١٩٨٤ كان ضباط جيش صرب البوسنة يقضون ساعات الراحة في مطعم سياحي على طراز شاليه يلعبون الشطرنج ويشربون في غرف مزينة الآن باللافتات الدعائية – خارطة أوروبا مغطاة بالصبغ الأخضر «الإسلامي» ، وصورة لمصافحة بين رجل يلبس في كفه حلقة مزينة بقلعة المربعات الكرواتية وآخر يلبس سواستيكا وهي أمثلة نمطية للهيثة . وفي كل أنحاء البوسنة ، عبر أرض المعركة التي انتشرت فيها القمامة وفي وسط المنازل التي هدمتها القنابل والسيارات المهترئة والأرض المحروقة والحيوانات النافقة ، يرى المرء لافتات

لوكا، المدينة الرئيسية في المنطقة وثاني أكبر مدن البوسنة، مركزاً للتجارة والصناعات الخفيفة كما كانت السوق الزراعية الرئيسية في المنطقة. وبتجهيزاتها الوفرة من الفنادق المريحة والكنائس والمساجد الجميلة كانت مكاناً بورجوازيًا ممتعاً أن يكون لها الجاذبية السياحية لمؤسستار ولا الجو العمالي لمراكز الصناعة الثقيلة مثل زينكا أو توزلا. ولقد اعترف بعض الناس في بانيا لوكا بأن مدينتهم كانت راضية عن نفسها قبل الأحداث، ولكنهم أكدوا - وبفخر رغم كل ما حدث - أنه نفس النوع من الرضا عن النفس السائد في كثير من مدن الأقاليم الأوروبية. قال لي مسلم من الأعيان ذات مساء، وهو يتوقف كثيراً لينظر بعصبية تجاه باب شقته أو ليخفض عينه عندما ينطلق صوت طلقات الكلاشينكوف على مقربة كما يحدث غالباً في بانيا لوكا: «كنا مثل الناس في برجامو أو بريستول. فأنا لا أعرف المدن الماثلة في أمريكا» واستمر يقول وهو ينظر إلى كسوة مطرزة على الحائط «كنا قلقين على أبنائنا الذين يستمعون كثيراً للروك أند رول ويفقدون «قيمهم» بسبب امتيازاتهم المادية. كنا قلقين ألا يدرسوا الأبجدية بما يكفي وأنهم يمضون وقتاً طويلاً في «نيويورك»، وهو هام سباحة في المدينة، وتظاهروا بأنهم لا يتعاطون المخدرات. وأحياناً كنا نكتب من المستقبل الذي سيواجهونه. لكننا لم نقلق في الواقع على أنفسنا. كانت همومنا في طريقها لأن تصبح شخصية - الطلاق والشيخوخة والموت. لكننا لم نكن نعتقد أن مجتمعنا قابل للزوال. فتلك السنوات عندما كان كل شيء قاس - الحرب العالمية الثانية، والرعب من أن يستولي مناصرو الحزب على السلطة - ظننا أنها ولت إلى الأبد. إنني حتى لم أقلق على شيخوختي. كان كل ما يقلقني هو هل سأستطيع تحمل نفقات الذهاب إلى الساحل أو إذا كنت سأستطيع شراء قطعة فنية كنت أشتهى اقتناءها ولم آخذ السياسة بجدية. كان الناس يصيحون ويصرخون ولكني لم أتصور مطلقاً أن أحداً منا سيكون غيباً لدرجة أن يدمر ما كان لنا في يوغوسلافيا أبداً كان دافعه. لم أفكر مطلقاً أنهم سيكونون من الغباء بحيث . . . !» وهنا خفت صوته وسكت.

وفي وقت لاحق حدثني بإسهاب عن مسرح العرائس الطليعي في بانيا لوكا: «كان الناس يبحثون من كل أوروبا ليشاهدوا العروض، مارسيل مارسو ومسرح يارما التجريبي وسكوبولين برلين. وكان زياد صديقي هو المخرج وهو مسلم مثلي ولكن

رفقته كانت مختلطة تماماً - صرب وكروات ومسلمين وشاب نصف يهودي ، ولم يكن هناك غرابة في ذلك . كان الأمر طبيعياً فقد كنا جميعاً مختلطين على أي حال . فقد تزوجت إيتي من كرواتي - وهما في زغرب مع والديه والحمد لله . يقولون إن شعبنا كان منقسماً إلى أعداد متساوية من الصرب والمسلمين ومجموعة من الكروات ، ولكن معدل الزواج بيننا كان مرتفعاً لدرجة أنني أعتقد أن هذه الفوارق ستكون غير ذات معنى بعد جيلين لأي شخص باستثناء قليل من عجائز المتعصبين وبعض الريفين . ثم توقف : « لكن ذلك لن يحدث مطلقاً الآن . فإذا قدر لنا أن نعيش فسنعيش كل في حيه الخاص - الصرب هنا ، والمسلمون هناك ، والكروات في مكان آخر . يقول كارادزتش إننا مثل القطط والكلاب ، ولكننا لسنا حيوانات ، إننا آدميون . أو على الأقل أأمل أن نكون كذلك . فأحياناً لا أكون متأكداً من ذلك . أحياناً أظن أن ما يجري الآن هو الحقيقة الإنسانية وأن الغرابة كمنت في كيفية معيشتنا قبل أن يبدأ هذا . ربما أن كارادزتش عبقرى أو على أقل تقدير على صواب . هل تعلم ما حدث لمسرح زياد؟ حسناً ، قبل الحرب كان لزياد ، وهو برغم كلامه اللاذع ، شخص عاطفي ، تابع وهو ممثل صربي شاب . كان المسرح جمعية تعاونية ولم يكن بعض الممثلين يريدون انضمامه ولكن زياد أصر . وكان الشاب لطيفاً . وعلى أي حال فعندما بدأت الحرب اختفى لأيام قليلة ثم عاد إلى المسرح ، وفي هذه المرة بمسلسل في حزامه وفي - يده ورقة رسمية . كانت الورقة تحوله أن يصبح مديراً لمسرح بانيالوكا للعرائس ، يمكنك أن تخمن البقية . كان زياد أول من فصلوا » .

لقد حلت الحرب ببانيالوكا فجأة واستولت قوات حرب البوسنة بقيادة الجنرال راتكوميلاديتش على المدينة في أبريل ١٩٩٢ تقريباً بدون رصاصة واحدة . كان ميلاديتش نفسه صربي بوسني بالمولد وطوال الفترة الأكبر من عمله العسكري لم يظهر أي حماس قومي خاص . قال لي محام من بلغراد يعرفه جيداً : « كان ميلاديتش ضابطاً عادياً قبل الحرب وكانت القومية تكبت في الجيش الوطني اليوغسلافي وكان ضباطه مرتبطين بالنظام وبال دفاع عن يوغسلافيا ونظام الإدارة الذاتية الاقتصادي ، كلام فارغ ! لا أعتقد أن ميلاديتش كان قومياً أيام تيتو » . ومع ذلك فقد أشار أناس آخرون يعرفون ميلاديتش كما أشار هو نفسه إلى موت أبيه وأمه على يد الفاشست الكروات

أثناء الحرب العالمية الثانية . فإذا لم يكن قوميا قبل ذلك فذلك بسبب ولائه للجيش القومي اليوغسلافي ولفكرة يوغوسلافيا التي أقسم هو وزملاءه على الدفاع عنها . أما وقد تهاوت الدولة فقد استحوذت عليه القومية الصربية وسرعان ما أصبح ميلاديتش أحد أشرس مؤيديها .

وخلافا لميلاديتش فلا يعرف على وجه التحديد ما إذا كان سلوبودان ميلوسيفتش نفسه قوميا في الحقيقة أم مجرد سياسي براجماتي وجامد المشاعر اعتقد منذ أواخر الثمانينيات أنه لكي يستمر في السلطة عليه أن يلعب على أوتار القومية الصربية . أما الأمر المؤكد فهو أنه بعد أن قرر أنه طالما لن تكون هناك يوغوسلافيا فلتكن هناك إذن صربيا الكبرى ، وجد أداته النموذجية عندما تخطى العديد من الضباط الأعلى مرتبة ذوي رتب أعلى في الجيش القومي اليوغسلافي (كان معظم الضباط من الصرب لكن لم يفرغ من غير الصربيين حتى عام ١٩٩٢) وطلب من ميلاديتش تولي قيادة الجيش القومي اليوغسلافي الموحد وقوات الانفصاليين الصرب في كنين وهي على بعد مائة وخمسين كيلومتراً إلى الجنوب الغربي ، خلال الحرب الصربية الكرواتية عام ١٩٩١ . وقد نجحت تماماً في تحقيق أهدافها تلك الحرب التي شنها ميلاديتش في كرواتيا والتي كان الهدف منها رسم حدود صربية عرقية صرفة على أشلاء الدولة الكرواتية . وحين تم ترتيب وقف لاطلاق النار بوساطة الأمم المتحدة ، كان قد تم لميلاديتش ما أراد . كما كان قد توفر لديه نموذج للحرب التي سيتولاها في البوسنة في أواخر ربيع ١٩٩٢ .

وكان من المنطقي أن يكون شمال البوسنة إحدى النقاط الأساسية لعمليات ميلاديتش . فجميع أراضي البوسنة والهرسك كانت مركزا عسكريا وصناعيا قبل الحرب ، فقد كانت كل من كرواتيا وصربيا قريبة جدا من الحدود مع دول حلف وارسو . ولخوف تيتو من غزو روسي والذي لازمه حتى النهاية ، فقد قرر أنه في حالة قيام الروس بالغزو فعلى قوات يوغوسلافيا الانسحاب إلى جبال البوسنة ولذلك فقد كدس الأسلحة وأقام القواعد هناك . فكان أكبرها مجمع القواعد العسكرية والمطارات تحت الأرض — يقال إنها من أكبر وأحدث التجهيزات في أوروبا — وذلك قرب مدينة بيهاتش في الشمال الغربي . ولكن بيهاتش كانت في منطقة ، أكثر من

تسعين بالمائة من سكانها من المسلمين . ومن ثم فعندما اتضح أن القتال في البوسنة كان على وشك الحدوث بدأ الجيش القومي اليوغسلافي في نقل معظم المعدات من بيهاتش إلى بانياالوكا (بعضها أرسل إلى قاعدة جوية في كنين) وحطموا ما لم يستطيعوا نقله . وحين بدأ القتال في البوسنة جديا كان المفهوم العسكري السليم أن تصبح بانياالوكا أحد مناطق الهجوم الرئيسية لميلاديتش، وهي مركز قوة الصرب في شمال البوسنة . واستتبع ذلك أيضا أن يصبح شمال البوسنة ، المقسوم بالتساوي بين الصرب والمسلمين والذي يتاخم المناطق الصربية من كرايينا الكرواتية ، أصلح أرض لحملة التطهير العرقي الذي بدأت قوات صرب البوسنة منذ اللحظة التي غادر فيها رادوفان كارادزتش سرايفو إلى بالي ، عاصمة الصرب الإقليمية ، والوعيد بالحرب والانتقام الصربي مازال على شفتيه . كانت بيهاتش شديدة التمسك بالاسلام بحيث يصعب صربتها على الأقل في البداية . أما بانياالوكا المعزولة عن أي إمكانية للمساعدة من الحكومة الكرواتية أو البوسنية فكانت مثالية .

بعد قليل من إستيلاء الصرب على بانياالوكا ، قامت السلطات المدنية التي وضعوها لإدارة شؤون المدينة بإنشاء «لجنة أزمات» . كانت تقوم بأعمال يومية روتينية - فأنت تحتاج إلى مهندس مياه وفنيين في مصانع الغاز للقيام بوظائفهم أيا كان ما بذهنك من أجل مواطنيك - ولكنها أصدرت كذلك سلسلة من القوانين التي منعت حق الاقتراع عن غير الصرب في المدينة . لا تشابه إبادتان جماعيتان ، وقد يكون الجنرال ميلاديتش الذي كان في شبابه ضحية للفاشية ، جزارا ولكنه ليس بهتلر . ومع ذلك فهناك عامل مشترك بين جميع الإبادات الجماعية ، ومثل «الحل النهائي» فقد كان التطهير العرقي عملية بطيئة وملتزمة بالقانون ومتعمدة نسبيا ، وتضيق الخناق دائما حول العنق الجماعي للسكان ، أكثر منها حدثا فرديا فظيعا . لقد كان بإمكان الجماعات شبه العسكرية للصرب ، مثل اليوستاشا والأنيساتزجروبين ، قبل خمسين عاما ، أن يقتلو الناس بسرعة في مهمة مسائية في قرية منعزلة . أما في المدن الأكبر في شمال البوسنة حيث أدى الحضور المتقطع لقليل من الصحفيين والعاملين بقوات الحماية الدولية إلى صعوبة تغطية القتل الجماعي الذي يعد له الصرب في ريف البوسنة ، وكانت هناك مراحل كثيرة لا بد من اجتيازها وكثير من الحواجز البيروقراطية

لابد من تجاوزها قبل أن تبدأ في الواقع إراقة دماء المسلمين .

ولقد لعب الطابع المتدرج للعملية على وتر مخاوف الشعب الصربي الذي يعيش تحت الأحكام العرفية ولا تعرض عليه سوى الأخبار التي يصدرها الإعلام الحكومي في صربيا والبوسنة . بينما كانت جميع شبكات البث التلفزيوني بالأقمار الصناعية مزدحمة جدا وبالطبع كانت الجرائد هي أول المؤسسات المعرضة للرقابة وغالبا لسيطرة جيش صرب البوسنة . وفي هذا الجو، فإن الصرب في شمال البوسنة ، وكثير منهم كانوا وافدين جدد من كرواتيا حيث تم تطهيرهم عرقيا كذلك ، إعتقدوا تماما أن جيرانهم المسلمين كانوا جميعا إرهابيين عازمين على تدمير الصرب . لم يكن الوضع وكأن المسلمين يقتلون في الشوارع ، ليس غالبا على أي حال . وعندما يحدث ذلك ، وقد حدث ذلك في بانيا لوكا وفي بريدور وسانسكي موست ، وهو ما كانت تعترف به السلطات بين وقت وآخر ، كانت تصر السلطات على أن الجرائم كانت إما بفعل مثيري الشغب - وهي محاولة أخرى للعالم للتعتيم على سمعة الصرب الأبرياء - أو تم اقترافها من قبل «عناصر خارجة» سيتم تقديمهم للعدالة . ولم يكونوا كذلك مطلقا بالطبع حيث أن التمييز بين الصرب «الرسميين» وغير النظاميين كان بلا معنى في بانيا لوكا كما في معظم الأجزاء التي احتلها الصرب في البوسنة طوال القتال . وعادة ما يكون الأمر ببساطة تقسيما للأدوار . فالصرب غير النظاميين والمسمون بالتشنتيك - وهم أعضاء في مجموعات بأسماء أقرب إلى عصابات الشوارع منها إلى جيش - النسور البيضاء والنمور (الاسم الحركي لقائدهم هو الجنرال مادرز) وما شابه ذلك - يقومون بالأعمال القذرة التي يطلبها مساعدو رادوفان كارادزيتش ولا يمكنهم الإقرار بها . ثم يدعى الصرب «الرسميون» أنهم يبذلون كل وسعهم لضبط الأمور في وقت عصيب .

أما الصرب العاديون من شمال البوسنة ، والذين لم يكونوا مجرمين في ذاتهم ، فلم يكونوا يريدون - وذلك لأمر مفهوم - الاعتقاد بأن قادتهم مجرمون . كان الصرب الذين فروا من كرواتيا أثناء القتال عام ١٩٩١ أو تم تطهيرهم عرقيا على يد القوات الكرواتية - قد يكون الصرب قد أنقذوا لعبة التطهير العرقي ولكن الكروات يحملون الذنب كذلك - كانوا في موقف مختلف . كانوا يفكرون في أنفسهم فقط كضحايا أيا بلغ عدد

ولو كان التطهير قد بدأ في بانيا لوكا بمذبحة جماعية فربما تمرد الصرب المعتدلون . ولكن لم يحدث ذلك كما لم يحدث في ألمانيا النازية . ففي شمال البوسنة ، راحت معاش الناس أولا . فقد بدأت لجنة الأزمات في منع غير الصرب من العمل في وظائف مديرين في الشركات الكبيرة . وسرعان ما استبعد غير الصرب من جميع المراكز العليا التي تتطلب «قرارات مستقلة» كما تصفها السلطات . وعمليا فإن ذلك يعني أنه ليس فقط مديرو ورؤساء الشركات بل كذلك مسؤولي المحلات والمحاسبين وماسكي الدفاتر- أي شخص ، كما تشترط اللجنة ، يتعامل في المعاملات المالية- يتم طردهم أو خفضهم إلى أدنى المراكز في شركاتهم . وبذلك ، فإن غير الصرب في بانيالوكا الذين لم تتأثر مكتسباتهم بقرارات اللجنة كانوا من الذين لم يتعدى مستواهم مطلقا الوظائف الحقيرة في المكان الأول . وحتى الأطباء ، والذين كانت مهاراتهم مطلوبة بصفة منفصلة ، طردوا أخيرا من مناصبهم . وهكذا ، وفي سلسلة من الخطوات غير العنيفة قضت السلطات الصربية على مستقبل الطبقة المتوسطة من السكان المسلمين والكروات في مدينة كانت تطلعات الطبقة المتوسطة فيها هي المعيار أكثر فأكثر بالنسبة لغالبية السكان .

كانت بعض المراسيم اللاحقة للجنة موجهة بصفة خاصة للبالغين الذكور من غير الصرب فيما يخص بالخدمة العسكرية . وهنا ، كذلك ، كانت الأهداف الحقيقية للسلطات تحتفي تحت قناع من المساواة الإجرائية الظاهرية . فعندما اتضح أن مقاومة الحكومة البوسنية كانت أصعب في التغلب عليها مما ظن القادة الصرب في بادئ الأمر ، بدأت السلطات في استكمال القوات التي بدأت بها الحرب من خلال سلسلة

تدابير التعبئة لأفراد معظمهم من الجنود النظاميين في الجيش القومي اليوغسلافي والذين، كما أصرت سلطات بلغراد برقة، لم يكونوا مستعدين بل متطوعين عن اقتناع قومي بالخدمة في جيش صرب البوسنة الجديد «فقط للدفاع عن أنفسهم» كما رد كارادزيتش مرارا.

كان كل رجل بين الثامنة عشر والستين مؤهلا، وكثير من رجال الصرب الذين تعدوا بكثير سن الجندية في أي جيش عادي كانوا سعداء بالمشاركة في المعركة من أجل صربيا الكبرى خاصة وهم يتفوقون في العتاد عن الجيش الذي كانت ترتجله الحكومة البوسنية. وكانوا في الغالب مشغولين ببث الرعب في المدنيين المسلمين العزل في القرى. ولكن، ولأسباب واضحة، كان معظم الأفراد المسلمين والكروات مرعوبين من جرهم إلى جيش كارادزيتش. وكانت هناك وحدة مسلمة واحدة تقاتل إلى جانب القوات الصربية حول مدينة بوسانسكي برود في شمال البوسنة، ولكن بغض النظر عن ذلك الفيلق الملعون، فقليل من غير الصربيين كانوا انتحاريين بحيث يتقدموا للخدمة عند استدعائهم. وبذلك خدمت التعبئة العامة غرضين معا، زيادة القوات المطلوبة لجيش كانت نقطة ضعفه، خلال القتال، النقص في الرجال وكذلك منع حق الاقتراع عن السكان غير الصرب الأسرى في البسوت نفسه.

كانت نتائج رفض الخدمة في ذلك الجيش الذي، في الواقع، لم يرد مطنسا أيا منهم، وخيمة بصورة لا تصدق على غير الصرب في شمال البوسنة. فالذين لم يستجابوا اكتشفوا بعد أيام أن عدم تقدمهم كلفهم وظائفهم. قال لي عمدة بانياالوكا، في ديسمبر متوددة، في أكتوبر ١٩٩٢: «نحن في حالة حرب. وعلى كل مواطن واجب القتال». ولكن المسؤولين الصرب الذين أجبروا على التحدث مع أغراب بشرط عدم النشر فقد حاولوا التظاهر بأن الفصل لم يكن متعمدا. وعندما كلمني العمدة، استطع أن يكبت ضحكته وهو يقول مع ابتسامة خافتة: «أصر على أنك تصدقني. يستطيع كل الناس في بانياالوكا أن يعيشوا معا فقط لو أن المسلمين توقفوا عن مهاجمة الشعب الصربي. إننا لا نريد الحرب ولكن حيث إن الحرب فرضت علينا فعلى كل شخص يدين بالولاء أن يتقدم للمساعدة. فإذا كان المسلمون يريدون أن يعيشوا معنا

هل تعرف شيئاً عن معركة كوسوفو عام ١٣٨٩؟ لابد أنني كشرت لأنه هز رأسه وأمسك بمعصمي وقال «لا، في الحقيقة إنه أمر مهم . أتمم الأمريكان لا تهتمون بالتاريخ ولكن عليكم أن تهتموا . الصرب لديهم التاريخ فقط . فلخمسائة عام كنا نحن الصرب ندافع عن الحضارة الغربية ضد الأتراك وقد فعل فوك كارادزيتش ذلك في القرن التاسع عشر ويفعل ذلك الآن قائدنا رادوفان كارادزيتش . إننا جميعا نفعل ذلك، جميعنا! ومع ذلك تجعلون منا العدو وهذا خطأ» . وترك معصمي وربت على ظهري بلطف ثم . قال «الأمر لا يهم : دعنا لا نضيع الوقت في الكلام عن الأتراك الملاعين فإننا سنتشاجر . دعنا نطلب شراباً آخر» .

والتفت مشيراً للمضيف . ثم قال من فوق كتفه : «ولكني أقول لك بعد كل ما رأيت إنني لا أظن أن الأمر سيكون فظيعاً إذا فقد أحدهم وظيفته» .

لم يقل المقاتلون شيئاً آخر عن «الأتراك» ولا عن الذين كانوا يجاربونهم على خط النار قرب بوسانسكي ولا عن أولئك الأشخاص الذين كنت أسألم عنهم في بانياالوكا . وكان المقاتل على حق بشكل ما . فالحياة بالنسبة للمسلمين في بانياالوكا لم تكن بالسوء نفسه الذي عاشوه في القرى أو في مناطق القتال . على أننا حتى لو نحينا جانباً حقيقة أن حرمان الناس من وظائفهم كان فقط خطوة في سلسلة من تدابير التطهير العرقي الذي أدى في النهاية إلى القتل ، فإن خسارة العمل كانت أخطر بكثير مما بدت للنظرة الأولى . إنها لم تكن ببساطة مسألة فقدان الشخص لوظيفته ، كما يمكن أن يحدث في دولة أوروبية غربية ، في مكان ووقت يصعب فيه الحصول على عمل . ففي الغرب يغير الناس وظائفهم طوال الوقت ولكن في يوغسلافيا السابقة ، فإن منظمي المشروعات والمهنيين فقط الذين هم الذين كانوا يتحركون في سوق الوظائف بحرية . وقد تغير هذا بالطبع حين أصبحت يوغسلافيا أقل شيوعية حتى بهذا المعنى المؤسسي . ولكن معظم الناس مازالوا يتوقعون العمل في المكان نفسه مدى الحياة وتعودوا على النظر إلى مكان العمل من أجل المنافع المصاحبة . والطرد يعني خسارة ما هو أكثر بكثير من شيك الراتب . فقد كانت النقود تفقد قيمتها كل يوم على أي حال كلما استمرت الحرب ، بعد أن أصبح كل شيء يباع بالمارك عدا الجرائد والمواد الغذائية الأساسية ، أما ما لا غنى عنه مطلقاً فهو التأمين الصحي وخدمات

الدولة الأخرى التي ترفع فوراً عندما يفصل الشخص من عمله .

بل إن الناس أصبحوا غير آمنين حتى في بيوتهم حيث إن كثيراً منهم حصلوا على شققهم من خلال اتحاداتهم أو منظماتهم المهنية التي كانت مالكة لها فنياً . وفي صربيا نفسها كان خوف الناس من أن يفصلوا (في مقارنة بأن يتم تسريحهم مؤقتاً أو يجرموا من الأجر وهو ما لم يكن يهم كثيراً في عصر زيادة التضخم والندرة) من مشروع حكومة أو يفقدوا شقة يملكونها ذلك المشروع هو أحد الوسائل التي يجبر بها نظام ميلوسيفيتش الناس على القبول: الأجدر أن تساند النظام من أن تجد نفسك مشرداً في الشارع . وفي بانالوكا أعطى إرث عصر تيتو السلطات الصربية الدفعة التالية في عملية التطهير العرقي للسكان غير الصرب الحضريين . وكان الفصل نفسه هو المقدمة . ففجأة يعلن طرد الشخص رسمياً وتكون الخطوة التالية إرسال خطاب بإخلاء الشقة التي كان يعيش فيها .

وبذلك يكون الحرمان من الوظيفة مثل الحرمان من المواطنة ، ومثل أن تتقل بالقوة من وضع غير الصربي إلى وضع غير البشر فقط بقرارين رسميين . وقد تصادف هذا الطرد من مراكز التشغيل مع ارتفاع أهمية مراكز العمل في السياق الأساسي الذي يحصل فيه الناس على لوازمهم المتزايدة الندرة . فمع نضوب إمدادات الدواء مثلاً ، حلت الصيدليات في مراكز العمل محل تلك التي كانت تعمل في المدن . كما أن مراكز العمل كانت توجد حيث تتوافر حصص الوقود ، رغم أن ذلك أصبح أقل أهمية مع استمرار الحرب حيث أصبح الوقود يشتري تقريباً بالعملة الصعبة في السوق السوداء . ويستطيع الناس شراء الأشياء الأخرى التي تلزمهم بالعملة الصعبة ، في السوق السوداء طبعاً ، ولكن قبل وقت طويل استفدت معظم العائلات المسلمة والكرواتية مدخراتهم بالمارك وكان ذلك أيضاً لصالح اللوردات الصرب الجدد في بانالوكا حيث إن غير الصرب كانوا في الواقع ، يحولون ما يملكون من العملة الصعبة إلى تجار السوق السوداء الصرب . كذلك كان من غير المستغرب ، حيث إن البندقية والسوق السوداء يعملان معاً وقت الحرب ، أن يتجه هؤلاء الناس لا إلى أن يكونوا مجرمين عاديين وراء عملية سريعة بل مجرمين في الزبي الحربي ، أعضاء في المجموعات شبه العسكرية ، التشتيك ، الأكثر تطرفاً ودموية . ومن سخرية الأقدار ، أن كثيراً

من المقاتلين أنفسهم الذين يعتبون الخمر في فندق بوسنا ثم ينطلقون في شوارع بانياالوكا ويقذفون القنابل اليدوية على نوافذ بيوت المسلمين هم أنفسهم الذين اضطر المسلمون لأن يدفعوا لهم للحصول على ما يقيم أودهم . ولكن هنا أيضا أتى على خاطري بشكل لا إرادي مقارنة مع كارثة اليهود ، فقد كان المسلمون يدفعون لمعذبيهم ولكن ألم يكن يهود هولندا وفرنسا يدفعون للألمان أجور القطارات إلى أوسكوفتزر؟

لم تقدم الجهود المتكررة للجنة العليا للاجئين في زغرب لتنظيم قوافل الإغاثة الإنسانية إلى بانياالوكا ، سوى القليل ، من الناحية المادية في تحسين وضع غير الصرب . فعندما أصبحوا بشكل عام على وعي بما يدور في المدينة ، نجح مسؤولو اللجنة العليا للإغاثة UNHCR في حث السلطات الصربية بعد مفاوضات طويلة على السماح بدخول عدد من القوافل كل أسبوع . بالطبع ، كانت الفكرة هي مد يد المساعدة لمن كانوا يعرفون لدى الإنسانية البيروقراطية «بالسكان في المحنة» أو بعبارة أخرى ، إلى القسم الأكبر من غير الصرب في بوسنانسكا كراينا . ولكن كانت السلطات الصربية هي سيدة الموقف هنا أيضا . فمع الموافقة على طلب اللجنة العليا للإغاثة فقد أرفقوا شرطا وهو أن ينال السكان الصرب نصيبا يساوي نصيب المسلمين والكراوت . كان هذا هو النمط الغالب في أنحاء البوسنة وهو أن يرفض الصرب بادئ الأمر السماح بمرور المساعدة ثم يطلبون أن يحصلوا على نصيب وترفض الأمم المتحدة بادئ الأمر في إصرار على أن يكون التوزيع على أساس الحاجة ثم يكسبون الوقت ، ثم في غالب الأحيان يواجهون الاختيار بين مرور بعض المساعدة أو ألا تدخل المساعدة ثم يرضخون لمطالب الصرب .

كانت سياسة لجنة الإغاثة دفاعية تماما لأن الصرب كانوا يسيطرون على الطرق وإما أن تصل المساعدات على أساس شروطهم أو لا تصل على الإطلاق . كانت المشكلة تكمن في أن هذا الاتفاق يكون نافذ المفعول عندما تعبر القوافل المناطق التي يسيطر عليها الصرب حتي تصل إلى المناطق التي تسيطر عليها قوات الحكومة البوسنية - كان الصرب يأخذون حصتهم وإذا حالف الحظ يسمحون للقوافل بالتحرك - ولكن بانيالوكا كانت مختلفة . فهناك كان الصرب يسيطرون على حصص

الكل ، صربيين وغير صربيين . كانت قوات الصرب شبه العسكرية تحرس البوابة ومحيط المخزن حيث تذهب القوافل للتفريغ عند وصولها إلى بانيالوكا . وكان نفس بيروقراطي صرب البوسنة من مكتب العمدة والصليب الأحمر الصرب ، والذين اخترعوا فكرة إبطال حق اقتراع غير الصرب في بانيالوكا ، هم أنفسهم الذين يشرفون على توزيع إمدادات لجنة الإغاثة UNHCR بعد أن يدور السائقون الدنماركيون المتطوعون بشاحناتهم المرسيديس البيضاء بحرف UNHCR وهي شعار الأمم المتحدة وكلمات «المساعدة الإنسانية» المطبوعة باللون الأزرق على أبواب الشاحنات ويعودون أدراجهم شمالا عبر بوسانسكا كرايينا نحو سافا وكرواتيا .

وإذا كان هناك القليل القليل الذي تستطيع لجنة الإغاثة UNHCR أن تفعله لإسعاف ، وليس إنقاذ المسلمين والكروات في بانيالوكا - كانت هناك فترة في أواخر ١٩٩٢ وأوائل ١٩٩٣ عندما حجزت المساعدات عن المدينة كلية - فقد بدأ غير الصرب أنفسهم يأسون بالفعل من وضعهم في المدينة في خريف ١٩٩٢ ، بعد مضي نصف سنة فقط من القتال . فمن دون وظائف أو مستقبل ، كانت حياتهم عبارة عن جولة بحثا عن ، ومقايضة ، ضروراتهم اليومية ، والإذلال المنتظم على يد سلطات بانيالوكا والعنف على يد المليشيات الصربية ، وفي التحدث في الأمسيات عما إذا كانوا يحاولون دفع رشاوي للخروج من بوسانسكا كرايينا ودخول كرواتيا . كانت الرسوم التي تتقاضاها المليشيات الصربية تصل إلى ألف مارك ؛ ، ولكن بالنسبة لمعظمهم كان ذلك أمرا غير مأمون على أي حال ، حيث كان الكروات لا يرحبون باستقبال مزيد من اللاجئين من مسلمي البوسنة (كان يسمح للأفراد الكروات إذا استطاعوا الخروج من كرايينا) . وقد قام الأعيان والقادة المسلمون لما كان قبل بدء القتال الفرع المحلي للحزب الحاكم في سرايفو بمحاولة التفاوض مع السلطات الصربية ، ولكنهم قاموا بذلك من مركز الضعف المهيّن ، ومع مرور الشهور نجح القليلون في الهرب وقتل الكثيرون ولم تثبت أية مسؤولية عن الوفيات . وكان صديقي الذي سبق الحديث عنه أحد الأعيان الذي «اختفوا» . كان حيا في أكتوبر ١٩٩٢ . وعندما عدت إلى بانيالوكا في فبراير ١٩٩٣ لم يكن موجودا في أي مكان واحتلت عائلة صربية شقته وادعوا أنهم لم يسمعوها به مطلقا .

ليست الحروب أقل تعقيدا من الأفراد . ففي بانياالوكا تصرف كثير من الصرب بولاء وأمانة نحو أصدقاءهم المسلمين والكروات . فقليلون فقط من غير الصرب المطرودين من وظائفهم في بانياالوكا نجحوا في الحصول على عمل أدنى ومن حصل على عمل كهذا إنما كان يدين به للمناصب الجيدة للأصدقاء من الصرب . ولكن حتى تلك الوظائف يمكن أن تكون خطرة . فالآن تعمل سيدة مسلمة كانت طيبة قبل الحرب في بيع ملابس الرجال . قالت إنه رغم أن مالك المحل الصربي ربما لم يكن يتوقع أن تأتي إلى العمل وإنما استأجرها فقط لكي تحصل على بعض المال وعلى الرعاية الصحية ، فقد أخذت عملها بجدية . كانت تقوم بواجب الجلوس خلف طاولة العرض كل يوم مرتدية ملابس وضعها السابق في الحياة . وذات صباح دخل المحل صربي من الميليشيات وعلى كتفه بندقية وصوب سلاحه نحوها وأشار إلى قميص في شباك العرض وقال : «أريد ذلك القميص ولن أدفع ثمنه» . ودون اعتراض قامت وأحضرت القميص وناولته إياه فوضعه رجل الميليشيا على كتفه وخفض السلاح . وقبل أن يغادر رمقها من أعلاها لأسفلها وفهم مركزها رغم التنورة الرثة والسترة والبلوزة وقال في نبرة مجلجلة راضية «إنني لم آخذ حماما منذ خمسين يوما» .

تلك حادثة تافهة بمقاييس بانياالوكا بما أن المرأة لم تقتل أو تصب بسوء ، رغم أنها بكت بصوت خافت ، خلف نظارتها السوداء ، وهي تحكي لي القصة . حتى في وضع النهار ومن الإنشاءات السكنية الحديثة على أطراف المدينة وحتى قاعة احتفالات المدينة في الميدان الرئيسي -التي كانت يوما مكتبا للملازم اسمه كورت فالدهايم ، الناشط في التطهير العرقي في زمنه- كانت بانياالوكا مكانا كثيبا ومخيفا . وفي الليل تكون المدينة مرعبة . فلا يسمح ظلام البلقان فقط بتصفية العشرات بل بانفلات الأعصاب بلا سبب محدد ، ويأخذ التنكيل غير السياسي حقه كذلك . إنني لم أقض ليلة أبدا في بانياالوكا دون أن أسمع طلقات البنادق وصوت الصيحات والزجاج المتشقق . ولكن عندما أنزل من غرفتي في فندق بوسنا فإني لا أستطيع أبدا أن أحصل على إجابة مباشرة من أي شخص عما حدث . إذ يخرس موظفو الفندق ، ويتكلف المسلحون الابتسام وهم يحتسون شرابا مبكرا أو يتتهون من الإفطار . ومرة

نظر أحدهم إلى أعلى تاركا طبق البيض وقال «إنكم تسألون أسئلة كثيرة أيها الصحفيون الأجانب».

وفي أحيان كثيرة يستحيل تغطية ما حدث في الليلة السابقة. ففي أواخر سبتمبر ١٩٩٢ فقد فندق البوسنة معظم واجهته الأمامية وكذلك منطقة الاستقبال الرخامية من يوم لآخر. حدث هذا قبل أقل من أسبوع من سفر سايروس فانس وديفيد أوين إلى بانياالوكا للمرة الأولى وعقدتهما أحد اجتماعاتهم مع كارادزيتش. وقد أوضح بعض الناس، ومعظمهم في الزي العسكري، أنه حدث هجوم على الفندق بهدف منع المفاوضات من الحضور إلى بانياالوكا وقالوا إنه من فعل المجاهدين المسلمين. (كانت الإشارة إلى جنود الحكومة البوسنية وكأنهم ناسفو الشاحنات الشيعة مسألة شائعة بين صرب البوسنة مثل الإشارة إليهم كجنود أتراك أو «انكشارية») بينما همس الآخرون، وهم عادة مسلمون أو كروات، بأن الهجوم كان استفزازا صربيا بقصد إثارة جولة جديدة من العنف الانتقامي ضد غير الصربيين.

بعد أيام قليلة صادفت أحد جنود صرب البوسنة ممن كنت قد قضيت معهم أمسية في الشراب قبل ذلك بأيام قليلة. ابتسم بحزن وهز رأسه قائلا: «إنها ليلة رهيبة يارجل» واتضح أن ماحدث في الواقع هو أن أحد أفراد الميليشيا الصربية كان يجتسي الخمر في فندق بوسنا. وفجأة وقف ونزع مسبار الأمان من قنبلتين ورش المكان بسلاح AK-47. قال الجندي «لا أعلم لماذا أصيب بالجنون. المجنون ابن الزنا» كان قد قتل ثلاثة أفراد وجرح كثيرون غيرهم - خضبت دماؤهم الرخام البني الرخيص لمدة أسبوع قبل أن تستطيع عاملة النظافة أن تزيل آخر آثارها- قبل أن ينجح أفراد ميليشيا آخرون أقل سكرًا منه بقليل فقط، في سحب أسلحتهم وإردائه قتيلا. قال الجندي: «الأفضل لي أن أعود إلى الخط الأول. فعلى الأقل تعرف هناك من أين يأتي الرصاص. في تلك الليلة كانوا يصوبون من جميع الاتجاهات. لقد ظننت أنني سأصاب بالتأكيد عند تقاطع النيران»

بالنسبة لغير الصرب، بالطبع، كانت بانياالوكا هي الخط الأول منذ بدأ جيش صرب البوسنة في عربدته. كان معظمهم تقريبا في حداد على فرد من الأسرة قتل أو «اختفى» وكانوا مصدومين، كما كان الناس ومازالوا مصدومين في كل البوسنة، من

الطريقة التي انقلبت بها حياتهم رأساً على عقب . ولكن في بانياالوكا ، حيث عزاء المقاومة غير متاح وحيث انعدم حتى تدفق الأدرينالين بفعل الخوف الذي كان يساعد أهل سرايفو على البقاء خلال الحصار يعطي غير الصرب الانطباع بأنهم في حداد على أنفسهم وهم يستعرضون موتتهم وهم في حالة من الدهشة المنعزلة المتأملّة . قال لي ذلك الرجل من الأعيان في نهاية آخر أمسية أمضيتها معه : «إنني أحيانا أفكر فيما إذا كنت سأموت بطلقة أو أذبح في معسكر أو أموت بصورة غير متوقعة . إنني متأكد أن قرار موتي قد صدر . فلي صديق صربي كنت أذهب معه للمدرسة -إنه شخص لطيف وستحبه- في مكتب العمدة . وقد أخبرني أنني على قائمة أعضاء حزب SDA المخطط لقتلهم . لقد قال لي إنه رآها» .

وجدتني مصرا على أن الأمور ستتحسن رغم أنها كانت بالتأكيد تبدو كئيبة في الوقت الحاضر . فقد تنجح قوات الحماية الدولية أخيرا في نشر الكتيبة الكندية التي ظلوا يحاولون إدخالها إلى بانياالوكا لمراقبة الأوضاع في المنطقة . وقد تقدم اللجنة العليا لللاجئين يد المساعدة . فقد قيل إن روبرت زيرت الرئيسة الأمريكية الجديدة للمكتب جيدة جدا . وقد كانت عاملة في المساعدات في أمريكا الوسطى ، وهي شجاعة جدا ومخلصة جدا . كانت تعرف أن مهمتها حماية الناس من أمثاله أيا كان ما يفعله موظفو الإغاثة . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد كان العاملون في الإغاثة يحاولون أن يعطوا الأولوية لبانياالوكا ولهذا السبب فقد ضغطوا على فانس وأوين للحضور إلى بانياالوكا : كرسالة إلى كارادزيتش وميلاديتش بأن أنظار العالم تتجه الآن إلى مايجري ، ولكي يدقوا ناقوس الإنذار حول التطهير العرقي .

بالطبع ، الشيء الوحيد الذي كان يجري ويجري هو أنا ، فقد كنت أتكلم بالهراء الكامل وكنت أنا والرجل المرموق نعرف ذلك . كانت الحقيقة هي أنني سأغادر بانياالوكا بعد أيام قليلة وأن هذا الرجل المرموق سيقتل . وسواء حدث موته بعد أيام قليلة أو أسابيع قليلة أو شهور قليلة فهذا خارج الموضوع . والواقع أن حقيقة أنه استطاع أن يتفوه بذلك لا تجعل منه بطلا ولكن ربما كانت هي الطريقة الوحيدة الباقية أمامه ليكون رجلا حرا . وقد أظهر زميله ، د . محرم كيريزيتشو والذي كان الطبيب البيطري الأول في بانياالوكا وأصبح الآن الرئيس الإقليمي لحزب عزت

بيجوفيتش SDA بعضا من القدرية نفسها عندما ظهر في فندق بوسنا وقابل فانس وأوين على انفراد ثم أدلى بحديث في مؤتمر صحفي في قاعة طعام الفندق للمصحافة الدولية شرح فيه عملية التطهير العرقي بالتفصيل . وعندما قام ليغادر المكان قال : «اجعلوا من ذلك قصة جيدة» ثم أضاف بهدوء بعد التوقف ليتأمل يده المرتعشة قليلا : «لعلي كتبت الآن نعيي بنفسي» .

وقد نجحت روبين زيرت بالفعل في ضمان حياة كريزيتش لفترة طويلة ، كانت ترسل سيارات الإغاثة إلى منزله على فترات متحدية خطر التجول ومعربة عن اهتمامها بسلامته في كل اجتماعاتها مع سلطات بانياالوكا . وربما مازال حيا رغم أنني لم أستطع مطلقا التأكد من ذلك . وهي مشكلة عامة . والواقع أنني لم أعد أستطيع معرفة عدد مرات المحادثات التي أجريتها في البوسنة والتي تبدأ بـ : «هل تذكر السيد إكس؟ أمازال على قيد الحياة؟» أو عدد الردود التي اتخذت شكل : «لست متأكدا . فلم أسمع شيئا؟» . عندما تخبر شخصا في سرايفو أنك ذاهب إلى بانياالوكا فإنهم أحيانا يعطونك أسماء أقارب هناك ، أملين أن تزيل شكوكهم . وقد تعلموا بحق أن يتوقعوا الأسوأ . أما عن موت الرجل المرموق فإنني وللأسف لست في شك من أي نوع . فقد قال لي إنه لا يستطيع مطلقا أن يغادر بانياالوكا فالبعد عن فنه وسجايدته سيسبب ألما شديدا له : «إنك تعرف طبيعة جامعي التحف . إنهم لا يصدقون أن هناك فرقا بينهم وبين كنوزهم» فأوضحت له قائلا : «ولكنك ذكرت لي أنك تملك منزلا على الساحل . فلعلك وضعت بعض كنوزك هناك كذلك» . فما زاد عن أن ابتسم وهز رأسه وأجاب في حزن : «كما تعرف فالأمر ببساطة ليس ممكنا لي . فقد أخرجت أسرتي وهذا يكفي . إن مكاني هنا ، وسواء كنت مستريحا فوق الأرض أو تحتها فعلي أن أن أبقى في بانياالوكا» .

كان الرجل المرموق يتلو صلوات موته . فطلما كان أحباؤه في سلام فأى عناء آخر هو قادر على تحمله . كان غير الصرب الآخرين في بانياالوكا مازلوا يحاولون التوافق مع موت أحبائهم . وكان أحدهم هو الذي حكى لي حكاية مازلت أشعر بأنها تجسيد صادق لمأساة مسلمي البوسنة أو «البوسنيك» كما أسماهم . قال : «كان أخي غير الشقيق أول القتلى . كان مدرسا في مدرسة ابتدائية في قرية صغيرة . ولم يكن الهجوم

مفاجئاً . جاء الجيران وأخبروه : «إنك مثقف والشتيك يقتلون جميع المرموقين المسلمين . وعليك أن تهرب . اذهب إلى نهر «السافا» ، فالتيار ليس قويا هناك . وأنت تستطيع السباحة والنجاة بحياتك» . لكن أخي رفض وقال : «إنني لن أغادر فلم أفعل أي شيء ضد أي شخص إنني حتى لست مسلماً متديناً فأنا أشرب الخمر وأكل لحم الخنزير» وبذلك فقد بقى وأتى الجنود وقتلوه كما سبق وحذره القرويون . ثم استطرد يقول : «والآن أظن أفكر في موته ولكني لا أستطيع الكراهية .

إنني لا أستطيع خلق الكراهية . إنني أحياناً أتضرع إلى الله وأنا مسلم غير متدين أن يأتي ويزيل من وجه الأرض أولئك الخنازير الذين قتلوا أخي ولكني أدرك أنني لا أستطيع أن أرفع اصبعي للمساعدة في إزالتهم . إنني أتساءل طوال الوقت هل أنا على حق في أن أكراه؟ هل أنا على حق في التمسك بمشاعري العالمية؟ أظن ذلك ، رغم أنني لست واثقاً . ففي المدارس ، عندما كنت صغيراً درسوا لنا اضطهاد النازيين لليهود . بدا وكأن ذلك تاريخ سحيق ، قطعة فنية في متحف ، شيء قد تقرأ عنه . أتذكر النظر في الصور حيث يصطف اليهود ليركبوا القطارات إلى أوسكوفتز وبصورة ما لم أكن أصدقها مطلقاً . لا أقصد أنني لم أصدق موت ست ملايين يهودي ، فأفكر فقط لم أصدق أن هذه حقيقة . ربما لأن الصور كانت بالأبيض والأسود . الآن نحن اليهود ، نحن مسلمو بانياالوكا . فأنا أرى أصدقائي مصطفين على محطة الباص هنا بينما هناك شائعة بأن من الممكن أن نغادر فأفكر أحياناً «أن الأمر حدث في الأربعينيات ، ولكنه الآن بالألوان وهم ليسوا اليهود بل نحن» .

وكرر قائلاً «أحاول ألا أكراه . أحاول ألا أسترسل في أفكار السافلة» بعبارة أخرى وأخلاقياً على أدنى تقدير ، استمر الرجل في محاولة أن يكون بطلاً - وهي في مفهوم شمال البوسنة تعني أنه يستطيع فقط أن يكون شيئاً واحداً : ضحية . قابلته في خريف ١٩٩٢ . وبعد عام ونصف كانت الأمور قد صارت إلى الأسوأ . لقد هرب بالفعل من بانياالوكا كما فعل كثيرون آخرون . فبالنسبة لغير الصرب أفسح الأمل في عدم الأمل السبيل إلى إدراك أن كل شيء قد ضاع . فبدلاً من التمسك بمنازلتهم وهويتهم المدنية في بانياالوكا كما فعل الرجل المرموق ، وبشجاعة عظيمة في مقاومة جميع ضغوط السلطات الصربية لمغادرتهم ، فقد كان الناس يستجدون إجلالهم .

فقد احتشدوا أمام مكاتب لجنة الأمم المتحدة للإغاثة وطلبوا مع ممثلي ICRC الزائرين لجنة الصليب الأحمر الدولي بالمساعدة على مغادرتهم .

في فبراير ١٩٩٤ ، وبعد سلسلة وضعية من التقتيل والقصف حول مدينة بريودور (حذرني عامل في الإغاثة قائلا «إنهم جميعا سفلة في تلك المنطقة ولكن جماعة بريودور هم أسوأ السيئين») حاولت لجنة الإغاثة تنظيم إجلاء العشرة آلاف مسلم المتبقين في بوسانسكا كرايينا . وفي ضوء أهداف صرب البوسنة ظن المرء أن السلطات المحلية ستقفز فرحا لفرصة التخلص منهم . وقد وافقوا بالفعل على الصفقة ، ولكن رادوفان كارادزيتش تدخل عندئذ قائلا بأن كل شيء على مايرام وأنه لن يكون هناك تقتيل بعد ذلك - قائلا إن ماحدث كان حوادث منعزلة - وأنه سيرسل محققين من بالي لمعرفة ماحدث في الواقع . وقال من مقر رئاسته : «إذا قام أحد بقتل المسلمين أو سلب حقوقهم الإنسانية فسوف ينال العقاب» وتراجعت لجنة الإغاثة عندما لم تستطع إجبار الصرب على السماح بالإجلاء . وتم تعليق الإجلاء ثم ألغي . وأعقب ذلك توقف مؤقت خمدت فيها اهتمامات الإعلام .

ثم استؤنف التقتيل والقصف وظل الضحايا كما هم ضحايا أيا كان التهديد الذي شكلوه ومهما تضاعل عددهم . وسواء شاهد العالم أو غض الطرف وسواء عملت وكالات الإغاثة والأمم المتحدة أم صمتت فقد استمرت الإبادة الجماعية . وانتظر مسلمو البوسنة الموت أو التشريد .

الفصل الخامس

كان التطهير العرقي في البوسنة بقصد إذلال شعب وتدمير ثقافتهم بمثل ما كان بقصد قتلهم . فلم يكن العدوان الصربي على التراث المعماري العثماني والإسلامي في كل أنحاء البلد ناتجا عن القتال -وكما يقول الجنود دمارا مصاحبا- بل كان هدفا مهما للحرب . فبالنسبة لقيادة صرب البوسنة لم تكن صربنة مناطق في البوسنة ، والتي كانت مختلطة قبل الحرب ، لتحقيق بمجرد طرد كثير من غير الصرب الذين عاشوا في القرى . فحتى بعد عامين من القتال ، كان من المألوف أن تقابل أناسا في معسكرات اللاجئين يسألون متى ينتهي «كل هذا» ومتى يعودون للعيش مثلما كانوا من قبل . فطالما استطاع المسلمون من الطبقة المتوسطة الاستمرار في حياتهم المهنية في المدن وطالما استطاع اللاجئين المسلمون أن يتصوروا أنهم في يوم ما ، عندما يعكس الميزان ، يستطيعون العودة إلى منازلهم التي طردوا منها ، إذن فالتطهير العرقي غير ناجح . لقد كانت المذابح عند بدء القتال في ربيع ١٩٩٢ مجرد البداية . أما العملية أو البرنامج الذي مثل تطهير عرقيا بالضرورة فكان ينطوي على إعادة كتابة التاريخ البوسني كذلك .

في مدينة زفورنيك ، والتي كانت تضم قبل بدء الصراع غالبية مسلمة رغم متاخمتها لصربيا ، كانت السلطات الصربية تحب أن تتفاخر أمام المراسلين الزائرين بخططها لإعادة تسمية المدينة ، حيث يصرون على أن الاسم الصربي القديم كان زفورنيك ثم أضاف الأتراك حرف الراء . كما يقولون لك إن ذلك كان جزءا من الإبادة الثقافية التي ارتكبتها العثمانيون ضد الشعب الصربي ، والآن أمكن تصحيح الخطأ أخيرا . وإذا طرحت على المسؤولين من صرب البوسنة في المدينة أن المسلمين ، فوق كل اعتبار ، شكلوا الأغلبية في زفورنيك لفترة طويلة ، فإنهم عادة ما يردون بحقائق مضادة فيقولون إنه لو لم يكن كثير من الصرب قد قتلوا على يد الفاشيين في الحرب العالمية الثانية لظلت الأغلبية للصرب في زفورنيك . كما يضيفون أن الصرب كانوا

يمثلون الأغلبية قبل ١٩٣٩ . كانت تلك إحدى المجازات المألوفة في التفكير القومي الصربي . فحتى في مقاطعة كوسوفو الصربية حيث كان ٩٠٪ من السكان عام ١٩٤٤ من الألبان غالبا ما يبدي القوميون الصرب ملاحظة تقول -وكان تلك الملاحظة ذات مغزى كبير- أنه لم يكن هناك وجود ألباني في المنطقة قبل القرن الرابع عشر. ومقارنة بذلك فإن محاولة إلغاء شرعية مسلمي البوسنة تصبح مهمة أسهل بكثير.

قبل بدء القتال كان يوجد تقريبا ألف مسجد في بوسانسكا كراينا . وبحلول شتاء ١٩٩٤ بالتأكيد لم يكن هناك أكثر من مائة وربما أقل كثيرا . وحتى مسجد فراهبد الكبير، وهو ربما أجمل مثال على العمارة الإسلامية في البلقان في القرن السادس عشر، لم يسلم كذلك . فعلى مدى السنة الأولى من القتال كان يقف، غير بعيد من الميدان الرئيسي في المدينة، كآثر على كل من الماضي الإسلامي والحاضر المسلم لبانياالوكا . لقد تم تشويه جانب من واجهته بصليب مخدوش طبع على كل طرف فيه أربع حروف c (وهي حرف S في الأبجدية السيريلية) تمثل الشعار «الوحدة وحدها تنقذ الصرب» ولم يكن في ذلك شيء لافت للنظر. فقد كان أي مسكن لغير الصرب أو مساحة في متناول اليد على أي حائط في القرى والمدن التي استولى عليها التشتيك ملطخا بذلك الصليب الأرثوذكسي وتلك الحروف الأربعة مصحوبة غالبا بالحروف JNA (الجيش القومي اليوغسلافي) وعبرة تفاخر أو الأساء الأولى للجنود . لكن أحدا من معظم أهل بانياالوكا - الصرب وغير الصرب على السواء- أو الصحفيين الزائرين وعمال الإغاثة لم يكن يساوره قلق بشأن المسجد الكبير . فعلى عكس المسلمين أنفسهم بدا آمنا .

وخلال زيارة سايروس فانس وديفيد أوين لبانياالوكا في سبتمبر ١٩٩٢ كان رادوفان كارادزيتش يتفاخر علنا باستمرار وجود المسجد . فقد حيا مفاوضي الأمم المتحدة والمجتمع الأوروبي عند توقف موكب سياراتها في الميدان الرئيسي لبوسانسكا جراديسكا على الشاطئ الجنوبي لنهر سافا . وقال كارادزيتش، وهو يلوح بذراعه نحو برج كنيسة مجاورة: «كما ترون، هذه كنيسة كاثوليكية وهي لم تدمر مثل المسجد تماما . نحن نعيش جميعا في سلام هنا وفي كل أنحاء مناطق البوسنة الواقعة تحت

سيطرتنا وحيثما لا يهاجمنا المسلمون . إننا لا نستطيع العيش في بلد واحد مع المسلمين . أما إذا عاشوا معنا ولم يهاجمونا فلن نؤذيهم وسنحترم دينهم . وهو ما ينطبق أيضا على بانياالوكا» .

وفي بوسانسكا جراديسكا اتضح أن الكنيسة الكاثوليكية المذكورة كانت مغلقة بالمتراس وكان المسجد مفتوحا كما ذكرت . لكن كان خاليا ومشوه الجدران وكانت تسري نكتتان بين غير الصرب في ذلك الوقت في بانياالوكا . تقول الأولى «ما تعريف السلام الصربي؟» وتكون الإجابة : «صربيا الكبرى حتى المحيط الهادي» . وتساءل النكتة الثانية كيف يعرف المرء الفرق بين كنيسة كاثوليكية وأخرى أرثوذكسية ويكون الرد : «الأرثوذكسية هي التي مازالت قائمة» . ولكنني عندما سمعت النكتة للمرة الأولى لم يكن هناك شخص واحد ، فيمن أعرفهم على الأقل - أجنبي أو بوسني - يتصور أنه بعد ست شهور وفي أمسية واحدة وبعد تسوير الميدان الرئيسي ، ستقوم المقاتلات الصربية بنسف جميع المساجد الخمسة في شمال شرق مدينة بيلينا البوسنية (كان يمكن ألا يذاع سر الدمار لو لم يهرب جابي رادو مراسل ITN فيلما عما حدث) أو أنه بعد ست شهور أخرى سيتم تدمير مسجد بانياالوكا الرئيسي بالدynamيت . لقد رأينا كيف كانت الأمور سيئة في الريف ولكننا كنا نعزي أنفسنا بتصور أنه ، في مدن مثل بيلينا أو زفورينك أو بانياالوكا ، وهي الأماكن التي أخذتها القوات الصربية في الأيام الأولى من القتال ، أسوأ الأمور قد حدثت وانتهت . وفي النهاية ، ألم يحصل الصرب على كل شيء أرادوه؟ ألا يمثل استنزاف جهد القوات في عمليات اضطهاد السكان غير الصرب أو إضاعة المتفجرات في نسف الكنائس والمساجد من الناحية العسكرية عملا أخرقا طالما أن الحرب مازالت قائمة .

أو هكذا كنا نفكر على أية حال . وباسترجاع الأحداث ، فإن تدمير المساجد في بوسانسكا كرايينا كان شاهدا على سذاجتنا حين اعتقدنا أن عدم وجود سبب عملي لدى الصرب لفعل شيء يعني أنهم لن يقوموا بفعله . وأظن أن ما فات الكثيرين منا هو أن الصرب اعتبروا أنفسهم الجانب المجروح وأنهم يقومون بحرب دفاعية . . ففي مقابلة بعد أخرى يركز كارادزيتش على تلك النقطة بدرجات متفاوتة من اللباقة والبلاغة . كانت إحدى جملة المأثورة : «نحن الصرب ندافع فقط عن أنفسنا ضد

هجوم المسلمين» وفي تراجع واضح نجده يستخدم كلمة أهوال الحرب، فقد قال مرة «إنها الحرب الأهلية، فماذا تتوقعون؟» ليثبت أن الصرب والمسلمين لا يستطيعون العيش معا في البوسنة وأن ما يحاول الصرب في السواقع إنجازه هو في مصلحة المسلمين أيضا سواء أدركوا ذلك أم لم يدركوه .

والواقع أن هناك شك فيما إذا كان كارادزيتش نفسه يصدق أيا من ذلك . وفي محاولتنا لاستشفاف كنه ما يحدث في البوسنة فمن المهم ألا نأخذ ادعاءات القيادة الصربية بشكل سطحي . فعلى أية حال غالبا ما كانت الحروب تدور بسبب المال أكثر منها بسبب الأيديولوجيات . ولقد لعب كارادزيتش نفسه على إوتار سياسية عدة قبل أن يصبح قوميا صربيا ، بما في ذلك نشاطه لفترة قصيرة كأحد مؤسسي حركة الخضر في البوسنة . أما الرئيس الصربي سلوبودان ميلوسيفيتش ، وهو اقتصادي بالمهارة ، فقد قدم نفسه على أنه معاد للقومية ، وبرجاني تابع لتيتو قبل أن يختار اللعب بورقة القومية في صربيا . وعندما كان يلبس المسوح الأيديولوجي السابق فقد تمادى إلى درجة أنه استنكر مذكرة الأكاديمية الصربية للفنون والعلوم - التي اعتبرها كثيرون المخطط الأيديولوجي للقومية الصربية التي ستظهر في أواخر الثمانينات - على أنها مدمرة بصورة مرفوضة للوحدة اليوغسلافية .

من جانب آخر، بدا الجنرال ميلاديتش بالفعل خلال الحرب مقتنعا بأنه قومي صربي في الوقت الذي أظهر عدد محدود من المسؤولين في بالي بوضوح أنهم أعطوا إجازة لأحاسيسهم كلية . أما بيليانا بلافيتش والتي كانت بغير حد أغرب المجموعة فقد استقبلت مرة جوزيه ماريانا منديلوس ، رئيس المفوضية العليا لللاجئين في يوغسلافيا السابقة وهي تشكو من أن «الرضع الصرب يقدمون أحياء طعاما للحيوانات حديقة الحيوان في سرايفو» . قالت ذلك في اللحظة نفسها التي كان يجازف فيها حراس الحديقة بحياتهم للذهاب إلى الحديقة لإطعام الحيوانات ، وهو عمل بطولي بلا طائل ، حيث نفقت جميع الحيوانات أخيرا من الجوع . وحتى منديلوس ، رغم كونه دبلوماسيا محنكا ، لم يستطع حفظ اتزانة العقلي وصاح بلكته الإنجليزية الثقيلة «يا سيدة بلافيتش إذا كان البوسنيون يقدمون الصرب الأحياء طعاما للحيوانات الحديقة ، فلماذا تموت حيوانات الحديقة جوعا؟» .

ولقد كان هناك أناس مثل بيليانا بلافيتش بين الصرب العاديين، والذين كانت التصريحات الغربية من النوع الذي قالته لمنديلوس بالنسبة لهم هي العملة السائدة في التلفزيون الذي يشاهدونه والراديو الذي يستمعون إليه . ولكن كانت هناك أفكار أقل تطرفا تؤثر فيها يفعلونه، وبصفة خاصة فإن الصرب الذين أتوا من أماكن بعيدة مثل بلجراد أو نوفي ساد ليستقروا مع عائلاتهم في المنازل التي أجلي منها المسلمون والكروات في بانياالوكا أو بيلينا أو فوكا قد يكونوا قد أصيبوا بحمى القومية العرقية ولكنهم كانوا يحصلون على شيء مقابل لا شيء . وربما كان بإمكان كارادزيتش أن يدعي قبل ١٩٩٢ أن صرب البوسنة كانوا يسيطرون على ٦٠٪ من الأرض (قال مرة إن المسلمين يفضلون الاحتشاد في المدن فليس من طبعهم العمل في الأرض)، ولكن أرقامه ليست مشكوكا بها فحسب بل إن مناطق قليلة في البوسنة كانت للصرب وكانت معظم القرى والمدن مختلطة بعكس منطقة كرايينا في كرواتيا . وقد مثل التطهير الصربي، والذي كان استراتيجية عسكرية وهدفا لحرب قوات صرب البوسنة، سيلا لقلب ذلك . بهذا المعنى فإن حرب الصرب على البوسنة لم تكن حربا أهلية أو هيجانا فالتا لشعب أصابه الجنون بفعل الخوف والأيديولوجية بقدر ما كانت اغتصابا فظا للأرض وآلية سافرة لاستئثار جماعة بعينها بامتلاك الأرض، والترجح منها، ثم توريثها لأطفالها في النهاية .

إن محاولة البحث عن معنى لما كان يجري في البوسنة من خلال التحدث مع كارادزيتش، وهو درس تعلمته أخيرا الموجات المتلاحقة من مسؤولي الأمم المتحدة مدنيين وعسكريين والذين أرسلوا للتعامل معه، كان أمرا ميثوسا منه . فقد كان كارادزيتش كذابا ليس بمعنى أن جميع السياسيين يكذبون، بل بالمعنى الفصامي المشابه للحالات التي سبق أن عالجها في قسم العلاج النفسي بمستشفى كوسوفو سرايفو . وسواء تعلق الأمر بزعمه، قبل فرض حلف الناتو لمنطقة «حظر الطيران» فوق البوسنة والهرسك - بأن طيران جيش صرب البوسنة لا يقوم بأي غارات أو نقل للقوات، أو إنكاره أن القذائف الصربية التي تمطر سرايفو كانت من مواقعه - لقد قال مرارا وتكرارا: «إنهم المسلمون الذين يطلقون القذائف على أنفسهم . إنهم يأملون في كسب عطف العالم» - أو حتى الادعاء بأنه لا يوجد شيء اسمه التطهير

العراقي ، وهو تعبير أحياه كارادزيتش نفسه ، فقد بدا أنه ليس هناك حدود لما كان راغباً في الوصول إليه . ولم لا؟ فما تعلمه كارادزيتش والقادة الصرب الآخرون على مدى السنتين اللتين غزوا فيها البوسنة هو أنه مهما فعلوا فإن القوى العظمى والأمم المتحدة لم يكونوا سيحركون ساكناً لإيقافهم . وإذا كانت أفعالهم لن تنزل العقاب فوق رؤوسهم فلماذا تكون لكلماتهم أية نتائج؟

بل لقد قام فريق سينائي تابع لمحطة BBC كان يتابع كارادزيتش في صيف ١٩٩٢ بتسجيل حديث بينه وجنرال ميلاديتش وبيليانا بلافيتش عن شكواى الحماية الدولية بخصوص نشاط الصرب الجوي وكان المنظر سيرباليا : يبلغهم كارادزيتش بالاحتجاج فتقول بلافيتش ببساطة «لم تكن الطائرات في الجو» لكن حتى كارادزيتش لم يستسغ ذلك حيث قال لها بغضب «بالطبع كانت في الجو يا بيليانا ، كنا نظير كالمجانين ذلك اليوم» . أما رد فعل ميلاديتش فكان أن «ينفلقوا» وظهر وهو ينقر بأصابعه وغضبه يتزايد من المحادثة كلها . ومع ذلك ففي النهاية تقرر أن يقوم كارادزيتش بإعلام الأمم المتحدة بأن الطائرات كانت في الجو لأنه كان يوم الاحتفال بـ «يوم الطيران» الصربي . أما مسألة ما سيفعلونه إذا لم تقبل الأمم المتحدة هذا التفسير فلم ترد في الحديث مطلقاً .

وكان كارادزيتش وميلاديتش وبلافيتش على حق في افتراضهم أن على الأمم المتحدة أن تقبل أي تفسير يقدموه . ورغم أن ما حدث بعد ذلك أثبت أنهم كانوا مخطئين في نشاطهم الجوي - إذ تم فعلياً تطبيق قرار المناطق التي «يحظر فيها الطيران» - فإن ما وقع من أحداث فيما بعد ، سواء كان ذلك في بانيا لوكا عام ١٩٩٢ أو في سراييفو منذ البداية وحتى فبراير ١٩٩٤ أو في جيب غوراجده بعد ذلك بشهرين ، أثبت صواب رأيهم في الاعتماد على إمكان التصرف في حصانة ويقولون ما يريدون .

بعد أن سقطت قذيفتنا مورتار بجوار مخبز مركزي في وسط سراييفو في أغسطس ١٩٩٢ ، وقتلت ستة عشرة فرداً وجرحت كثيرين ، آخرين أسرع كارادزيتش بإصدار بيان ادعى فيه أن الحكومة البوسنية زرعت ألغاماً أرضية تحت الموقع . ولم يكن مهما واقع أن اللغم يترك حفرة في الأرض أما المورتار فيحدث ذلك الرش المميز والذي

يشبه حفر مغالب حيوان . وكان يمكن لضغط من قوة عظمى أن يجعل كارادزيتش يغير قصته ولو بوضع اللوم على عنصر مجرم داخل جيش صرب البوسنة أو التعويل على حقيقة أن- وكما اعترف مرة بأنه ربما أن «حالات اغتصاب قليلة قد حدثت-» «كل حرب تنتج قليلا من المرضى النفسيين» . وعلى أي حال والأمور علي ماهي عليه فلم يكن الصرب يخافون أيا من أحاديث المراسلين الأجانب أو التائب الواهن من الأمم المتحدة . بل إن الأمم المتحدة تصرفت في حالات عدة كحليف للصرب ، والحالة الأشهر في هذا الصدد هي حالة مذبحه المخبز المركزي نفسه حيث فشل كثير من مسؤولي قوة الحماية هناك في استنكار مزاعم كارادزيتش حول المتسبب في الحادث في بادئ الأمر .

فقد أصر قائدها الكندي ، اللواء لويس ماكينزي في ذلك الوقت ، ثم في مذكراته «حفظ السلام» على وجهة نظره من أنه من المستحيل معرفة أي الجانبين ملام أو حتى معرفة ما إذا كان الدمار نتيجة نيران المورتار كما ادعى البوسنيون ، أو من المتفجرات ، كما ادعى الصربيون .

ومع ذلك «فالمشر من المورتار» المميز تماما كان وسيظل هناك ليشاهده أي شخص . على أن الأمر تعلق في النهاية بمعرفة قادة الصرب أن الحرب الدعائية الوحيدة التي عليهم أن يكسبوها ، طالما كان المجتمع العالمي في سباته ، كانت في صفوف شعبهم هم . وقد كانوا في هذا ناجحين بصورة مذهلة . فخلال سفرك داخل الأراضي التي يحتلها صرب البوسنة كان من الشائع أن تقابل صربا تزعمهم الحرب ومرتبين من الطريقة التي مزقت بها البوسنة . ولكن كان من المستحيل أن تجد بينهم شخصا يصدق أن الجانب الصربي هو الذي بدأ الصراع أو أن الصرب لم يكونوا هم الضحايا الذين أسىء فهمهم . كان الصرب العاديون يتكلمون بحيرة حقيقية من موقف القوى الغربية . أخبرتني مدرسة ثانوي في إليرزا -ضاحية من سرايفو- خلال صيف ١٩٩٣ والدموع تنهمر من عينيها : «تعودت أن أحب أمريكا . ولفترة قلت لنفسي إنكم الأمريكان كنتم مخدوعين ، ولكني الآن أدرك أنكم جميعا أعداؤنا وأن علي أن أتعلم التفكير فيكم بهذا الوضع- رغم أنني لا أريد ذلك . إنني أرى ما تكتبونه عنا ، تلك الأكاذيب ، ولا أفهم» .

سألتها: إذا كان الصرب هم الضحايا الحقيقيين في الحرب، فلماذا يواصلون قصف سرايفو بلا رحمة ولماذا يتحتم على أطفال سرايفو أن يموتوا على أيدي القناصة الصرب. فتنهدت وهزت رأسها مستنكرة في رقة وقالت: «إذا كنا نقصف المدينة، فذلك فقط لأن المسلمين يصوبون علينا أولاً، أليس لنا الحق في الدفاع عن أنفسنا؟ ألا تعتقد أن لكل آدمي الحق في ذلك حتى نحن الصرب الأشرار؟ إنني متأكدة أنه إذا أوقفوا نيرانهم فسنوقفها نحن فوراً كذلك. لا أحد يريد الحرب».

فسألت وذكريات الأطفال المقعدين في جناح الأطفال في مستشفى كوسيفو تتواتر مرعبة وعفوية في ذهني: «ونيران القناصة».

فنظرت إلي في برود وقالت: «أعتقد أنك مضلل. القنص هو سلاح الجناء. والصرب لا يستطيعون أن يتصرفوا بهذه الطريقة المشينة. إنني من سرايفو وقد ألقيت خارج بيتي على يد المسلمين وكثير من الجنود جاءوا من هناك كذلك. وهم لا يقتلون الأطفال. وإذا كان الأطفال يقتلون فذلك لأن المسلمين يفعلون ذلك لإلقاء اللوم على الشعب الصربي».

إن أي شخص قضى بعض الوقت في قلب سرايفو، حيث يستطيع القناصة رؤية والتقاط ضحاياهم وحيث كان مجرد الوقوف في الشباك، طوال الحصار، مغامرة بحياتك، سيميل إلي الشك في صحة قواها العقلية. ولكن إخلاصها لم يكن محل تساؤل ولعله لا يجب أن يكون محل استغراب، فالمعلومات الوحيدة عن الحرب التي تلقتها هذه المرأة ولأكثر من عام، ماعدا ما جاء خلال المقابلات بالمصادفة مع الصحفيين الأجانب وعمال الإغاثة والذي أسقطتهم من حسابها كموالين للمسلمين، كانت فقط ما يث كل ليلة على شاشات تلفزيون صرب البوسنة والملياع. والمصدر الوحيد الآخر هو ما اختار أن يقوله لها المحاربون العائدون من الجبهة. وهذا لا يعني أن المحاربين أنفسهم لم تكن لديهم شطحات مماثلة من الإيمان والخيال. فعلى دشمة محاطة بأكياس الرمل علي تل فوق سرايفو، في مكان لا يبعد كثيراً عن الأرض المشاع لمقبرة اليهود في المدينة، قال لي محارب صربي ملتج: «قبل أن ينتهي هذا الصيف سنكون قد طردنا جيش الأتراك من المدينة مثلما طردونا من ميدان القتال في كوسوفو عام ١٣٨٩ والذي كان بداية هيمنة الأتراك على أرضنا. ستكون

تلك نهاية الأمر بعد تلك القرون القاسية» .

وبالمقارنة برفاقه الذين قابلتهم - كانت أذواقهم تميل إلى صور فتيات الجدران على طراز بنتهاوس وصور القديسة سافا وهي القديسة الراحلة لصرب البوسنة - كان هذا الرجل مثقفا، فمثل المرأة التي قابلتها في إلبدزا، كان أيضا مدرسا بالثانوي في ضاحية لسرايفو. وفي وقت لاحق من تلك الأمسية سألني رأيي في روايات جون أباديك. ولكن عندما كان هذا الرجل يطل على مدينة سرايفو، والتي ظل يطلق عليها نيران مدفعه من عيار خمسين ملليمتر لمدة عام تقريبا، فإنه لم ير ما كانت تعد يوما مدينة غنية بالمعايير الغربية، مدينة الروك أند رول البلقانية، بل رأى موقعا لمعسكرات الجيش التركي الذي احتل البلقان في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ولعله علم في مكان ما أن الناس الذين كان يطلق عليهم النار كانوا مدنيين - بعد عام من الحصار كان بين القتلى ٣٥٠٠ طفل - ولكنه في خياله لم يكن يرى أي أحد في ذلك المنخفض الحضري غير الغزاة المسلمين. ولم تكن مهمته قتلهم فالإنسان لا يستطيع قتل الغزاة، إنه يدافع عن نفسه ضدهم، إنه يصدهم. كان يتفاخر قائلا: «إننا نحن الصرب ننقذ أوروبا، حتى إذا كانت أوروبا لا تقدر صنيعنا وحتى لو كانت تلعه» .

كان ملك بولندي قد أنقذ فيينا عندما كانت الجيوش العثمانية على وشك الاستيلاء عليها في القرن السابع عشر. والآن يتحدث هذا المحارب من صرب البوسنة بفخر عن كيف أنه تعين على الصربيين أن يضحو بأنفسهم في سبيل قضية أوروبا، في حرب القارة القديمة الدائمة ضد الإسلام والأتراك. عندئذ وعندئذ فقط يكون هناك سلام. قال لي في ضجر: «ولكن عليك أن تفهم أن اللغة الوحيدة التي يفهمها الأتراك هي منطق القوة. لقد تعود الأوروبيون على فهم ذلك. تعودوا على فهم ما نواجهه وطالما واجهناه هنا في البلقان. لقد ساعدت فرنسا الصرب عام ١٩١١ و١٩١٥ وهناك تمثال للفرنسيين بعد الحرب أقيم عرفانا من شعب بلجراد. كما كانت الولايات المتحدة وصربيا حلفاء في حريين عالميتين. لست أدري كيف نسيتم ما فهمه أجدادكم جيدا، ولكن لا يهم. فعلينا أن نقاتل» .

سألته هل كان يعتقد دائما في صربيا الكبرى، فأجاب «لا. قبل أن تبدأ الحرب

ظننت أننا نستطيع جميعا العيش معا في سلام هنا في البوسنة . فقد كان لي أصدقاء مسلمين وبالطبع كثير من التلاميذ . وحتى بعد انتهاء الشيوعية ظننت أن الأمور على مايرام . إن الأتراك منافقون وماكرون . كان عزت بيجوفيتش يقول شيئا على التلفاز ولكن عندما يتحدث مع أعضاء حزبه يتكلم عن بناء دولة إسلامية هنا في البوسنة . ابحث عنهم أو ابحث في مجلة حزبهم SDA . إنني متأكد من وجود نسخ في سرايفو - ستجد قصصا عن بناء مساجد في كل أنحاء البوسنة ، في المدن الصربية . وفي مؤتمر حزبهم عام ١٩٩١ أقسم عزت بيجوفيتش أن يستعيد للبوسنة هويتها المسلمة «الحقيقية» . فماذا كنت تتوقع أن يفعل الصرب؟

هل نسمح لعزت بيجوفيتش وسيلادزيتش أن يقيما مسجدا في ردهة قاعة البرلمان؟ لقد حاولنا أن نعيش في سلام معهم ولكن في نهاية الأمر أدركنا أن علينا أن نقاتل . ومع هذه الكلمة الأخيرة أومأ رأسه مؤيدا ثم أومأ ثانية عندما بدأ أحد رفاقه في الموقع المجاور في إطلاق سيل متواصل من النيران على سرايفو .

وعندما تحدث المدرس عن الصرب الذين بقوا في سرايفو ، والذين ظلت غالبيتهم العظمى موالية لحكومة عزت بيجوفيتش ، كان يتكلم عنهم على أساس أنهم خمسين ألف رهينة صربية حجزوا من قبل المسلمين ، رغم إرادتهم . قال لي «إنهم كانوا سيغادرون لو كان ذلك بإمكانهم» . وحتى في ذلك الوقت ، أي في صيف ١٩٩٣ كان محقا ولكن ليس للأسباب التي تصورها . فحتى ذلك الوقت كانت غالبية أهل سرايفو سيهربون من المدينة لو استطاعوا . ولكن الحقيقة تكمن في أن أحدا لم يرد أن يدع الناس يخرجون : لا الصرب المحاصرين ، ولا الأمم المتحدة ، التي كانت وجهة نظرها أن الاتفاقية التي وقعت مع الصرب لفتح مطار سرايفو تجبرها على منع البوسنيين من الهرب عبر مدرج المطار خلف الأراضي التي يحتلها صرب البوسنة ، ولا حتى الحكومة البوسنية نفسها والتي أحست أنها لا تستطيع أن تخسر أي أناس آخرين . أما بالنسبة للمدرس فإن اعتقاده أن إخوانه الصرب كانوا محجوزين رغم إرادتهم جعله يتصور أنه ليس فقط محارب مسيحي ، بل ومرة أخرى ، على أنه ضحية . فإذا كان يصوب نيرانه على سرايفو فإنها ليمنع المسلمين من أن يفعلوا بصرب بالي والإدزا مثل ما فعلوه أو خططوا لعمله مع الصرب الذين

يحبزونهم في العاصمة .

هذا الإحساس بكونهم الفريق المتضرر ساعد على تفسير إحدى تجارب الحياة البسيطة والأكثر غرابة في سرايفو. فقد كانت العادة، عندما كانت الهواتف تعمل، أن يقوم الصرب في التلال من وقت لآخر بالاتصال بأصدقائهم المسلمين والكروات في المدينة. وكانوا على الخط الآخر مصدومين من ذلك وبخاصة عندما انضج أن أولئك المتكلمين لم يكونوا خجلين مطلقا مما كانوا يفعلونه وأنهم لم يتصلوا للاعتذار أو لشرح وضعهم، بل كانوا مهتمين وعلى أساس شخصي صرف بأحوال أصدقائهم المسلمين ومتلهفين للاتصال بالأشخاص الذين افترقوا عنهم. وكما قالها صديق لي: «إنني قد أفهم أن يطلق زملاء المدرسة القدامى الرصاص علي ولكن كيف واثت «فلاذو» الجراءة أن يتصل بالهاتف لمجرد أن يقول (هالو)؟ إنني لم أستطع أن أصدق. إنه يبدو وكأنه لا مسؤولية عليه مطلقا فيما يحدث. لقد سألتني عن عائلتي بل إنه سألتني ما إذا كنت أتذكر إجازة قضيناها جميعا على الساحل في أوائل الثمانينات. لقد كان الأمر غاية في الغرابة».

لكن ما كان لا يدخل عقل أهل سرايفو تحت الحصار كان متبهي التعقل من وجهة نظر صرب البوسنة. فلم يكن لدى الصرب ما يعتذرون عنه. فإذا كانوا البادئين في المحادثات الهاتفية فلأن الاتصال بسرايفو أسهل من الاتصال بخارجها أما حقيقة أن أحد الأهداف الأولى لمحاربي الصرب كان مبنى شركة الهواتف وقطع هواتف معظم الناس فوراً فلا أحد يذكرها. إن المسلمين هم الذين جلبوا ما يحدث على أنفسهم، وبينما قد يحس الفرد الصربي بالأسى على صديقه المسلم، فإن هذا الأسى لم يفعل شيئا ليغير من اقتناعه، كمجموع، بأن مسلمي سرايفو كانوا يواجهون قدرهم. ولقد بدا أن الصرب الذين تكلمت معهم والذين قاموا من وقت لآخر بالاتصالات الهاتفية كانوا يشعرون بأنهم هم الذين يتنازلون عن الكثير بالبدء في المحادثة حيث حاولوا بشهامة أن يتناسوا الوضع الحالي وبشكل ما يسترجعون العلاقات الشخصية كما كانوا قبل بدء الحصار.

كان فهم هذه المفاهيم المشوهة أسهل على الأقل في سرايفو، حيث لم تكن لدى الأصدقاء السابقين فرصة مواجهة بعضهم لبعض منذ بدء القتال، منها في مكان

على ثمار الاغتصاب للنهاية (حيث إن مضامين تلك الخطوات الأخيرة واضحة فبعكس اليهود فإن امتداد العرق للأب أمر محسوم لدى كل من الصرب والمسلمين) أو أن العدد كان «فقط» خمس عشرة ألفاً؟ وهل كانت هناك عشرات من المعسكرات السرية حيث يذبح المسلمون أو دستة «فقط»؟ أما المذبحة الجماعية فلم تكن محل تساؤل وكذلك الأعمال الوحشية وعندما قيل إن لاجئاً مسلماً من بوسانسكي بتروفاك أخبر أحد الضباط العاملين في الإغاثة أن أسريه من الصرب أجبروه على «عض» عضو الذكورة لأحد رفاقه اللاجئين بأسنانه فقد كان أول رد فعل لي - وكل من أعرفهم - هو تكذيب الخبر. وبعد ذلك أرسل الضابط الذي أخذ شهادة الرجل برقية بأنه يقسم بشرف مهنته على صحة أقوال الرجل.

إن قليلاً من التأمل لما سبق سيؤدي بنا إلى أن مثل تلك الأعمال الوحشية ليست سوى إحدى النتائج المنطقية للتطهير العرقي. فإذا ما ظللت تكرر على شاشة التلفاز والمذيع وفي كل خطاب إلى قواتك، كما فعل الصرب، أن العدو ليس بشراً، وأنتك قدكون نشأت مع ذلك الشخص وقد تظن أنك تعرفه ولكنك في الحقيقة لا تعرفه، أي أنك باختصار، تواجه شيطانا، عندئذ تكون النتائج محتومة سلفاً.

فالمسألة لم تعد تتمثل في هل سيكون هناك قتل، بل إلى أي مدى ستستمر إراقة الدماء. ليس فقط القتل بل البتر كذلك، فالمسلمون يختونون أما الصرب فلا وتكون أسهل وسيلة على المقاتلين الصرب لمعرفة ما إذا كان السجين الذي أخذوه مسلماً هو أن ينزل سرواله. ومن هناك لن تبقى غالباً سوى خطوة قصيرة، نفسياً، لكي تقطع عضوه. وذلك أيضاً كان متوقعا. فمن الأرمينيين إلى اليهود وحتى مسلمي البوسنة لم تكن هناك حملة تطهير عرقي خلعت من السادية الجنسية.

وكما تصرف أولئك الذين قاموا بالتطهير العرقي بثبات وكأن الأعمال الوحشية التي ارتكبوها لها ما يبررها، كذلك لم يكن الدعاويون فقط هم الذين يصرون على أن المسلمين أقل من البشر. فقد أوضحت البراءة المحزونة التي أبداها بصدق المقاتلون الأفراد بوجه عام أنهم يشعرون أنهم هم ضحايا الحرب الحقيقيين، وليس من كانوا يقتلون أو يخرجون من ديارهم. ومثل الضحايا في كل مكان، كانوا متعاطشين لما كانوا يسمونه عادة بالعدالة ولكنهم كانوا أحيانا راغبين في تصنيفه كإنتقام. وعندما

استحوذت قوات الصرب على الأراضي والبيوت وحيوانات المزارع التي أخذوها ، كانوا يحرقون البيوت ويذبحون الثروة الحيوانية رغم أنهم يدركون بوضوح أن أفعالهم تلك جعلت من المحال على مواطنيهم الصرب أن يبدأوا بالزراعة . ولكنهم اعتقدوا أن الثمن لابد أن يدفع ، فإلي هذا الحد كان شعورهم ثابتاً بأن الصرب هم الطرف المتضرر.

ولا مجال للدهشة إزاء هذا الافتقار للحساب الاقتصادي في «حرب القرى» تلك أو للدهشة من تدمير المكتبة الوطنية في سرايفو والتي لم تكن لها قيمة عسكرية بل كان تدميرها مستهدفاً بشكل خاص من قبل المسلحين من صرب البوسنة المتمركزين في التلال فوق المدينة أثناء الأيام الأولى . إن الدهشة وتصور أنه كان هناك خطأ ما يعني عدم إدراك المغزى تماماً . تماماً كما أن الدهشة من سبب تحويل هتلر للمخزون اللازم لإعادة تموين قواته على الجبهة الشرقية من أجل نقل اليهود إلى معسكرات الاعتقال تعني عدم فهم المغزى من المشروع النازي . لقد تم القيام بالتطهير العرقي لإزالة الوجود المسلم من معظم أراضي البوسنة . كان المااضي المسلم وكذلك الحاضر بسكانه المختلطين عرقياً في المدينة هو المستهدف في سرايفو . وفي الواقع ، من الصعب القول أي هدف منها هو الأكثر أهمية . كان من اللازم إراحة الصرب في سرايفو من عبء مدرسة الدراسات الشرقية ومن المكتبة الوطنية ومن مساجد العاصمة الكبيرة . لم يكن الصرب يستطيعون العيش مع وجود تلك الآثار الضاغطة . وإذا ما قتل أو جرح أفراد من الصرب في المدينة أو حتى ضربت بعض الآثار الأرثوذكسية مثل الكاتدرائية القائمة في شارع فازوميسكينا فهذا هو ما يحدث في الحرب . لقد بذل مسلحو الصرب كل ما في وسعهم ، فعلى مدى عامين من الحصار لم تصب مرة واحدة المقبرة الصغيرة في سرايفو حيث يرقد جافريلو برنسيب ورفاقه في حركة بوسنة الصغيرة على الرغم من أنه تم نسف جميع الأهداف حولها . ولكن إذا دعت الضرورة يستهدف الضرب أهدافهم هم دون وخز من الضمير.

وفي القرى كانت العمليات الحربية الجذرية مصحوبة غالباً بعمليات معرفية جذرية مساوية . فبعد ظهر يوم قال لي مقاتل صربي في بانايالوكا «لقد حررنا رادوفاك» . كنا في صالة حمام سباحة في مركز شباب المدينة نحاول التخاطب بألمانية

ركيكة - وهي عملية زاد من صعوبتها صخب موسيقى u2 في الخلفية . كان هذا في حد ذاته مدعاة للسخرية . كانت الفرقة الإيرلندية معروفة بمساندتها العاطفية لجانب الحكومة البوسنية . ولكن ذلك فعل القليل لكبح الجنود الصرب الذين كنت أشرب معهم عن تشغيل أشرطة موسيقا u2 . وقد يتسلى منظرو موسيقى الروك من الغربيين الراديكاليين بالوهم القائل إن الموسيقى الشعبية إباحية ومفسدة بطبيعتها ، ولكن في بانياالوكا كان الشباب قادرا على التمييز بين ذوقهم في الموسيقى وسياستهم . كان زلزال الشباب العالمي هو زلزال الشباب العالمي ، وكانت الحرب هي الحرب ولم يتدخل أي منها في طريق الآخر . لم يكن يسهل التمييز بين المقاتل الصربي الشاب الواقف في ملاسه الشبابية المدنية يترنح مع الموسيقى محاولا أن يستكمل المحادثة معي وهو يواصل تطويق فخذ حبيبته وأي مراهق أخرق من سان فرانسيسكو حتى بريمين . ولكن التزامه بالموضة العالمية لم يثبط اعتقادا فيه أن من واجبه كصربي أن يقتل وأن يغامر بموته في شمال البوسنة هذا الموسم .

كرر ثانية وهو يجار بصوته ، ظنا منه أنني لم أسمع في المرة الأولى «لقد حررنا رادوفاك» ورفع سبابته للأعلى فأومأت له فصاح «لقد كان قتالا صعبا ولكننا استعدناها» . ثم عرفت فيما بعد من أحد ضابط الإغاثة في بانياالوكا ويدعى بير أولبير - أحد الرجال الشجعان الكثيرين الذين قابلتهم في البوسنة وقد لقي مصرعه في الحرب - أن رادوفاك كانت دائما قرية مسلمة بالكامل . وحيث إن المقاتل الصربي من المنطقة فلا بد أنه يعرف الحقيقة كما أبدى أولبير وهو يهز كتفه ، ورغم ذلك فبالنسبة للصربي فإن هذه الاعتبارات ثانوية فمسلما رادوفاك لم ولن يستطيعوا أن يكونوا سكان القرية الحقيقيين . فمهما طالت إقامتهم فلن تكون طويلة بما يكفي حسب تفسير الصرب للتاريخ . كان ذلك شكلا آخر للقصة نفسها في كل مرة يهاجم الصرب مكانا ما . فإذا كانت المنطقة محل النقاش غير مليئة بالصرب الذين يضطهدهم أو يقتلهم المسلمون فإن الصرب يحاولون فقط حماية المناطق الصربية في المنطقة . بهذا كان كارادزيتش يرر قصف سرايفو طوال الحرب عندما أصر بوجهه مكشوف أنه ليس هناك حصار فالقوات الصربية فقط تحاول أن تحمي الصرب الذين تصادف أن يعيشوا في جميع الضواحي حول المدينة . لقد قال كارادزيتش الشيء نفسه

تقريبا عندما أصبحت غوراجدة هدفا رئيسيا في أبريل ١٩٩٤ . وعندما لا تصلح أي من هذه الادعاءات يرجع الصرب إلى التاريخ ويصرون على أن المنطقة محل النقاش كانت يوما ما صربية إلى أن قلبت مذبحه مسلمة أو كرواتية مستقبها الديمغرافي السليم . وراذفاك مثال على هذا الأسلوب الأخير . فالمسلمون متطفلون وبداية لم يكن لهم أن يعيشوا في القرية .

كانت قوات صرب البوسنة ترسم تكتيكها حسب نوع المنطقة التي يحاربون فيها . ففرض الحصار حول سرايفو كان أحد الأساليب ، أما في قرى البوسنة المختلطة عرقيا فلن يتمكن المقاتلون من تنفيذ التطهير العرقي بنجاح بأنفسهم . فقد كان عليهم تحويل موقف الصرب المحليين الذين كانوا مترددين في المشاركة في القتال أو الذين عارضوا بصراحة في المشاركة في الجريمة . كان الدافع الطبيعي لحفظ النفس هو أكبر حليف للمقاتلين بشرط أن يستطيعوا استجماع الصرامة اللازمة . وكانت إحدى السبل المستخدمة أن تدخل مجموعة من المقاتلين الصرب منزلا صربيا وتأمر الرجل القاطن فيه أن يذهب معهم إلى منزل جاره المسلم . وعلى مرأى من القرويين الآخرين ، يساق إلى هناك ويستدعى المسلم للخارج ويعطى الصربي بندقية كلاشنكوف أو سكيما - السكاكين أفضل - ويؤمر بقتل المسلم . فإذا فعل فقد اتخذ الخطوة اللازمة لعبور الخط الذي يهدف إليه التشتيت . أما إذا رفض ، كما فعل كثيرون ، فالحل بسيط . أن يتم قتله على الفور . ثم تكرر العملية مع الصربي صاحب المنزل التالي وإذا رفض يقتل برصاصة . ونادرا ما كان يضطر التشتيت لقتل صربي ثالث . وكما أخبرني مقاتل في بوسانسكا كروبا ، ولشدة دهشتي ، في طرب متباهيا بهذا التكتيك «عند البيت الثالث يرتعدون هلعاً ويسألونك أنى تريد إصابة المسلم وكم مرة» .

لكن في معظم الأماكن لم يكن يكفي هذا الصنف من الرعب البدائي ، فالمطلوب كان شيئا أكثر من التقتيل وإشراك الناس في الجريمة ، وهو بث الخوف الشديد . ومنذ البداية ، كان الخوف كامنا في صميم كارثة البوسنة . فقد كان الخوف على المستقبل والذي بثه انهيار الاقتصاد اليوغسلافي في أواخر الثمانينيات في قلوب الناس العاديين سببا في أن يفقد كل شخص الثقة في الآخرين ، وبدا أن الأفكار الرجعية

حول الهوية هي وحدها الملاذ من هذا الخوف . فلم يكن الأمر مقتصرًا على واقع أن الناس أحسوا أنهم كانوا صربًا أو كروات أو مسلمين قبل ذلك - أو أن شعار تيتو «الأخوة والوحدة» كان فقط نفاقًا مفروضًا - بل تمثل بالأحرى في أن إفلاس فكرة الوطن اليوغسلافي الواحد أو بمعنى أدق، ذبحه على أيدي القادة السياسيين من أمثال سلوبودان ميلوسيفيتش، هو الذي بعث مثل تلك الطاقة الجديدة في مشاعر القومية القديمة والشكاوى القومية . فلم تكن القومية العرقية أكثر حتمية في يوغسلافيا السابقة مما كانت الهتلرية حتمية في ألمانيا في الثلاثينيات، كانت أحد الاحتمالات - كانت حتمية فقط بمعنى أن كل شيء يحدث فهو حتمي من منظور الإدراك متأخر.

بعد سنة من الحرب، ربما كان باستطاعة المقاتل الصربي الشاب أن يفصح عن هويته على هذا النحو . ولكن عندما سألته عما إذا كان قبل بدء القتال يفكر على النحو الذي يفكر به الآن ابتسم وهز رأسه : «لا» ثم قال في تعجب : «كان لي أصدقاء مسلمون كثيرون . فالشاب الذي يملك هذا المكان مسلم، حسنًا أعني الشخص الذي كان يملكه . إنه يعمل لدى الأمم المتحدة هنا في بانيلوكا . أحيانًا أقول له : فرانزي، اخرج هذه البذاة من هنا . كان شخصًا جيدًا من قبل . إنك ترى أن المكان لطيف . وعندما أتيت إلي هنا لم أعتقد مطلقًا أن مسلمًا يمتلكه . كنا أصدقاء»، وأربد وجهه وهو يقول «ولكني لم أفهم أشياء كثيرة في ذلك الوقت . لقد ظننت أن المسلمين علي مايرام . كنت أحد الصرب السذج السفلة . كما تعلم إنكم تقولون أيها الأجانب أننا قتلة، وهذا افتراء . لكنني أقول لك إننا حفنة من البلهاء الواثقين في الآخرين . فقد وثقنا في الأمريكان والأوروبيين ووثقنا في المسلمين كذلك، والآن نجد لزامًا علينا أن نقاتل» وخفت صوته وقال «إنه أمر فظيع» .

كان بالطبع يعني أن ماحدث للصرب هو الأمر الفظيع . فلم يكن لديه تعاطف يضيئه على المسلمين أو الكروات، رغم أنه قال لي بالفعل أنه سيدرك الكروات يوما أن الصرب كانوا علي حق مع المسلمين . ولكن مابعث فيه الحيوية كان الخوف، وما جعله قادرًا على احترام نفسه كان الاعتقاد بأن كل شيء قام به كان دفاعًا عن النفس . لقد تكلم الغرباء ومثقفو البلقان، بخصوص هذا الموضوع، كثيرًا عن نزعة

بلقانية متأصلة إلى العنف . ورغم كل هذا الكلام الفضفاض ، لم تكن البوسنة في الماضي مكانا عنيفا بشكل خاص - على الأقل بالمعايير العنيفة للتاريخ الأوروبي . كان القرن العشرون استثناء مأساويا ولكنه لم يختلف في البوسنة عن بولندا والناس لا يضمرون بالتساوي الخيالات المتطرفة عن الشخصية القومية البولندية . ورغم ذلك فإن القليل من الأفكار أو الولاءات ينقرض على مدى جيل أو جيلين . والقومية العرقية هي واحدة من تلك الأفكار ، وقد انتصرت في البوسنة عام ١٩٩٤ . وكانت الفكرة الأخرى هي التعددية الثقافية في سرايفو - وهي فكرة استمرت على الأقل منذ الفترة التي أصبحت فيها المدينة ملجأ لليهود والسفارديم . لكنها قتلت في البوسنة في ذلك العام نفسه .

ولا يعني هذا أن انتصار القوميين العرقي كان حتميا . فقد كسبوا في صربيا بسبب ما فعلوه وبسبب ما لم يفعله الآخرون - وبخاصة في الغرب - وليس لأن التاريخ كان إلى جانبهم . كسبوا لأن سلوبودان ميلوسوفيتش كان بكل المقاييس أقوى سياسي في يوغسلافيا السابقة ولأن فكرة صربيا الكبرى كانت متأسكة بصورة جعلت فكرة دولة البوسنة لا تنجح في التبلور ولأن الجنرال ميلاديتش كان يملك مائة آلية ثقيلة مقابل كل واحدة لدى الجانب البوسني . كذلك كسب صرب البوسنة لأنهم عرفوا كيف يستغلون المخاوف والشكاوى القديمة ويعيدون تجميعها وأن يجعلوا الصرب اللطفاء ، وهم أناس من جماعة قومية ليس لديهم نزوع متأصل للجريمة أكثر من أي جماعة قومية أخرى . يرتكبون الإبادة الجماعية . ثم كان هناك ذلك الخوف الصربي المريع . وكما حذر هربرت أوكسون ، وهو دبلوماسي أمريكي أصبح نائبا لسايروس فانس في كل من مفاوضات السلام الكرواتية والبوسنية ، رادوفان كارادزيتش قبل بدء القتال قائلا "إذا استمرتم في الكلام عن الخوف من الموت الذي يحيق بالصرب في البوسنة فستنتهون إلى ارتكاب مذبحه جماعية وقائية" .

وبمجرد أن بدأت تلك المذبحة الجماعية كان لابد من تغذية الخوف . ولو لم تبدل قيادة صرب البوسنة جهدا خاصا في الدعاية فقد كان يحتمل على الأقل أن يكون الصرب العاديين أقل حرصا على الاستمرار في جولات أكثر من التقتيل والطرء ، بعد أن هزموا قوات الحكومة البوسنية واستولوا على الأراضي التي لقنوا أن يشتهوا تملكها في

الشهور الستة الأولى من القتال . ، لكن إذا ما ظل كل مسلم حي مصدر تهديد فلا بد إذن أن يستمر التطهير العرقي . إن ما بدأ على هيئة تكتيك للمذبحة ورعب محض في القرى تطور خلال ستة شهور إلى منهج مدرّس لدمار شعب . ففي شمال البوسنة ، عام ١٩٩٢ ، تم تقسيم الرجال المسلمين الذين أخذوا سواء أثناء الحرب أو أثناء فترة التطهير العرقي إلى ثلاث مجموعات . فالمهنيون والوجهاء المحليون والشباب القادرون جسدياً كانوا يفصلون وحدهم عادة ويقتلون على يد مقاتلي الصرب الذين اعتقدوا أنهم ينتقمون لأعمال المسلمين الوحشية التي كانت السلعة الرائجة في تقارير المذيع والتلفاز . فأنت إذا قيل لك مراراً وتكراراً أن رفاقك يخلصون ويشيرون أحياء على النار المضرة ويغرقون في دمائهم ، وليست لديك مصادر أخرى للمعلومات تعرف منها قصة مختلفة ، فإن النتيجة المحتملة أنه لن يمر وقت طويل حتى ترد الصاع صاعين .

ومن جانبهم ، لم يكن قادة الصرب يتصرفون عن رغبة محضة في الدماء . فعندما يأمرهم بدمار أكبر عدد ممكن من المسلمين المثقفين ، فإنهم كانوا يريدون أن يضمّنوا أنه مهما حدث فإن أية دولة بوسنية مستقلة ستكون بقدر المستطاع تكلّي من الرجال الذين يمكنهم أن يجعلوها تعمل بكفاءة . ويمكن استنتاج نجاح تلك الحملة - والتي أسماها الصحفي البريطاني مايكل نيكلسون «إبادة النخبة» - من حقيقة أنه بصرف النظر عن آلاف قليلة من اللاجئين من الطبقة المتوسطة الذين اتخذوا طريقاً إلى زغرب والعدد القليل الذي ذهب إلى المناطق التي تسيطر عليها الحكومة البوسنية فإن فئات المهنيين المسلمين في بوسانسكا كرايينا قد اختفوا عن بكرة أبيهم ، والذين لم يقتلوا في تلك المفزعة المهلكة كانوا يقسمون إلى مجموعتين . فالأولى ، التي لم يكن الصرب قد اتخذوا فيها قراراً بعد ، كانوا يحجزون في ذلك الوقت في ما كان يعرف بـ «معسكرات الاستخبارات» ثم يقتل بعضهم بعد ذلك ويفرج عن الآخرين . وأما المجموعة المتبقية والتي يتكون معظمها من الفلاحين وأهل المدن الفقراء فيتقرر الإفراج عنهم منذ البداية ويوطنون فيما كان يسميه الصرب أحياناً «المراكز المفتوحة» والتي كانت عملياً عبارة عن معسكرات يسمح لممثلي اللجنة العليا للصليب الأحمر بزيارتها . وفي تلك المعسكرات بدا أن القليل من المقاومين المسلمين الباقين قد

استسلموا لفكرة أنهم سيغادرون البوسنة للأبد . وبعيدا عن تشكيل طابور خامس محتمل ، مثلما تصور الصرب ، فإن المساجين الذين قابلناهم نحن الصحفيين كانوا مهتمين بما إذا كانت أي دولة ستمنحهم حق اللجوء ، فقد كانوا يعرفون أن كرواتيا مغلقة في وجوههم والآن يعلق الكثيرون آمالهم على دول أوروبا الغربية حيث يوجد عمال بوسنيون . ففي معسكر ترينوبولي كان الرجال الذين قابلتهم متراصين خلف الأسلاك حيث كانوا يرون مزارعهم بأعينهم . لكن ما كانوا يحملون به هو الفرار . صاحب رجل في متوسط العمر متجههم الملامح في مجموعة من الصحفيين الأجانب كنت أسافر معهم «لي أخ في ألمانيا ! وهذا عنوانه . هل تظنون أنه يمكنكم أن تأخذوا رسالة له ؟» . عند خروجنا من المعسكر سمعنا القصة نفسها مرات في ألمانية ركيكة وفرنسية ركيكة وهولندية ركيكة وإيطالية ركيكة وكانت اللعنات تطلق على الحراس باللغات نفسها . كانت الحرب في البوسنة ، وفي كرواتيا قبل ذلك ، حربا بين العمال والمنفيين والمهاجرين السابقين . ولكن معظم هؤلاء الرجال لم يسبوا ولم يشتكوا ، بل وقفوا في بساطة كما يفعل المساجين .

لكن بالنسبة لمرافقنا الصربي كان هؤلاء الثلاثة آلاف مسجون القذرين عديمي الأخلاق يمثلون طليعة حشد مسلم اجتاحوا تقريبا الأمة الصربية التي كانت غلظتها الوحيدة ، كما كررها لنا كثيرا خلال اقتيادنا من بانياالوكا إلى المعسكر ، أنها كانت متساحة أكثر من اللازم وموافقة على السماح للجماعات قومية أخرى أن تزدهر على حساب الصرب . وخارج قرية على طول الطريق الضيق قرب المعسكر أكد لنا هذا الشاب - كان مراسلا مبتدئا في الجريدة الرئيسية في بانياالوكا قبل تجنيده - أننا سنرى أن المسجد في تلك القرية ترك سليما رغم القتال . قال «إن أي منزل مسلم رفع راية الولاء البيضاء لم يمسه جنودنا . دار القتال فقط لأننا هوجمنا من المجاهدين» . بالتأكيد كان للعلم الأبيض في البوسنة معناه نفسه في أي مكان آخر من أوروبا - الاستسلام - ولكنه استرسل في خطبته الطويلة نوعا ما عن الوحشية الحيوانية للمقاتلين المسلمين . وقال في ترجمهم «إن الأسوأ هي الهندازار» وهي كلمة ارتبك المترجم حتى استطاع أن يترجمها أخيرا «نوع من سكاكين المسلمين» .

تعني كلمة هاندازار السيف المعقوف وباستخدامها لم يكن الدعاة الصربيون

يركبون فقط موجة المستيريا السائدة بين صرب البوسنة والمعادية للمسلمين بل كانوا يحاولون كذلك أن ينكروا جراح الحرب العالمية الثانية . وإذا كان الشباب قد سمع عنها فذلك عن طريق أجدادهم . كانت الهندازار إشارة إلى معركة كوسوفو بالطبع ولكنها كانت كذلك تلميحا إلى فيلق هندازار الذي كونه مفتي القدس للألمان في البوسنة عام ١٩٤٣ . ورغم أن كثيرا من مسلمي البوسنة حاربوا مع أنصار تيتو ولقوا أكبر الخسائر، بالنسبة لتعدادهم، عن أي مجموعة قومية في البوسنة أثناء الحرب، ومعظمها على أيدي قوات التشتيك الملكية الصربية بقيادة جنرال ميهيلوفيتش فقد ظلت تلك الذكرى المريعة عالقة عند الصرب . والآن يغذى بها الأولاد سهلي الانخداع، الجيل البعيد عن الأرض، مثل مرشدنا في معسكر ترينوبولي ذلك اليوم .

عندما دخلنا القرية كانت هناك أعلام بيضاء فوق المنازل وحتى على كومة أخشاب مكدسة في حقل قريب . وكما في كثير من المدن البوسنية حيث عاش - قبل الحرب- الصرب والمسلمون في سلام على مدى جيل على الأقل، كانت منازل المسلمين هي التي تحولت إلى كومة أحجار بفعل القصف أو اخترقها الطلقات في حين ظلت بيوت الصرب قائمة لم تمس : بيوت المسلمين التي بدا أنه قد أضرمت فيها النيران بعد إصابتها بالرصاص وبيوت الصرب التي لم تكن تبدو شاذة عن الكميونات الريفية المزدهرة في بعض الأماكن في النمسا أو سويسرا . كان شائعا في يوغسلافيا بين العمال الزائرين أن يعودوا إلى قراهم كل صيف وبينوا جزءا آخر من المنزل الذي من أجل الحصول عليه ذهبوا إلى الخارج ليوفروا ثمنه . تلك المنازل غير الكاملة وقفت، وغالبا محاطة بالسقالات وأكوام الطوب بين المنازل الجاهزة . بلغنا المسجد وكان مدمرا فقد زال السقف وهدمت المئنة وفي غير تأثر قال مرافقنا «نعم هذه هي القرية حيث كان هناك قناص على المئنة وكان على الدبابات أن تطلق نيرانها بالطبع وإلا مات أولادنا» .

سأذهب إلى قبري معتقدا أن ذلك الجندي الصربي لم تكن لديه فكرة عن أنه قال لنا شيئا مختلفا تماما قبل دقائق قليلة . كان من المفروض أنه مع كارادزيتش أنه عندما يسأله شخص سؤالا، يكون الرد كذبة . كان الصحفيون يفترضون ذلك ويفترضون

كذلك أن كارادزيتش كان يعرف أنه يكذب، على الأقل معظم الوقت. أما مرشدنا فكان شيئاً آخر. كان كل عالمه وهما ونتاجاً لحملة الدعاية المنظمة بإتقان من قيادة الصرب. بدا وكأن الرسالة «فقط الوحدة تستطيع أن تنقذ الصرب» كانت حاجزاً للمعلومات المتناقضة. كان الصرب جيدون، ولذلك لا يدمرون مسجداً فإذا اتضح أن المسجد مدمر، فلا بد من سبب، ومادام الصرب جيدون فالسبب هو أنه تم إطلاق النار على الصرب. وإلا فلماذا تكون المتذنة حطاما؟ لقد تم في آن معا تطهير عقول الصربيين وأجساد المسلمين في البوسنة.

في معسكر ترينوبولي ضحك المساجين عندما سألتهم إذا كانت هناك مقاومة في القرية. قال لي فلاح أشيب في فرنسية مفهومة: «كانت المدينة نائمة وليست قانصة. دخل الصرب القرية وبدأوا إطلاق الرصاص. حاولنا الاستسلام - تلك هي الأعلام البيضاء التي قد رأيتوها - ولكن كان هناك رصاص كثير أولا. ثم ذهبوا من منزل إلى منزل يجرون الناس إلى الخارج. كان بعض الصرب الذين قاموا بذلك جيراننا لنا، أناس عرفناهم طوال حياتنا. من يعرف؟ ربما أجبروا على مساعدة الجنود. ثم جروا بعضنا بعيدا، وأعتقد أن معظم هؤلاء قد ماتوا والبقية منا محجوزون هنا: أولا في أومارسكا وفي الشهر الأخير هنا في ترينوبولي، وهكذا عدت من حيث بدأت ماعدا أن منزلي قد ذهب ولا أعلم أين أولادي».

سألته إن كان سيعود إلى بيته إذا سمح له بذلك فقال «أبدا، البوسنة بلد ميت على الأقل بالنسبة للمسلمين. إنها صربية الآن. . . إنني مستعد تماما أن أوقع بتسليم أرضي للتشتيك لأنه ما الفائدة من التمسك بشيء مفقود سلفاً؟».

الفصل السادس

في البوسنة والهرسك، وكما لاحظ دافيد أوين ذات مرة، «لا يتحرك الوقت للأمام، بل يتقهقر». في نهاية كل فترة قضيتها في البوسنة، كنت أغادرها وأنا أتصور أن الأمور لا يمكن أن تصبح أسوأ من ذلك، لكنني كلما عدت مرة أخرى، عادة بعد غياب لا يزيد عن شهر إلى ستة أشهر، كنت أكتشف أنها تطورت إلى أسوأ. إن القدوم إلى الحرب البوسنية هو أشبه بالوصول إلى فراش تحتضر فيه بلد. كان كل شيء يبدو وقد أصبح أسوأ بصورة دائمة. وكانت هناك أوقات شابهت التجربة فيها زيارة الصديق أصابه الأيدز. وذلك لأنه حتى في فترات الهدوء النسبي، كان المرء يعرف إلى أين تؤدي الأمور: فعلى المدى البعيد لا يلوح أي أمل على الإطلاق.

ولم يكن الغرباء عن المنطقة هم وحدهم الذين يشعرون بهذا الانزلاق إلى الهاوية. فقصة البوسنة مثلت إلى حد بعيد قصة تبتعد عن الحل أكثر فأكثر. فعلى المستوى السياسي، هناك مشهد الفاعلين الدوليين الأساسيين في الأزمة الذين أصروا في بداية الأزمة على أن البوسنة دولة شرعية يتعين الحفاظ على وحدة أراضيها على الشكل الذي كانت توجد به وقت اندلاع القتال. لكن ما إن بدأ الجنرال ميلاديتش يعرب عن رأيه الواضح لكل إنسان في أنه لا يوافق على قرارات الأمم المتحدة، حتى بدأ سحق المجتمع الدولي العاطل من أي فعل، وزججرة الأمريكيين، ومناشدة المفاوضين، وبدأت لهجة واشنطن وباريس ولندن وبروكسل في التغير. وبدأ المفاوضان يكشفان كيف أن توقعاتهما قد تغيرت بالنسبة للصيغة التي كانا يحاولان إبرامها في البوسنة. وفي جلساتها الخاصة، أوضحت المفاوضات أنهم افترضوا منذ البداية أن استعادة البوسنة لوحدة أراضيها مرة أخرى سيكون مستحيلاً من دون نوع ما من الضغط العسكري الغربي على الصرب. لكن في العلن واصلوا إصرارهم على أنه مازالت هناك بوسنة يتعين إنقاذها، بعد أن أصبح واضحاً بوقت طويل أن ما يجري مناقشته في واقع الأمر هو تقسيم البوسنة إلى ثلاث دويلات عرقية وليس الحفاظ عليها.

وفي بداية عام ١٩٩٣، وعند نقطة يمكن اعتبارها بحق لحظة متقدمة في القتال، أصر دافيد أوين بشكل مطلق على أنه «لن تكون هناك جمهورية لصرب البوسنة». فلو أنه أمكن أن تقتنع كل الأطراف بما اعتبره أوين وفانس حلاً يمكن أن يحسم النزاع رغم عدم جاذبيته لأي طرف - والمتمثل في خريطة تقسم بموجها البوسنة والمهرسك إلى مجموعة من الكانتونات يجري تخطيطها طبقاً للأغلبية العرقية فيها، وتخضع لسلطة حكومة مركزية ضعيفة في سارييفو - فسوف يمكن الحفاظ على البوسنة. ولم يكن هذا الحل مثالياً بحال، وهو ما اعترف به المفاوضان في جلساتها الخاصة - عندما قال أوين: «إنه سلام من قلب الجحيم» - لكنها وفرت قدراً من العدالة. على أن الحكومة البوسنية ضيعت تلك الفرصة، لأنها لم تكن قادرة في البداية على قبول تقسيم يضيفي الشرعية على التطهير العرقي، ثم بعد ذلك بتأثير الانطباع الزائف والمساوي بأن من الممكن حدوث تدخل أمريكي. وكان الأمريكيون، وبالرغم من أنهم لم تكن لديهم نية للتدخل، لم يكونوا راغبين في أن يبدو في العلن مُقرّين هزيمة بوسنية من خلال المراهنة بكل الأوراق على خطة فانس وأوين، التي ضحّت - وأياً كانت الأشياء الأخرى التي سببتها - بمبدأ حق البوسنة، وهي الحكومة الشرعية، في تأكيد ذاتها كدولة، لصالح استقلال ذاتي لكانتونات عرقية. أما البوسنيون فكانوا مستعدين للموت في سبيل دولتهم ومبادئهم، وفضلت إدارة كلنتون أن تتركهم يفعلون ذلك - ولم توضح أبداً ما هي الحدود الفعلية لتورطها في ذلك - بدلاً من أن ينظر إليها على أنها تحرض على التطهير العرقي أو تتراجع عن الوعود المثيرة بتقديم المساعدة للبوسنة التي قدمها المرشح الرئاسي كلينتون خلال الحملة الانتخابية عام ١٩٩٢ من أجل إرباك جورج بوش.

لكن هل كان بإمكان خطة فانس - أوين أن تحقق النجاح لو جرى تنفيذها؟ ذلك سؤال محل خلاف. فقد كان من المفترض أن تبدي القوى الدولية الكبرى استعدادها لحشد أعداد كبيرة من القوات - خمسين ألفاً في التقدير الأكثر محافظة، تدعمها أعداد كبيرة من قوات الشرطة المدنية والمختصين القانونيين والفنيين - كما كان عليها أن تكون مستعدة لاستخدامها لردع صرب البوسنة. وفي ضوء ترددها فيما تلى من أحداث فإن الفرص التي كان يمكن لهذه القوى الدولية أن تتخذ فيها إجراءات

حاسمة بدت ضعيفة للغاية، ومن المؤكد أن هناك أشخاصاً كثيرين في بلغراد كان رأيهم أن من الأسلم لصرب البوسنة أن يوقعوا على الخطة لأن القوات الغربية من الممكن ألا ترسل فعلياً أبداً إلى البوسنة. وقد أخبرني ميهيلو ماركوفيتش، أحد الأيدولوجيين الرئيسيين لنظام ميلوسيفتش، ذات مرة أن الرئيس الصربي أكد له في مايو ١٩٩٣ أن الأمريكيين لن ينشروا قوات حفظ السلام البالغ عددها ما بين خمسة وعشرين ألفاً وثلاثين ألفاً التي وعد بها كلنتون، وأضاف ماكوفيتش: «كنت أشك في صحة هذا الكلام ساعتها، لكن في ضوء ما رأيته من سلوك للإدارة الأمريكية فإنني أميل إلى القول إن ميلوسيفتش كان على حق».

على أن فانس وأوين لم يكن بمقدورهما إقناع حكومة الولايات المتحدة بحثً البوسنيين على إعلان سريع بقبول الخطة. وقد رأى المفاوضان أن أفضل فرصة جاءت في أواخر يناير ١٩٩٣، لكنها انتهت عندما سحب وزير الخارجية الأمريكي وارن كريستوفر - وكان قد أكد لفانس التأييد الأمريكي للخطة في لقاء بينهما عقد في أول فبراير - هذا التأييد دون إبطاء. وتم إحياء الخطة مرة أخرى في بداية الربيع، بل ووافق عليها ميلوسيفتش بصفة نهائية، جزئياً للأسباب التي قدمها ماركوفيتش. لكن عندما عرضت الخطة على برلمان صرب البوسنة في «بالي»، طلب الجنرال ميلاديتش من النواب أن يرفضوها، وهو ما فعلوه في حينه، وأجهز هذا الرفض على أي أمل في إقرار خطة فانس - أوين. وفي أعقاب الرفض مباشرة استقال فانس، ونائبه القدير، هربرت أوكن، تجنباً للتفاوض على اتفاق آخر يعلمان أنه سيكون غير مبرر أخلاقياً. أما أوين، فلم يقدم استقالته، وراجت نكته عنه في البوسنة تقول أن الدكتور «موت»، كما كان يسمى في البوسنة، كان مسؤولاً عن تدمير حزينين سياسيين بريطانيين ودولة بلقانية صغيرة. وفي الفترة التي أعقبت فشل خطة فانس - أوين، كان أوين يبدو بالنسبة للكثيرين منا، على أنه يكرس جهده للقبه وشهرته. وقد وصف أوين دافعه، بطبيعة الحال، «بالواقعية»، لكن ما انتهى إلى تقديمه، سواء بإرادته أو لأنه لم يكن يرى خياراً آخر، لم يكن سوى كفالة المزيد والمزيد من التنازلات لصرب البوسنة. والغريب في الأمر أن أوين كان يرى بوضوح ما الذي يفعله. فقد قال ذات مرة: «ليس هناك شيء يستحق الفخر فيها لنفعله، ولن تكون

ترتيب وقف لإطلاق النار في بعض المواقع — حقيقة أن لا تقدم حقيقةً تم إحرازه . لقد تم تخفيف بعض المعاناة بفضل الجهود البطولية من جانب القوات التابعة للأمم المتحدة والعاملين في قوافل الإغاثة ، لكن الكارثة الإنسانية في البوسنة لم تكن سوى عرض من أعراض الكارثة السياسية . لقد كانت حلقة مفرغة . فالأمم المتحدة تمد الناس بالغذاء وتركهم عرضة لقصف القنابل ، ومجلس الأمن يعلن عن «مناطق آمنة» لا تعتمد قوة الحماية إلى كفالة سلامتها كما لا تملك القوات التابعة للأمم المتحدة القدرة على ضمان هذه السلامة ، وترسل قوافل الإغاثة ضباط حماية إلى الميدان معروف سلفاً أنهم لا يستطيعون توفير الحماية . لقد كانوا ، كما تقول النكتة اللاذعة التي انتشرت في زغرب ، «مثل الخصي في ليلة عريضة» . ولم تثمر جهود قوة الحماية وقوافل الإغاثة إلا عن المزيد من الشعور بالامتعاض والإنهاك لدى أفرادها من جراء تنفيذ مهمة كان أغلب ضباطها الأكفاء يدركون منذ وقت طويل أنها يائسة .

وعندما تحدث الرجال في معسكر ترونوبولي باسسلام في خريف ١٩٩٢ ، عن كرايينا البوسنية كجزء من صربيا ، كان لا يزال هناك ثنائون ألفاً من غير الصرب في تلك المناطق وكانت المساجد القائمة أكثر عدداً من المساجد التي تم تحويلها إلى أنقاض . وبعد عامين ، كانت كرايينا البوسنية قد تم تطهيرها عرقياً إلى الحد الذي أصبحت معه إمكانية أي عودة لحياة مجتمعية للمسلمين هناك من دون استخدام القوة المسلحة بمشابهة وهم غير قابل للتحقق . وعندما سقط جيب سربريتشفا في أيدي الصرب في أبريل ١٩٩٣ — وهو الحدث الذي أدى إلى تبني مجلس الأمن لقرار الملاذات أو «المناطق الآمنة» — لم يتخيل سوى قلة من الناس أنه بعد حوالي عام سترك جيب غورجده عرضة للسقوط بالطريقة نفسها .

ومع كل جريمة للصرب ، كان من المفترض أن تكون الفظاعة قد بلغت متنهاها . فلقد مثل التطهير العرقي في المدن الشرقية للبوسنة ، مثل «زفورنيك» في مايو ١٩٩٢ ، ما بدا وكأنه الدرك الأسفل لتلك الفظاعة ، لكن الصحفيين كشفوا حينئذ عن وجود المعسكرات وعن التطهير العرقي في كرايينا البوسنية خلال ذلك الصيف وبداية الخريف . وبدا اكتشاف معسكرات بالقرب من بلدة فوكا القرية من سارييفو في بداية عام ١٩٩٣ غير قابل للتصديق . ثم اتضح بعد ذلك أن

الصرب يستخدمون الاغتصاب سلاحاً في الحرب في كل مناطق البوسنة، كوسيلة لإرهاب السكان المسلمين ودفعهم إلى الهرب ومن ثم يحققون الهدف الأساسي للحرب الصربية والمتمثل في التطهير العرقي. ولم يكتف ضباط قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة بتأكيد أنه لا يدخل ضمن اختصاصهم مساعدة النساء البوسنيات، بل رفضوا رفضاً باتاً التحقيق في الدعاوى المتكررة بأن جنوداً معينين تابعين لقوة الحماية قاموا بممارسة الجنس مع النساء المسلمات البوسنيات الأسرى. وإذا كانت الحقيقة المدعاة - في حالة صحتها - بأن التفسير المرجح لذلك هو أن الجنود الصرب قد استبقوهم لمدة ساعة في «ماخور مخصص للعسكريين»، يمكن أن تقبل كعذر لسلوك الجنود الأفراد، فإنها تعفي قادتهم من المساءلة.

وسرعان ما اتضح بعد ذلك أن رفض الأمم المتحدة لتحمل المسؤولية بجدية عن الانتهاكات المرتكبة من جانب أفراد عاملين في صفوفها كان خطأ يرتبط بالجهاز ذاته. فقوة الحماية الدولية، وكما يوضح مسؤولوها باستمرار، يرتبط تقييم أدائها لمهامها بالبوسنة بالتفويض الصادر عن مجلس الأمن في نيويورك، ومن ثم في مكانها أن تفعل ما تراه مناسباً دون محاسبة من أحد، بل والأكثر خطورة أن مسؤولي الأمم المتحدة في البوسنة لم يكن لديهم أي استعداد لقبول فكرة أنهم يمكن أن يرتكبوا أخطاء على الإطلاق. إنهم يتكلمون عن أنفسهم كما لو كانوا آلات لا كائنات بشرية. فإذا ما تصرف جندي تابع لهم بطريقة سيئة فإن تلك، وكما يقول كبار مسؤولي قوات الأمم المتحدة، هي مسؤولية الحكومة المعنية. وإذا ما اتسمت سياسة ما باللا أخلاقية فتلك غلطة «التفويض». وعندما تظهر المساوىء أو التصرفات الخاطئة في دائرة الضوء، فإن الأمم المتحدة تتحرك بسرعة لكي تبريء نفسها من أي اتهام بانتهاك لحقوق الإنسان أو الفساد المنظم من جانب العاملين في صفوفها في أي منطقة من المناطق التي تشملها مهامها في البوسنة. ولقد تم إرسال لواء نمساوي اسمه جونثر جريندل لمساعدة ياسوشي آكاشي، الموفد الجديد ممثلاً شخصياً للسكربتير العام للتحقيق في الاتهامات بالفساد. وقبل ذلك بشهور قليلة كان أكاشي يدير عملية الأمم المتحدة في كمبوديا وما كان يعلمه عن الأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة كان عن طريق التقارير. ومن ناحيته كان جريندل، وهو قائد سابق في

قوات الأمم المتحدة في قبرص، خبيراً في عمليات حفظ السلام. وكان معظم الغرباء يرون أنه يفتقر تماماً إلى نوع الموضوعية المطلوب لتناول الموضوع بحيادية. لقد كان الأمر مثل شرطي يطلق نيرانه على شارع في مدينة ثم تتم محاكمته من خلال مجلس يتكون بكامله من رجال شرطة. ولم يكن مدعاة لأي دهشة ألا يتحدث جريندل إلى الصحفيين، وقد اعتاد بعض المحليين - بل أنه حتى في سرايفو اعتاد المحليون المطلعون - أن يقولوا: «خمر حمراء وعوازل حمل من الفرنسيين، وكافيار وديزل من الأوكرانيين». وهو لم ير مطلقاً البغاء الذي كان واضحاً حول معظم ثكنات الأمم المتحدة في المدينة وبدا غير مدرك لواقع أن معظم الصحفيين، وأنا منهم، كنا نشترى بنزين السوق السوداء من جنود قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة الخيرين من مختلف الجنسيات. قال جريندل في تقريره إنه بالرغم من وجود بعض الحالات الفردية للفساد فلا يوجد أي فساد منظم داخل أي من قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة بما فيها سرايفو.

لكن فساد الأمم المتحدة كان أهون ما في الأمر، فلو أن جنود جيش محتل تصرفوا فقط بفساد (ورغم كل تظاهرههم بأن وجودهم في البوسنة كان لمرافقة المعونات الإنسانية فقد كانت قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة وبخاصة في سرايفو، جيش احتلال باستثناء قوة واحدة حميدة نسبياً) لاعتبر السكان المدينون أنفسهم سعداء الحظ. ففي البوسنة على الأقل لم يذبح جنود قوة الحماية المدنيين، كما اتهمت العديد من منظمات حقوق الإنسان الدولية أفراداً من كتائب الأمم المتحدة بذلك في الصومال. كانت جرائم الحرب والحرمان والتدهور المستمر للوضع السياسي هي التي تتلاحق بلا هوادة. كان الناس في البوسنة، والذين يعيشون أوقاتاً عصيبة - يرددون كثيراً - ولو بعد شيء من التفكير «حسناً، فعلى الأقل لقد عشنا الأسوأ». ومع ذلك فالشيء الذي يمكن التيقن منه في البوسنة هناك أسوأ قادم في الطريق. وإذا ما كانت الكارثة لم تتزايد مادياً بصورة أشد - كانت هناك أوقات تخف فيها حدة القتال أو يعبر المزيد من المعونة الإنسانية إلى منطقة محددة - فقد كان من المؤكد حدوث ذلك أخلاقياً ونفسياً. إن السفر عبر البوسنة يعني أن تواجهك على الفور الحقيقة التي كانت قابلة للقياس إحصائياً وجديرة بالإذاعة الإخبارية وهي: الجثث والقرى والمدن

المدمرة وجنود الصرب غير النظاميين المنتشرين بالنصر، واللاجئين الفعليين والمحتملين المنتشرين في كل مكان .

لكن استخلاص معنى ما كان يدور في البوسنة كان معناه أن تواجه الكارثة الأخلاقية التي صاحبت الكارثة المادية والسياسية . وبمرور الوقت سارت هذه الكارثة نحو الأسوأ . فقد كانت البوسنة قبل الحرب دولة غنية نسبياً ، حتى ولو كان ذلك بسبب عدم توفر الكثير ليشتره الأشخاص العاديون بعد وجود المنزل والسيارة . وعندما بدأ القتال كان لدى عدد كبير من البوسنيين بعض العملات الأجنبية غطت مصاريفهم إلى حد ما خلال الشهور الأولى من القتال . ولكن بعد ستة شهور، ثم سنة ثم سنتين فقد استنفدت النقود أخيراً . وكان من آثار ذلك ليس فقط الضنك للعائلات بمفردها بل انهيار الحياة التي تعود الناس عليها . وبالطبع فقد استمرت الحياة المدنية في البوسنة ، فالناس يتزوجون ويطلقون ويقبضون الدعاوى وينجبون الأطفال ويوقعون عقود الإيجار ويعزفون الجيتار . ولكن في مجتمع صناعي مثل البوسنة لم يعد هناك معنى لذلك من النوع من العمل المكتبي الذي كان يمارسه غالبية سكان المدن .

وقد يواجه الموظفون المكتبيون رصاص القناصة في سرايفو، وقد يظهر عمال المصانع في مصانعهم في زينكا . ولكن عندما يصلون إلى هناك هناك لم يكن هناك شيء حقيقي يفعلونه . فقد كانوا يجلسون معظم الوقت لفترة وغالباً في أماكن ثقتها نيران القذائف ويجتمعون المؤن التي يسمح لهم بها لذهابهم إلى العمل ثم يعودون لمنزلهم .

قال لي كثير ممن قابلتهم في البوسنة أنهم وجدوا أن تحمل العيش أثناء القصف والقتل كان أسهل من محاولة التأقلم مع مجتمع وحشي جديد وجدوا أنفسهم يستوطنونه . ولم يكن الأمر متعلقاً بواقع أنه لم يكن لديهم شيء حقيقي يفعلونه ، بل يكمن في أنهم لم يعودوا يعرفوا دورهم . كان هذا المعنى أكثر حدة بصفة خاصة في المناطق التي تقع تحت إدارة الحكومة البوسنية حيث كان الصراع من أجل البقاء شديد الحدة ، رغم أن الناس في المناطق الكرواتية أو التابعة لصرب البوسنة غالباً ما كانوا يعبرون عن كثير من الشكاوى المشابهة . ولأسباب واضحة كان الأمر أقوى ما

يكون في سرايفو المحاصرة حيث كانت مصاعب الناس في الذود عن أنفسهم أخطر ما يكون . كان سكان سرايفو يعتمدون على المصاعد وأنابيب الغاز والسيارات وخطوط الترام والأسواق المركزية والكهرباء مثل أي سكان مدينة حديثة متقدمة . وعلى حين غرة نزع منهم كل هذا . ومع ذلك ولأنهم محاصرون ، فلم يكونوا يستطيعون الهرب إلى مناطق لا يضطرون فيها إلى صعود خمس عشرة درجة من السلم حاملين وعائلي ماء أو يمشون ثلاثة كيلو مترات إلى أقرب مركز لتوزيع الأغذية . لقد أضافت الدرجة التي تحولت بها البيئة التي ترعرعوا فيها فجأة لا بيئة متسمة بالخلل الوظيفي فحسب ، بل بالخطورة كذلك ، أضافت المزيد من الصعوبة إلى الصعوبة التي عانيتها الناس في مواجهة ما يحدث لهم . . لقد خذلهم قدينيهم .

أما في وسط البوسنة أو في جيب بيهاتش أو في توزلا في الشمال الشرقي وهي بيئات كانت غالباً حديثة مثل سرايفو فعلى الأقل لم يكن هناك حصار . فقد كان يمكن الحصول على الإمدادات ، رغم ضآلتها ، من الريف المجاور وبخاصة لمن له أقارب في القرى . وقد شمل ذلك كثيراً من سكان المدن في البوسنة ، حيث كان مثل الطابع الحضري ظاهرة جدت بعد الحرب العالمية أساساً . ولأن هذه الأماكن لم تكن محاصرة ولم تضطر إلى الاعتماد كلية على المعونات الإنسانية أو على السوق السوداء فإن الشعور بأنهم داخل جرة قاتلة ، أباً كانت حدة ادعاءات الناس المبررة ، لم يكن تقريباً في بقية «البوسنة الحرة» بمثل حدته في سرايفو . وكانت بعض أكثر المناطق عزلة هي الأكثر اكتفاء ذاتياً . وقبل أن تبدأ قوات صرب البوسنة هجومها على غوراجده في أبريل ١٩٩٤ ، مقلصين الجيب أخيراً من ثلاثين كيلو متراً مربعاً مع عدد من القرى إلى مساحة نصف قطرها ثلاثة كيلومترات من مركز المدينة ، لم يكن لدى سكان القطاع الستين ألفاً فقط كفايتهم من الطعام ، بل كانوا يستطيعون كذلك إرسال الإمدادات إلى قطاعات وادي درينا الأخرى ، سربريتشا وجيبا .

ولكن لم يكن الأمر متعلقاً في الغالب بمجرد مسألة ما فعله حرمان الناس من اكتفائهم المادي في أخلاقياتهم . فلم تسر الأمور دائماً على النحو الذي كان يمكن توقعه . فبعد أن قلص الصرب سربريتشا إلى حظيرة كبيرة تأوي المسلمين فقد أصبحت مكاناً تحللت فيه الأخلاقيات حيث كانت القتليات يقدمن أنفسهن للغرباء

من أجل بضعة سجناء. ولكن كانت هناك أماكن أخرى في البوسنة وبخاصة شرق موستار الذي كان تحت سيطرة حكومة البوسنة وضاحية دوبرينا في سرايفو - التي عزلت عن المدينة تماماً لتعاني من حصار داخل الحصار - حيث لم تفرز النذرة والخطر الشديد الفساد بل النظام والعزيمة الفولاذية. ففي شرق موستار، على سبيل المثال، كان كل شيء مقتصراً إلى آخر جرام من الطحين. وكانت هناك فترة في ١٩٩٣ في سرايفو - عندما أصاب عناصر من جيش البوسنة سعار القتل مروعين الناس الذين من المفترض أنهم يحمونهم - عندما فكر قليل من سكان المدينة جدياً في الرحيل إلى ما تندروا بتسميته «جمهورية دوبرينا الشعبية» للهروب من العصابات والمتهزين الذين سيطروا على معظم أحياء العاصمة. قال لي صديق في ذلك الوقت: «من المحتمل أن تقتلني رصاصة من التشينك هناك ولكنني على الأقل لن أخطر بأن يسرقني بعض الشباب مستخدمين الكلاشنكوف في كل مرة أغادر خارج عتبة بيتي».

لقد تمثلت الحقيقة في أنه بشكل أو بآخر استطاع القليلون الإفلات من الفساد الذي صاحب كارثة البوسنة. وكانت السوق السوداء والعصابات هي العلامات الأكثر وضوحاً للمشكلة. كان هناك كذلك الفساد الفكري الذي ولده تحول وسائل الإعلام لدى كل الأطراف إلى أدوات للدعاية. وحتى صحيفة «التحرير» التي كانت رمزاً بطولياً للمقاومة البوسنية لم تنج من ذلك. فمع استمرار القتل، بدأ محررو الجريدة يرون أنهم أصبحوا ملزمين أكثر وأكثر بمساندة حكومة البوسنة على طول الخط. والواقع أن صدور الجريدة كان بمثابة معجزة. فقد دمر مبنى مقرها الرئيسي العالي الحديث والواقع على بعد ٥٠ متراً من الخط الأماني لصرب البوسنة. وكان محرروها وعمال الطباعة يعملون داخل ملجأ القنابل الذرية في سرداب حطامها. وتحت تلك الظروف لم يكن من الغريب أنه رغم محاولة نظام عزت بيجوفيتش تحطيم استقلال الجريدة السياسي قبل عام من بداية القتال، فقد شعر محرروها أن عدم فعل أي شيء يقوض جهود الحرب يأتي في أولويات الأمور. وإذا كان ذلك يعني إفقار اللغة التي يكتب بها المراسلون - في قصص الجريدة كان الصرب دائماً هم المعتدون الفاشيون وكان طرف الحكومة البوسنية هو «البطل» بشكل ثابت - فلم يكن ذلك مجرد ثمن بسيط يدفعونه بل كان كذلك واجباً رغم كل شيء، الجريدة الوحيدة التي

تصدر في سرايفو.

وبشكل ما كان محررو جريدة «التحرير» على حق، فقد كان التشنيك معتدين فاشيين بكل معنى للكلمة وكان الدفاع عن سرايفو بطولياً بالفعل. ومع ذلك فما كان يدور حوله الصراع، في مواجهة ظروف مستحيلة، لاستمرار الجريدة خلال لاحتصار، وكما كان يصير محررو الجريدة، هو الحفاظ على نوع الصحافة الذي يحاولون ممارسته من قبل. ومع ذلك لم تستطع الجريدة إلا أن تعكس الإنهاك واليأس وجئون الاضطهاد لدى قرائها وبخاصة مع استمرار القتال. ودائماً ما توفر الكوارث أرضاً خصبة لمنظري المؤامرات، وقد كان للبوسنة نصيبها وافراً. فبحلول عام ١٩٩٣ قامت جريدة «التحرير» بعملية استطلاع للآراء أعطت تفسيرات إضافية للسبب في أن الغرب لم يساعد البوسنة. وقد اتهم مواطن غاضب ساداك أوجاتا، رئيسهم بالمفوضية العليا للاجئين في أحد هذه الاستطلاعات بأنها لم تكن راغبة في مساعدة البوسنة لأنها كانت ماسونية ومرتبطة بمكاتب للحركة الماسونية في صربيا. وما كان أكثر شيوعاً وخطورة أنه أصبح شيئاً عادياً في سرايفو، كما قالت لي ذات مساء الناقدة الفنية زمينا أن كوسبا هيتش الأخت غير الشقيقة لرئيس تحرير الصحيفة، كمال كوسبا هيتش أن «أوروبا تكره المسلمين. وما يفكرون فيه حقيقة هو أن الصرب يقومون بالعمل عنهم».

في هذا الجو، كان من المتوقع أن تقوم الجريدة بمساندة حكومة عزت بيجوفيتش وتمجيد صراع الجنود، وإعطاء متنفس للتوترات المرضية والأليمة في التفكير في البوسنة. وفي سيرهم في ركاب الحزب الحاكم كان محررو الجريدة يحاولون كذلك الحفاظ على جريدتهم من هجوم حكومة عزت بيجوفيتش. ولكنهم كانوا فاشلين في ذلك بصورة متزايدة، فبحلول خريف ١٩٩٤ كان مقاتلو الحزب الحاكم المقربون للحكومة يهاجمون الجريدة بشكل منتظم بسبب استقلالية هيئة التحرير.

وإذا كان هناك شيء واحد تفرزه الكارثة فإنه التوقع. فلم يكن البوسنيون يريدون ما يذكرهم بأن العالم وقف لم يعترض سوى بالشجب الكلامي فقط بينما قام الجيش الوطني اليوغسلافي بتحويل مدينة فوكوفار المسيحية إلى ركام، بل الأدهى أن حكومة بيجوفيتش ولأسباب حكيمة مفهومة ولكن غير مقبولة لم تتخذ هي الأخرى

أي موقف من القتال في كرواتيا عام ١٩٩١ . كذلك لم يكن الأفراد من أهل سرايفو على درجة كبيرة من الانزعاج لما كان يجري في كرواتيا في ذلك الوقت . وقد فسر كثيرون منهم ذلك بقولهم بأنهم كانوا في غاية الرعب مسبقاً بينما كان آخرون أكثر استنكاراً لأنفسهم متذكرين في عجب أنهم كانوا ببساطة لا يعتقدون أي شيئاً مثل هذا يمكن أن يحدث في البوسنة . وقد قال لي صديق : «لقد تعودت على تحويل القناة عندما يبدأ بث رسائل إخبارية من فوكوفار لقد كان علي أن أبدي اهتماماً أكثر .

ولكن كما تعلم كانت سرايفو مكاناً لطيفاً ومتحضرأ . لقد ظننت أن القتال قد ينشب في الريف أما هنا فقد كنا نعيش في يسر لا يسمح بتوقع حدوث مثل هذا الأمر» .

إنك إذا لاحظت ذلك كله فلن يعني أن تقول بأن البوسنيين كانوا مخطئين بعد ١٩٩٢ بالتفكير في أنفسهم وفي ورتطهم . وكون البوسنيون لم يستطيعوا حشد غيرتهم المزعزعة ليقدموا استنكارهم مع عبارات المساواة لأنجولا وأفغانستان ، وكون بعضهم عبروا أحياناً عن هذا التقوقع داخل الذات بأساليب هجومية أو مبالغ فيها - مقارنين سرايفو بأوشفيتز ومحتجين بأنهم أوروبيون وليسوا صوماليين أو مصريين ، أو كما عبر عنها قائد عسكري في موستار ، بأن الحرب في البوسنة هي أكثر الحروب ضراوة في تاريخ العالم - كان مصدر إزعاج لبطرس غالي ومساعديه لا يمنع أن ذلك كله بدا لي دائماً وببساطة وضعاً إنسانياً . وأتذكر ركوبي في سرايفو مع مسؤول للأمم المتحدة ومروري على جدارية سرايفو الشهيرة التي تقول «مرحباً بكم في الجحيم» بعرض مبنى مهدم في منطقة أصابتها القنابل على طريق المطار . وقد أشار المسؤول إليها وشخر قائلاً : «تلك هي المشكلة هنا . الوضع سيء بالطبع ولكن كل فرد يبالغ على الدوام . وهذا هو سبب عدم قدرتك على التوصل إلى اتفاق سلام» .

وعندما قلت له أن ما يعنيه باتفاق سلام هو استسلام البوسنيين هز كتفيه فقط . كان موقفه نموذجاً لاتجاه معين في التفكير داخل الأمم المتحدة يرى أن حكومة البوسنة هي المشكلة الحقيقية ، لقد ارتكب الصرب جرائم فظيعة بالطبع واعترف كل شخص بذلك . أما الآن فقد كان مسؤولو الأمم المتحدة يصرون على أنهم مستعدون للجلوس حول مائدة المفاوضات من أجل السلام . فلماذا لا يساير البوسنيون

الوضع . ولكن عندما توضح لهم أن ما تطلبه الأمم المتحدة إنها هو الاستسلام بالنسبة للبوسنيين فإن توضيحك لا يقدم ولا يؤخر . فقد كانت الأمم المتحدة تهتم بالسلام وليس بالعدالة . وظل كبار المسؤولين يذكرون بأن التفويض لقوات الحماية التابعة للأمم المتحدة لم يكن لحماية البوسنيين بل لحماية جهود الإغاثة الإنسانية أياً كان اللبس الذي يثيره إسمها . وقد ذكر الجنرال ماكنزي بعد مغادرة البوسنة أنه يعتقد بأن اسم «قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة» كان له ضلع كبير فس مشكلة الأمم المتحدة هناك . وكان محقاً في ذلك حيث لم يستطع البوسنيون أن يفهموا سبب إرسال كل أولئك الجنود إذا لم يكونوا سيفعلون شيئاً لحماية سكان سرايفو وتوزلا وبانيالوكا .

وفي واقع الأمر، كان الاسم الأول لقوة الأمم المتحدة الذي اختارته إدارة عمليات حفظ السلام هو «القوة المؤقتة للأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة» ولكن الحروف الأولى للاسم هي UNIFY - وهي قريبة من كلمة UniFy ومعناها يوحد لدرجة لا تجعل أحداً يقبل به . ولكن أياً كان الاسم الذي انتشرت تحته قوات الأمم المتحدة فسرعان ما تعلم البوسنيون أن الأمم المتحدة لن تحجم عن حمايتهم فقط بل إنها في الأساس لم تتعاطف معهم . لقد كان لدى قوة الحماية تفويض بحفظ السلام، وبحلول ١٩٩٣ كان البوسنيون قد أصبحوا العقبة الرئيسية أمامها لإكمال تلك المهمة .

من هنا لا عجب أن يكون البوسنيون، مع إحساسهم بالإهمال، قد انخرطوا في أوهام فضيلتهم الأساسية وعزفوا على أوتار تفرد معاناتهم . وعندما كتب إينيس كاريش رجل الدين المسلم الواسع التأثير، والذي أصبح فيما بعد وزيراً للتعليم، وهو مثل إخراجاً لسرايفو «متعددة الثقافات»، في قصته الخيالية «اقتباس من مجلة صوفية صدرت عام ٢٠٩٢» يقول: «قبل كارثة البوسنة عام ١٩٩٢ لم تكن المضايقات ضد شرف وكرامة المرأة معروفة» فقد كان يعبر عن الشعور المشترك في البوسنة بأن العالم الخارجي مازال يرفض أن يستوعب ضخامة ما كان يحدث . وهو لم يكن - كما لاحظ مسؤول من الأمم المتحدة ملاحظة عندما أريته المقال (مؤكد) في إهمال أن كاريش يشكك في أي شيء يحبه الناس) «ناسياً بسهولة ما فعله الجيش الباكستاني في بنجلاديش برغم أن البوسنيين ينسون دائماً أنه توجد وقد ظلت توجد مآسٍ في هذا

العالم المخيف الذي نعيش فيه غير مأساتهم هم» .

ولقد كان الجزء السهل هو الدفاع عن أحزان البوسنيين والتوقع البوسني أمام الرفض السطحي الذي قدمه هذا البيروقراطي . ولكن كان الأمر الأصعب تقبله هو أن تلك التعبئة العامة للمشاعر، مهما كانت مفهومة، وكان لها ثمنها رهيب على البوسنيين أنفسهم . لقد أصبح السؤال حول ما إذا كان مجهود حربي قائم على حشد الجماهير (رغم أنه في الواقع لم تنفذه الحكومة البوسنية بشكل منظم وهو ما كان متوقعا منها) وإجماع أيديولوجي، يتطلب من المواطنين ألا يتفرقوا عن جبهة موحدة أم أن على الناس أن يكونوا ملتزمين بالاستمرار في قول ما يعتقدونه أيما ما تطلبت النتائج العملية، هذا السؤال أصبح محل خلاف على الأقل منذ برشلونة الجمهورية أثناء الحرب الأهلية الأسبانية . ولقد كان هذا النقاش هو ما حلله أورويل في «المجد لكتالونيا» . ولعله لم تكن هناك إجابة شافية، غير تلك الأكثر عرضية، للمشكلة حول ما نفعه إذا تصادمت الحقيقة مع العدل في موقف طارئ . وكلما أحس البوسنيون أنهم بلا أصدقاء - وكانت اللطمة التي مثلتها عداوة الأمم المتحدة الظاهرة عنيقة - كلما مالوا إلى الاعتقاد بأنه لا يمكن المخاطرة باختلاف داخلي . صاغت ذلك جورودونا نيسيفيتش، نائبة رئيس التحرير لجريدة «التحرير» الصربية، والتي كانت أحد باعثي الحياة فيها خلال القتال وكان زوجها إيفو الكرواتي وزيراً للإعلام في الحكومة البوسنية حين قالت : «قبل الحرب لم تساند الجريدة أيّاً من الأطراف الوطنية الثلاثة في البوسنة، ولكن بمجرد نشوب الحرب ذهب كمال إلى الرئيس عزت بيجوفيتش، وقال له أثناء الحرب سساند السلطات الشرعية في البوسنة والمهرسك كجزء من الدفاع وقت الحرب، ولكن بعد الحرب، وبمجرد أن تضع هذه الحرب أوزارها، سنعود ثانية إلى موقع المعارضة، وفي تلك الأثناء، لن نفعل شيئاً يقلقل الدولة في وقت يستحيل فيه التغيير السياسي الديمقراطي» .

وبرغم ذلك فحتى حينما يرى رجال الإعلام البوسني الأكثر استقلالية أن من واجبه للأسف أن يقدم قدراً كبيراً من الدعاية في ثنايا الأخبار فإن التأثير المخرب على كل من القارئ والكاتب على السواء لا بد أن يكون كبيراً - أيّاً كانت الدوافع فاضلة أو مفهومة . كانت جورودونا نيسيفيتش ملتزمة من الناحية البيوجرافية والفكرية

بالنموذج البوسني متعدد الثقافات والذي تشككت فيه قيادة الحزب الحاكم SDA قبل القتال . ومع ذلك فقد قالت إنه ليس لديها شك في أن الطريق الذي تسير عليه «التحرير» هو الصحيح . وأشارت إلى أن الدعاية من الطرف البوسني ، بافترض صحة التعبير، كانت لا شيء إذا قورنت بما كان يصدر عن بالي وبلجراد وأيضاً عن زغرب ، بحسب الطريقة التي تستمع بها الحكومة الكرواتية . ومن الظلم تماماً مقارنة محاولات البوسنيين للتضامن بعالم المشاعر عديم الرحمة المتمثل في الشعار «الوحدة فقط تنقذ الصرب» والذي أدى إلى كثير من المعاناة والموت .

إن ما لم تكن نيسفيتش راغبة في مواجهته هو احتمال أن أي فساد في الفكر، حتى في قضية عادلة وأياً كانت إنسانية ومفهومة ، يصعب محوه طالما تمت الموافقة عليه . ولقد وضعت معظم الحروب أوزارها قبل وقت طويل من ذبول العقلية التي أفرزتها . ومع ذلك فلو أن هذه القاعدة النفسية للحرب كانت الطريقة الوحيدة الذي تحول بها المجتمع البوسني بفعل القتال فربما لم يبلغ الدمار العقلي الذي قال كثير من الناس أنهم يعانون منه تلك الدرجة التي وصل إليها . وذلك لأنه إذا كان هناك شعب على مدى ما تعيه الذاكرة الإنسانية له الحق في تبسيط وضعه وتمجيد فضائله وتجاهل ما يخصه من المسؤولية عن دمار بلده وتصوير أعدائه والمجتمع الدولي ، لعدم رغبته في رفع إصبع واحد لمساعدته ، في صورة الشيطان ، لكان شعب البوسنة الذي ارتكبت في حقه الآثام - وبخاصة المسلمين . ولكن وفي كل مكان في البوسنة ، لم يكن هناك فقط الرضا بالمبالغاة البلاغية في تبسيط الحرب - فهذه رغم كل شيء ليست غريبة على البوسنة - بل إن الفساد في الحياة اليومية بلغ مدهاء كذلك .

إن أحد أول وأعظم وأوسع الآثار للقتال هو قلب الهرم الاجتماعي رأساً على عقب . لقد دمرت البرجوازية وفقدت قيمها بفعل الحرب . ومع كل شهر يمر يزداد وضعها المادي سوءاً . وانقلب الوضع بالنسبة لمن كان لديهم القليل قبل بدء القتال . وقد وجد الشبان البسطاء من الريف والشباب الأقوياء من المدن أن بنادقهم تمكنهم من أن أن يكونوا هم المبادرين بجمع الماركات ومختلف الامتيازات ، الجنسية وغيرها . لقد تحول الوضع في أغلب الحالات إلى أن الرأس صار ذليلاً والذليل صار رأساً . وسواء كان ذلك في سرايفو أو توزلا أو موستار ، فقد كان يمكن مشاهدة

حدث على أي حال ، رغم جهود عزت بيجوفيتش بألا يظهر شديد النهم للحرب . ولو أن الأمر كان بيد سياسيي الحزب الحاكم والطبقة المتوسطة المتحضرة فربما كانت سرايفو قد سقطت في يد الصرب بنفس السهولة التي سقطت بها بانيلوكا . وفي واقع الأمر ، فقد طلب عزت بيجوفيتش من مسؤولي الأمم المتحدة قبل القتال أن تنشر قوات حفظ السلام . ولكنهم رفضوا ، بحجة أنه لم يفوضوا بوضع قوات في إقليم من دولة لكي يسهلوا انفصال هذا الإقليم .

وجاء القتال وعلى الفور تجمعت قوة من العامة تألف معظمها من العصابات وسكان المدن المسلمين للدفاع عن المدينة . لقد كانوا خليطاً شاذاً . فبعضهم ينتمي إلى مجموعة مسلمة شبه عسكرية تدعى التجمع الوطني بينما جاء العدد الأكبر من عالم الرذيلة في سرايفو . وقد دفعوا بمسدساتهم والكلاشينكوف جنود الجيش الوطني اليوغسلافي إلى التلال واقتحموا ثكناتهم وفي النهاية ، ولشدة غضب وسطاء الأمم المتحدة ، أقاموا كميناً لطابور من قوات الجيش الوطني اليوغسلافي الذين كانوا في طريقهم للانسحاب من المدينة حسب وقف لإطلاق النار ثم الاتفاق عليه . ومع كثافة القتال دخلوا إلى المناطق المجاورة التي شيوا فيها متملقين ومشجعين ومهددين لرفاقهم في الدراسة لينضموا إلى القتال . كان أحد قادتهم صاحب مصنع محترم للمنتجات الجلدية ، وكان آخر في التاسعة والعشرين واسمه موسان توباليتش موسيقياً في أحد النوادي ويعرف باسم كاكو ، وشخص ثالث يعرف باسم سيلو كان قاتلاً محترفاً له هيئة أبطال كمال الأجسام وقد خرج لتوه من السجن بعد ثماني سنوات بتهمة الاغتصاب . وبعد انتهاء هذه الفورة من القتال بدأ الجيش البوسني في تنظيم صفوفه وقبل سنة من قيام كادر صغير متفان من الضباط النظاميين السابقين في الجيش الوطني اليوغسلافي الذين ظلوا في الجانب البوسني - وكان من بين رتبهم العالية عدد من الصرب والكروات - بالبدء في إعادة تشكيله وتزويده ببعض جوانب القوة النظامية المنضبطة .

كان الدفاع عن سرايفو قصة ملهمة تكونت منها مجموعة الأغاني الشعبية للبلقان في قرونها السابقة . ولكن مع استمرار القتال فقد كان انخراط العصابات من كل جانب يعني ليس فقط أن القتال اتخذ صفة أكثر ضراوة وخروجاً على القانون بل

إن الأهداف السياسية للحرب أصبحت تتداخل بشكل ميووس منه على المستوى اليومي مع نشاط المتنفعين وتجار السوق السوداء . وكانت الشجاعة نفسها التي دفعت كاكو لقتال الجيش الوطني اليوغسلافي أياً كان افتقاره للسلاح ، هي التي جعلت منه أقرب مرشح لتهديب المؤن التي تحتاجها سرايفو ويحيي الأرباح الطائلة من وراء ذلك . ولم تكن لدى كاكو وسيلو والآخرين «القصة نفسها درات بين صرب البوسنة ومحاربي HVO» أي خطط لتوزيع ما أدخلوه مجاناً . كما لم تكن الحكومة البوسنية في وضع يسمح بالأمر بتوقف تلك الأنشطة حيث إن المقاتلين الموالين لهم كانوا يدافعون بشكل فردي عن مناطق استراتيجية على الخط الأمامي . ولم تتداع قبضة العصابات على سرايفو حتى قبل سلاذيتش رئاسة وزراء البوسنة في أواخر خريف ١٩٩٣ واشترط لذلك إزالة تلك العصابات . وكان الموقف مشابهاً لذلك في أجزاء أخرى من البوسنة : مجتمع هش انخرط فجأة في العسكرية مع زيادة في الخروج على الشرعية ، محاولاً التمسك بمثله في وجه حرب شرسة شنت عليه مع لا مبالاة من العالم ومع المساومات التي اضطر إليها في الداخل من أجل البقاء .

ومع هشاشة الدولة البوسنية لم يكن من المرجح فعل الكثير لتجنب تلك المتناقضات . ولكن غض حكومة سرايفو لوقت طويل عن نشاطات رجال مثل كاكو وسيلو جعل الكثير من البوسنيين العاديين أكثر سخرية بأسرع مما كان محتماً لو كان الوضع غير ذلك . ومع استمرار القتال فإن اليأس من الوضع العسكري أدى بكثير منهم إلى الشك - وهي نظرة هيمنت بشكل خاص في سرايفو وتوزلا - في أن الغرض الحقيقي من الحرب لم يعد النصر بل الربح . ولم يساعد كثيراً احتواء إقطاعيات سيلو وكاكو الخاصة . فبعد موتها فإن كثيراً من الذين كانوا يرهبونهم في حياتهم كانوا ينظرون إليهما بصفتهما المحاربين الوحيدين الذين يملكان الشجاعة الحقيقية على أقل تقدير . كما شك كثيرون في أن تصفيتها لم تكن تمثل سوى الوقوع بين اللصوص ، كما أن كثيرين استرجعوا بطولة كاكو في بداية القتال ، بعد موته (أطلق عليه الرصاص أثناء محاولة الهرب ، كما ذكرت الحكومة بأسلوب رقيق) . وبحلول صيف ١٩٩٤ كان الجنود العاديون على خط القتال يقولون في مرارة أنهم لم يكونوا يدافعون عن بيوتهم بل عن السوق السوداء . ولم يرفع من معنويات الناس وجود

عائلات أصحاب المناصب العليا في حكومة البوسنة خارج البلاد . وقد أخبرني مقاتل في شرق موستار أن «سلازديتش أرسل عائلته إلى باكستان والآخرين على نفس المنوال . إن الأمر سهل بالنسبة لهم . فهم لا يهتمون إذا استمرت هذه القذارة إلى الأبد» .

وسواء صح ذلك أم لا، فقد انتشرت هذه المشاعر بنهاية ١٩٩٣ . وفي عالم الواقع لا تؤدي المعاناة إلى التسامي بل إلى الإفساد . ففي كل يوم للحرب في البوسنة كان الناس العاديون يجدون أنفسهم في مواجهة ظروف لم يعطهم شيء من تعليمهم وخبراتهم السابقة أي أساس للتوافق معها . فمع تعودهم على العيش في رفاهة، كان عليهم أن يتكيفوا مع أشد حالات المشقة . فالناس الذين لم يشعروا قط بالبرد عدا في مواقع التزلج أصبحوا فجأة يقاسون البرودة لعدة شهور متتالية . والذين كانوا يستحمون مرتين يومياً اضطروا للتعود على أخذ حمام بارد مرات قليلة في الشهر . أما الذين اعتادوا السفر فكان عليهم أن يعتادوا أن يظلوا حبيسين في الغرف الضيقة . وأولئك الذين كانوا يتفاخرون بأمانتهم وجدوا أنفسهم يتخذون أقصر السبل لتدبير أمورهم . وربما كان القصف قد أساء إلى سلامة عقولهم - هناك تقديرات تقول إن أكثر من ثلث أطفال سراييفو يعانون إلى درجة ما من أعراض توتر ما بعد الصدمة ، وهو ما يعرف بصدمة القصف - ولكن الظروف التي اضطروا إلى معاشتها كانت إساءة إلى حساسهم بأنهم مخلوقات حية .

لقد كانت التفاصيل الدقيقة أسوأ من أي شيء آخر، وبدأ أنه كلما كان الشخص قبل ذلك مكتفياً ذاتياً، كلما صعب عليه أو عليها أن يتعلم الاعتماد على الآخرين أو أن يستجدي المعروف أو أن يطالب بمعاملة خاصة . وكان سكان الريف والطبقة العاملة يدون أكثر مرونة فقد عاشوا تلك الضرورات قبل بدء القتال . أما بالنسبة لأفراد الطبقة المتوسطة المضربة فإن معاشة هذا الواقع الجديد كان بمثابة الصدمة . فقد قالت لي ذات مساء في سراييفو سيدة اسمها «إميلا سيميتش» : «لقد تعبت من قول شكراً، واعتقد أن أقصى ما أتطلع إليه وقت السلم ألا اضطر مطلقاً إلى قول شكراً مرة ثانية . يا له من تعبير رهيب . أعتقد أنني سأرسل لأصدقائي مظاريف بداخلها نقود وصناديق الشيكولاته . سوف أعطيهم الهدايا وسأعود كما كنت» .

وكانت سيميتش، وهي شخصية أدبية مرموقة ومترجمة معروفة في سرايفو هي الأولى التي اعترفت بأنها هي زوجها، جوران الشاعر الصربي، كانا يميزين نسيباً بمقاييس سرايفو. فقد كان لها أصدقاء في الخارج يحاولون أن يرسلوا إليهما الأشياء، وكانا على علاقة طيبة مع كثير من الصحفيين الأجانب في سرايفو والذين كان يمكن الاعتماد عليهم عادة في محاولة المساعدة. ولكن الضغط النفسي لكونك متلق للصدقات، بل والأكثر مرارة، المهانة وراء ذلك تزايد كثيراً مع استمرار الحصار لدرجة لا تقاوم. لقد تعودت على زيارة إميلا وعلى محاولة ألا أقبل منها كتاباً أو أسطوانة أو برا ثمينة أو إيشارب أو بعض الأغراض المنزلية الصغيرة. وكانت تقول دائماً: «إنني لا أحتاج إلى تلك الأشياء». ولكن ما كانت تقوله في الحقيقة هو أنها تريد استعادة بعض التوازن الطبيعي وبعض التحلل من الضغط الذي ولده لديها كونها مدينة لزوار أجنب. كانت تريد استعادة الشعور بالذات والكرامة التي سلبتها إياها ستان من الحصار.

وصحیح أن إميلا كانت تشكك في دوافع زوار سرايفو. فقد كتبت إلى صديقة تعيش في الخارج تقول: «لقد كنت أحاول أن اكتشف ما يجعلنا محبين إلى الناس الذين يفدون هنا. ولماذا يبدو إعجابهم ويحاملوننا ويحلفون أن ذلك من أجل الصداقة الخالدة؟... إنني أتصور أن الأمر يحدث على هذا النحو. فالصحفي (أو عامل الإغاثة إلخ) يأتي إلى هنا متوقعاً أنه في أدغال «فمعظمهم غير مثقفين» ويكتشف أن هناك بعض الناس في تلك الأدغال مهندمين وعلى درجة من النظافة النسبية، بل ويتكلمون لغة أجنبية... سيكون غاية في الظرف أن نرى ما إذا كانت تلك الصداقات ستعيش على الجانب الآخر من الحدود عندما تتوقف «السلامات» في سرايفو. لا أعتقد هذا ومن هنا أقاوم الإعلان بأننا ضحايا وأبطال إلخ». وفي نهاية خطابها أضافت في استسلام «علينا أن نكون سعداء لتوفر فرصة استخدام بطولتنا. وذلك، وكما تعلم هي تماماً، لأنه مع استمرار الحصار فإن الوضع في سرايفو يصير إلى التبعية الكاملة. وأكثر من ذلك، فقد تحول إلى وضع تسود فيه شريعة الغاب. وبالطبع فإن ما كانت تشير إميلا سيميتش إليه إنها هو أسلوب معاملة الصحافة والأمم المتحدة لسكان سرايفو كأناس مستعمرين. وحتى اللجنة

العليا للإغاثة ، وقد اختزن تجاربها في العالم الثالث ، حيث تولدت لديها عادة الشعور بأنها تعرف ما هو الأفضل وأن على «المحليين» ، كما يطلق عليهم مسؤولو الأمم المتحدة - وهو تعبير يبدو للأذن الغربية لا يزيد عن كونه نسخة حديثة وليس بالضرورة محسنة لكلمة «السكان الأصليين» - أن يفعلوا ما يؤمرون به . وحتى في أفريقيا في التسعينات كان لين عريكة الناس بهذا الشكل موضع تساؤل . أما في البوسنة ، وبخاصة في المدن ، فإن أعضاء اللجنة العليا للإغاثة واللجنة الدولية للصليب الأحمر من المحليين كانوا أكثر تأهيلاً في عملهم من الأعضاء الدوليين الذين تم إرسالهم من جنيف ، وهو ما كان يثير شعوراً بالمرارة لدى أهل سرايفو ، كما وضع في خطاب إميل سيميتش ، في إشارتها إلى نقص ثقافة الأجانب . وكان ذلك مدعاة لحيرة معظم الأجانب .

ومع ذلك ففي نهاية المطاف لا يهم إذا كان أهل سرايفو يملكون شهادات أعلى أو كانت لهم قراءات أكثر من الأجانب الذين جاءوا للمساعدة ، أو كما في حالة قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة ، للسيطرة عليهم رغم كل النوايا والأهداف المعلنة . فلم يعد هناك معنى كبيراً للمهارات التي تعلمها البوسنيون في مجتمعهم المتحضر على طريقة الطبقة المتوسطة . وهناك آخرون ، أقل غروراً من إميل سيميتش أو ربما أكثر واقعية ، استسلموا ببساطة للوضع الذي وجدوا أنفسهم فيه وكونوا صداقات مع المراسلين الأجانب ، الذين يدرك أي مراقب ذكي أنهم لا يستطيعون الخروج عن هذا التفاعل المتبادل ، أو بأمل الحصول على بعض فاجين من القهوة أو مشروب أو حتى فرصة توصيله بالسيارة . وسواء وجد البوسني أنه لن يكلفه الأمر شيئاً من الناحية النفسية إذا هو تكيف مع وضع التبعية أو وجد الأمر شديد الإيلام والمهانة ، فإن أحداً لم يخرج سالماً من هذا الوضع . لقد كان ثمن هذه المزايا الضئيلة المتاحة في أماكن مثل سرايفو وتوزلا - وحتى بالنسبة للأجانب كانت الحياة أسبرطية ، فلم يكن لدينا الكثير لنبدله - هو التبعية للأجانب . بينما كان ثمن رفض مثل تلك الاتصالات - ما لم يكن الشخص في وضع ينال فيه الخطوة لدى المافيا المحلية أو الجيش أو الشخصيات السياسية أو كان جزءاً من ذلك سلفاً أو لديه ما يتاجر فيه ، كما كانت الفتيات يتاجرن بأجسادهن ، هو الحياة في البرد والظلام والعوز .

سألتني سيدة كانت يوماً قاضية ، في حفل استقبال في صالة للفنون أقامها السفير الفرنسي الوافد حديثاً على سرايفو: «هل تعرف أسلوب حياتنا قبل ذلك؟ وهل يمكنك تخيله وأنت تنظر إلى حطام ما كنا فيه؟ لقد كنا نعيش أفضل منكم فأنا أعرف الكثير عن نيويورك وجرائمها وسكانها الفقراء. لم يكن ذلك لدينا شيء من ذلك في البوسنة. كنت تستطيع أن تمشي في الشوارع في سرايفو إلى أي وقت متأخر تشاء» وهنا امتلأت عينها بالدمع «تلك الحياة الرائعة، إنني في شوق يائس إلى عودتها، لم أكن نفس الشخص الذي تراه الآن. فلم أكن المرأة التي تراها الآن، الرثة الفقيرة في تلك الملابس الرثة الكريمة التي لم تستطع أن تخفيها كل الروائح عندي. وكما ترى أن الإنسانية التي كنتها» ثم ابتسمت وبعد صمت كررت: «بالنسبة لنفسي سأكون دوماً نفس الإنسانية التي كنتها قبل كل ذلك».

كان لدى الكثير من أهل سرايفو الشعور نفسه. لقد كانوا يمشون ما اضطروا إلى القيام به من أجل البقاء واستدركت السيدة قائلة: «لم أحسد أحداً مطلقاً قبل الحرب أما الآن فإن الحقد يقتلني. فأنا أفكر في الأشياء التي تملكها جاري وأحياناً أفكر في نفسي قائلة: وغداً عندما تذهب لتحضر الماء سأتسلل وأسرقتها. والأسوأ يكون عندما يأتيها زائر فأتساءل: «ماذا أحضر لها؟، ثم أفكر: يا الله، لقد كنت قاضية قبل أن تصبني لاجئة بائسة. هل حقاً حولتك هذه الحرب إلى أحد المجرمين الذين تعودت أن توبخهم قبل أن تقومي بحبسهم؟» ونظرت في اتجاه آخر. كان ضابط فرنسي يعطي قارورة للزوجين البوسنيين اللذين كانا يتحدثان. ثم هزت رأسها قائلة: «أترى؟ لقد تعجبت وقتها لماذا كنت أتكلم معك. فأنت لم تعطني شراباً. ذلك ما وصلت إليه وما وصلنا إليه جميعاً في البوسنة. لقد صرنا أمة من الشحاذين».

وأثناء حديثها كان «يتشمس» حولنا كاتب بوسني أعرفه قليلاً. كان الجو بارداً وكان يلبس عدة طبقات من السترات تحت الجاكت الجلدي البني. وكان يصغي بتركيز يتجاوز قدرة شخص كان مخموراً. وقال فجأة مقاطعاً لها كما يفعل الرجال البوسنيون سواء أكانوا مخمورين أو وواعين، مع النساء البوسنيات: «نعم شحاذون. إنها كارثة أخلاقية. كارثة أخلاقية. قل لي من فضلك، ما هي الأخلاق، وما الذي أعتقده إذا

لم يكن هناك إله ولا ديمقراطية ولا مبادئ للولايات المتحدة؟ لقد أحببت تلك الأمور والآل كيف أعيش إذا كانت تلك الأمور غير حقيقية؟ وما الذي يمغني من قتلك، أو قتلها، أو أن أفعل ما أريد من البذاءات؟

لم تكن تلك هي الطريقة التي تربت عليها أو تربيت عليها ولا الطريقة التي علمنا أولادنا أن يتصرفوا بها . لقد عرفت كارادزيتش فقد كنا زملاء في اتحاد الكتاب وكان شخصاً لطيفاً . وقد أحببته دائماً حتى وأنا أعتقد أنه طيب أكثر منه شاعر . أما الآن فهو رجل مجنون وسفاح . لذا أين يتركني ذلك؟ إنني أؤمن بالشعر لا بالسياسة ، هل يفترض أن أصبح رجلاً مجنوناً أنا أيضاً؟» ثم توقف وبدأ يلفظ الكلمات ببطء شديد وفي تأن «أفعل . . . بالضبط . . . ما . . . تريده . . . أنت» . ثم أسرع في الحديث وبدأ يطرح السؤال الذي كان العملة السائدة في الحديث بين الأجانب والبوسنيين : «ما الذي تفعله الأمم المتحدة على النهر الشرقي؟ ماذا تفعل؟ في هذه الأيام يتكلمون في نيويورك كما يتكلمون دائماً . لقد مات هنا طفل في الرابعة قرب مصنع في فيليكا كافا . لماذا؟ ليس لدي أدنى إدراك للسبب» . كانت القضية قد تحركت بعيداً وكنا وحدنا .

قال : «هل تستطيع مساعدتي؟»

وفي سرية دسست يدي جيبي الداخلي وسحبت ورقة بمائة مارك وأعطيها له . فشكرني وقبلني على وجعتي وابتعد . وعادت القضية . كانت قد شاهدت المنظر كله وأصبحت نبرتها الآن أكثر وثوقاً مما كانت عليه عندما بدأت الحديث معها وقالت : «إنني غير واثقة مما هو الأسوأ ، الطريقة المهينة التي استجدي بها النقود منك ، أم تعبير الفهم والمعرفة الذي ارتسم على وجهك عندما أعطيتها له . كما ترى . نحن شحاذون . وأنتم أيها الأجانب سائحون . ولا أقول ذلك بأي نية سيئة تجاهك . إنها ببساطة طبيعة الوضع . لقد أفسدتنا تلك الحرب جميعاً . ولست واثقة مما إذا كنا ستعافي . فالمباني يمكن إعادة بنائها فربما سوف يشعر الأوروبيون بذنبهم بحيث يرسلون إلينا بعض المال . وسوف يرغب العرب في إعادة بناء المساجد على ما أظن . ولكننا أصبحنا بضاعة مدمرة - جيل من الشحاذين من مصدومي القصف» .

وحملت السيدة نحو السفير الفرنسي ، الذي كان يتبعه حرسه على بعد محسوب وهو يودع كبار البوسنيين الذين كانوا في استقباله . وكان المعرض ، التي يتألف من أعمال لفنانين فرنسيين والذي كان تعبيراً عن «التضامن» مع سرايفو وجزءاً من مشروع أوروبي لخلق «جسر فني» نحو العاصمة البوسنية ، كان يموج بالتأكيدات بأن سرايفو ستعيش .

راقبت القاضية ذلك بعينها في ثبات ثم قالت : «جميل جداً . لكن كان أمراً في غاية السوء في الوقت ذاته ألا يرسل الفرنسيون جنوداً إلى هنا لحمايتنا . لقد كانوا يستطيعون ذلك ، كما تعلم ، لقد كانت لديهم القدرة طول الوقت . كان الأمر غاية في السهولة بالنسبة لهم . لكنهم بدلاً من ذلك تركونا للموت» .

الفصل السابع

أيا كان طول الفترة التي ظلت مسيرة الموت والتطهير العرقي فيها محتدمة ومتواصلة في البوسنة، وإيا كان تكرار مسؤولي الأمم المتحدة سرا وعلانية أن قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة متواجدة في البوسنة للتدخل فقط «لحماية أنشطة المساعدات الانسانية خلال الحرب»، كما قالها مارك جولدنج وهو رئيس سابق لإدارة عمليات حفظ السلام التابع للأمم المتحدة، فإن البوسنيين العاديين لم يستوعبوا مطلقاً أن الأمم المتحدة تعني ذلك حقاً. فقد كان المفروض أن تكون الأمم المتحدة أكثر أخلاقية من أكثر الحكومات استنارة، ومع ذلك فما كان يحدث في البوسنة كان سقوطاً أخلاقياً صريحاً. كان المفروض أن تساند الأمم المتحدة السلام وقد اصر مسؤولوها على أنها قامت بذلك. وفي التسعينات حتى حافظو السلام كانت لهم شعارات العلاقات العامة. فقد قامت الأمم المتحدة في البوسنة بطبع آلاف الملصقات والملصقات كتب عليها: «قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة، لنعمل من أجل السلام» وفي كل مكتب للأمم المتحدة في البوسنة كانت هناك كومة من الأوراق. كانت أحدها موجهة للأطفال بعنوان «ما تفعله الأمم المتحدة من أجل السلام». وفي العالم المثالي لذلك الكتيب لم ترد إشارة إلى عملية التفويض أو إلى القيود. كانت تزعم أن «قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة» هي «مجموعة كبيرة من الناس من عدد كبير من الدول الذين جاءوا إلى يوغسلافيا السابقة لمحاولة إيقاف الحرب. انها تحاول أن تحمي الناس من الأذى في القتال الدائر، تماماً كما يفعل المدرس الذي يمنع الأولاد المشاكسين من ضربك في المدرسة».

كانت المأساة تكمن في أن العالم الذي صورته ذلك الكتيب هو العالم الذي تخيل كثير من البوسنيين أنهم يعيشونه عند بدء القتال. وقد تكون كلمات كتيب الأمم المتحدة طفولية في بساطتها، ولكن كان موقف البوسنيين على نفس الشاكلة ولكنهم لم يكونوا يؤذون بل كانوا يذبحون. وبدلاً من القيام بعمل ما هو ضروري لحماية

البوسنيين بالقيام بمهمة توصيل المساعدات الانسانية فقد بدا أن الأمم المتحدة لم تفشل في منع الذبح فقط، بل أجازته ضمناً. كان هذا على أقل تقدير هو ما اتضح على أرض الواقع في البوسنة. وحتى حينما اتضح، بالنسبة لكل من البوسنيين والصحفيين الأجانب، ان مسؤولي الأمم المتحدة لا يصلون بنزاهتهم المتبججة إلى درجة التعاون الفعالة التي يبدونها مع صرب البوسنة، فقد كان تقاعسهم مصدر إحباط وارتباك.

لقد بدا وكأن مسؤولي الأمم المتحدة أرادوا إنكار الحقيقة الجوهرية لما حدث في لبوسنة. وبمرور الوقت فإن الكثيرين، وبخاصة داخل قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة - كان مسئولو المفوضية العليا للأجثين التابعة للأمم المتحدة يميلون إلى أن يكونوا في صف البوسنيين أكثر - أصابهم الإحباط مما رأوه من رفض الحكومة البوسنية القبول بهزيمتها. ولم يكن تفكيرهم غامضاً. فقد كانت مهمة قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة تسهيل عمل المفوضية العليا للإغاثة في توصيل المساعدات الإنسانية. فماذا كان يقف في طريقهم؟ القتال. ومن كان يساعد على استمرار القتال؟ إنه جانب الحكومة البوسنية التي لم تكن مستعدة لقبول تمزيق الوطن.

لقد أصبح البوسنيون، بالنسبة للكثيرين في الأمم المتحدة، هم «العقبة في طريق» جهود المساعدة وذلك بمواصلتهم في المقاومة.

ولم يكن غريباً، في ظل تلك الظروف، أن يبدو مسئولو الأمم المتحدة مغتبطين عند الإشارة إلى أن الصرب لم يكونوا وحدهم الأشرار في مأساة البوسنة. قال لي عقيد أمريكي يعمل في قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة في سرايفو مشيراً إلى موقف كل من الصرب والكروات والحكومة البوسنية: «هناك قبعتان سوداء وواحدة رمادية في هذه الحرب» ولكن عندما كان مسئولو الأمم المتحدة يستطيعون أن يطرحوا جانباً عداوتهم الشخصية نحو البوسنيين لإطالتهم الحرب، فإن معظمهم كانوا مستعدين للاعتراف بأن ما حل بمسلمي البوسنة كان إبادة جماعية. وعندما سمع البوسنيون بذلك، ولكن مع سماعهم أيضاً بأن الأمم المتحدة ليست «مفوضة» بعمل شيء إزاءها، فقد أخذوا الاعتراف بالجريمة بعجدية أكثر من التحذير الرسمي واستنتجوا أنه إن عاجلاً أو آجلاً ستثوب الأمم المتحدة إلى رشدّها.

على فضيلته تماماً كما كان فقر الشيوعية مقترنا بطغيانها . فكثير من الذين عرفتهم إعتقدوا بحق انكم في الغرب قد خلقتهم إمبراطورية من العدالة . وذلك هو السبب في أن الناس الذين ربما كانوا أكثر إحاطة بالأمور أصابتهم دهشة بالغة عندما لم يحدث تدخل . لقد شعروا بمثل ما تشعر به وانت تسرق عنوة على مرأى من رجل الشرطة الذي لا يفعل شيئاً لإنقاذك . والآن أنا أعرف وأنت تعرف أن الغرب لا يريد في الواقع أن يكون رجل شرطة - ليس نيابة عن مسلمي البوسنة على أي حال - ولكن الناس في البوسنة لم يكونوا يعرفون ذلك . وعندما أرسل العالم شيئاً أسموه قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة كان من الطبيعي أن يتصور الناس أنها أرسلت لحمايتهم وليس لمجرد حماية إمدادات الاغاثة وعمال المساعدات الانسانية» .

كان من الصعب تجنب تلك التوقعات في سرايفو . وبين حين وآخر كانت تطبخ بالنبرة العنصرية الواضحة للأوروبيين الذين يتوقعون معاملة خاصة من التاريخ . قال لي مرة رجل اعمال من سرايفو في نبرة آسى : «لا أستطيع أن أفهم لماذا لا تفعلون شيئاً من أجلنا . إننا لسنا أفارقة ، نحن اوروبيون متحضرون مثلكم تماماً!» صدرت عنه هذه الكلمات عند مشاهدته لمعرض شرايفو تم تنظيمه في سرايفو في معرض أوبالا وهو معرض طليعي للفنون استمر طوال الحصار بالرغم من كل الظروف . قدم المعرض اعمال مصور بريطاني شاب هو بول لوى ، الذي كان قد عمل في الصومال والبوسنة . كان مجرد العرض يتطلب شجاعة كبيرة ، حيث أن ذكر المأساتين في وقت واحد لم يكن أمراً مقبولاً في سرايفو . وللحق لم يكن ذلك نتيجة لعدم مبالاة رجل الاعمال بمأساة القرن الافريقي ، بل لأنه رفض المقارنة التي حاول لوى ومدير المعرض ، ميرو بوريفاتر ، عقدها بين الوضعين .

إن التقوقع داخل الذات غالباً ما يكون إحدى النتائج المترتبة على المعاناة الشديدة ، ولم تكن نظرة رجل الاعمال غير المتفحصه تجاه مآسي الآخرين نمطاً خاصاً بسرايفو ، بل لكل الناس في اي مكان الذين لا يتوقعون البقاء على قيد الحياة بقية الاسبوع . فإذا كان البوسنيون يمثل هذا «التقوقع على أوريبتهم» الذي لا يعني في حالتهم سوى التقوقع الذاتي ، كما كان يجب مسئولو الأمم المتحدة القول بسخرية ، فقد كان هناك لون من العنصرية المعاكسة كامن في توقع أن يبدأوا شكواهم بتعبيرات

التعاطف مع الصوماليين أو الأفغان أو أهل رواندا . ومع كل ذلك فلم يكن ذلك أيضاً ما كان يجب أهل كيجالي أن يسمعه ، في مايو ٩٤ ، عن البوسنة . إن ما كان يميز رد فعل كثير من البوسنيين بحق هو الدهشة من أن ما كان يحدث إنها يحدث لهم هم . فقد تخيلوا ، مثل مواطني العالم الغني الآخرين ، أنهم سيشاهدون مثل تلك المأساة على شاشة التلفاز لا أن تعانيها أجسادهم . وقد لخصت شابة كانت تعمل في إحدى وكالات الأنباء العالمية ذلك الارتباك المؤلم عندما أعلنت في إحدى أمسيات الصيف أنها كانت تنوي أن تمضي بقية اليوم في «أخذ حمام شمس» ، وأضافت تقول : «بما أن الأمم المتحدة لا تعاملنا كأناس بيض البشرة ، فإن ما يلزمني هو اللون الأسمر» .

على أن ما كان يتأرجح في الميزان بالنسبة للبوسنيين لم يكن ، على المستوى الأعظم ، وضعهم كأوروبيين بيض بل إيمانهم بالعالم كمكان أخلاقي . وبعد عامين من القتال ، أصبحت الأحداث في البلاد الأخرى شيئاً غير محسوس بالنسبة لهم على أي حال . فقد كان البوسنيون العاديون يقلقون بشأن طعامهم وشرابهم ويشغلهم تجنب القناصة والقنابل والاحتفاظ بدفئتهم ، وبعقولهم . وقد يستمع أهل الطبقة المتوسطة إلى BBC أو صوت أمريكا على الموجة القصيرة أو يسألوا الزائرين عما «يحدث» في باريس أو لندن أو نيويورك ولكن مع فقدانهم لحياتهم اليومية كمستهلكين للأشياء وللمعلومات . فلم يكن باستطاعتهم معظم الوقت سوى أن يركزوا فقط على ما كان يجري لهم : على آلامهم وعلى دهشتهم . لقد دأبوا على السؤال عن السبب ، كما كان اليهود يسألون في أعقاب الهولوكوست وكما يسأل الضحايا في كل مكان لماذا لم تكفهر السباوات .

كانت هناك بلاشك أسباب دعائية لدى مسؤولي الحكومة البوسنية في حديثهم عن المذبحة في بلدهم وطرحهم مفترق طرق أخلاقي أمام الغرب . لكن مهما تصور المشائمون فقد كانت دهشتهم حقيقية كذلك . فمن المفارقات المحزنة في الوضع البوسني ان حزب عزت بيغوفيتش لم يكن ملتزماً كما يجب قبل الحرب ببوسنة متعددة الثقافات . ولم يكن ذلك من منطلق الأصولية بالمفهوم الإيراني ، ولكن على المستوى الثقافي على الأقل كان كثير من قادة البوسنة ينجحون إلى عودة سكان البوسنة

المسلمين إلى الإسلام . ولكن مع استمرار القتال ، ومعاناة وموت البوسنيين باسم الحفاظ على دولة متعددة الأعراق ، أصبح التزام قيادة الحزب بالتعددية شديدة الجدية . ولم يكن ذلك يعني انه لم يكن في الحزب أصوليون ، أو أن القتال لم يخلق عالماً من المتعصبين الذين يصرون على ترديد «السلام عليكم» بدلاً من «نهارك سعيد» وينادون بأنهم مجاهدين . لكن الاتجاهات السائدة كانت تسير في الاتجاه المعاكس على مدى الستين الأوليتين من القتال ، بصرف النظر عما راود هؤلاء الذين أرادوا إستبعاد الصراع البوسني كحرب أهلية لا مناص منها أن يتصوروه . ولم يبدأ الاسلاميون يستمتعون ببعض النجاح في التقليل من شأن مبدأ التعددية الثقافية في البوسنة الحضرية وبدأ الحزب نفسه في الانجذاب نحو القومية الإسلامية ، إلا في أواخر عام ١٩٩٤ ، عندما فقد معظم المسلمين الأمل تماماً في اي نتائج عادلة .

وحتى ذلك الوقت استطاع أغلب البوسنيين القادرين على وصف محتتهم في عبارات عقلانية أن يقوموا بذلك بأسلوب التشبيه الأخلاقي . ولم يكونوا في ذلك يلعبون على أوتار الرأي العام العالمي فحسب ، بل كانوا يتحدثون بنفس الأسلوب مع بعضهم البعض : كرر حارس سيلازيتش مراراً في التلفاز البوسني : «إذا لم يتم عمل شيء لصالحنا فذلك يعني أنه لا وجود لشيء اسمه الاخلاقيات في شئون العالم» وذات مرة أضاف : «هل يريد الناس فعلاً في أميركا وبريطانيا وفرنسا أن يعيشوا في عالم كهذا؟ إنني ببساطة لا أستطيع أن أصدق ذلك» . إذا كان البوسنيون يريدون محاولة كسب اهتمام الغرب أو إثبات فكرة أنهم كأناس متحضرين يستحقون معاملة خاصة فلم يكن يجدر بهم أن يسارعوا بالصاق الكارثة التي حلت بهم إلى التداعي الروحي للعالم الغني . ولقد كان علي عزت بيغوفيتش بشكل خاص مبالاً إلى هذا النوع من التفكير . فقد أبدى لي ملاحظة حول أن خمسين عام من الراحة جعلت الناس في الغرب «مرتحن أخلاقياً» ، كما يميل سيلازيتش إلى الإشارة إلى الأزمة الروحية التي تهدد أوروبا والتي كانت اللامبالاة بقضية البوسنة ، كما صورها بهدوء مذهل «أحد أعراضها الثانوية» .

وهناك آخرون ، وهم الذين كانوا إما براجماتيين أو متيمين بالثقافة الغربية لعنوا أنفسهم لسذاجتهم وعدم قدرتهم على نبذ الأمل . فقد قال السينمائي

ادميركينوفيتش، والذي لم يكن ساذجاً سواء من الجانب الشخصي أو السياسي، ذات مرة: «ربما أنني مجرد بلقاني أبله لكن أيا طال أمد هذا الوضع، فإنني لا أستطيع أن أتصور أن العالم سيقف متفرجاً بينما نذبح نحن جميعاً. ولكن ها نحن نذبح هنا، وأنا مازلت على أمل» كذلك قال لي مسئول في مركز الجماعة اليهودية، وهو رجل أعمال صارم عمل في يوغسلافيا السابقة، بلهجة نصف ساخرة ذات مساء: «لقد تربيت على أفلام رعاة البقر. وفي تلك الأفلام يأتي الفرسان دائماً عند النهاية. ولعله يبدو لك من الغباء أنني عندما أنظر إلى السماء وأرى طائرات حلف الناتو تطير فوق رأسي أوصل التفكير: «هذه الطائرات هي فرساننا المتقنين المحدثين، لكنهم لا يفعلون شيئاً من أجلنا».

إن ما لم يكن البوسنيون من كل لون قادرين على تقبله هو التفكير في أنه لا يبالي بهم أحد. فإذا كان الغرب يخاف الصرب أو أنه منحل أخلاقياً، كما يعتقد عزت بيجوفيتش وبعض سياسيي حزبه، فذلك كله يبدو مفهوماً على الأقل. وإذا كان عدم التدخل مبني على نقص في المعلومات والمطلوب إخبار الناس في الغرب مرة أخرى بالمضمون الكامل للمذبحة، فذلك مفهوم كذلك. أما الذي لا يحتمل أي فهم فهو التفسير الذي يستحيل طرحه على أي واحد من أهل سرايفو والقائل أنه بصرف النظر عما أدت إليه خمسون سنة من الرخاء من تراخ أخلاقي فإنها جعلت الغرب جاف المشاعر على نحو غير أخلاقي، وأنه إذا لم يكن هناك تدخل في البوسنة فذلك لأن القوى الغربية لا يهتمها مصير البوسنة بالقدر الذي تضحى فيه حتى بأرواح عدد قليل من جنودها. ومن الناحية الإنسانية كان هذا الإنكار مفهوماً. أو كما يجب زورافكوجريو (وهو استاذ في القانون أدار أفضل محطة إذاعة مستقلة في سرايفو، راديو «زد» - وزد معناها حائط - وكذلك عمل منسقاً لمؤسسة المجتمع المفتوحة في البوسنة التابعة للممول جورج سوروس) أن يردد دائماً: «كل هذا وهم بالطبع ولكن على الناس أن يعيشوا على شيء ما» ولقد كان من غير العقول أن نتوقع من كثير من أهل سرايفو أن يسيروا على نهجه العقلاني هذا في التفكير تماماً مثلما نتوقع من الناس أن يستمروا في التصرف بمثل تلك البطولية التي أبدأها الكثيرون في سرايفو وأماكن أخرى دون أن يتوفر لهم أي أمل في النصر أو النجاة.

ولقد اعتقد كثير من مستولي الأمم المتحدة، المقتنعين بأنه لم يكن هناك أدنى احتمال بتدخل عسكري غربي مطلقاً، أن مؤيدي البوسنة الأجانب - وبخاصة الصحفيين - قد ألحقوا أذى كبيراً بتعزيز تلك الأوهام. ولم يكن الأمر يتعلق بما يقال للبوسنيين، بل تمثل بالآخرى، وكما أصر بعض رجال الأمم المتحدة، في أن الصحفيين، بجعلهم إعلان الحكومة الأميركية بإستحالة التدخل أمراً غير مستساغ سياسياً، وبجعل السخط الشعبي حياً في أوروبا الغربية وبخاصة في فرنسا، عززوا آمالاً كاذبة وحرضوا السلطات البوسنية على قراءة للموقف السياسي مضللة في أساسها. وقد صرح لي مسؤول مدني رفيع في قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة بأن ما كان يمكن أن يفعل الكثير للتخفيف من معاناة الشعب البوسني هو إعلان عام من الأميركيين بأنهم لن يأتوا. وبدلاً من ذلك فقد استمرت إدارة كلينتون حتى ربيع ١٩٩٤ في التلويح بالأمل في التدخل.

ولو أن واشنطن كانت غير مخلصه في ذلك منذ البداية إلا أن الأمور اختلطت عليها، أو أنها أسقطت في يدها وهو ما يبدو واضحاً بصورة متزايدة باسترجاع الاحداث، فإن ايدي الرئيس كلنتون ومستشاريه ستصبح غضبة بدماء البوسنيين مثل الجنرال ميلاديتش. ذلك ان امكانية تدفق المساعدة العسكرية، بين وقت وآخر، هو الذي صلب موقف الحكومة البوسنية فيما يتعلق بمواصلة القتال. وكانت الأمم المتحدة محقة في ذلك. وقد يصبر رئيس وزراء البوسنة حارس سيلازيتس على أن جيش البوسنة سيهزم الصرب، ولكنه يعرف الى اي مدى كان الوضع متدهوراً على أرض المعركة. فبدون التدخل العسكري كان تقسيم البوسنة بشروط ليست في صف الحكومة أمراً محتوماً لا محالة - قبلت الحكومة البوسنية سراً مبدأ إجراء نوع من التقسيم منذ أيام خطة فانس / أو يون - وحقيقة أنه منذ أواخر خريف ١٩٩٤ بدأ الجيش البوسني في تحسين وضعه في ميدان القتال لم تغير الوضع بشكل جذري.

ولكن إذا كان للمرء أن يحكم بالاقوال الصادرة عن واشنطن أو من بعض السياسيين في باريس كذلك - مع غرابة ذلك حيث عارض الفرنسيون التدخل بصرامة منذ البداية - لكان من الصعب الاستنتاج بأن الضربات العسكرية الغربية ضد الصرب ستوقف. كانت هناك فترات قصيرة بين ١٩٩٢، ١٩٩٤ حينها بدا

وكان الولايات المتحدة كانت تتأهب إما للعمل بمفردها أو لإلزام نفسها بالضغط على حلفائها لتأييد التدخل العسكري لحلف الناتو. وبعد ذلك، تعود البوسنيون على منظر الزيارات الطائرة لجنرالات الناتو الأميركيين وعلى وصول الصحافة بالجملة إلى فندق هوليدي إن في سراييفو، مرسلين من رؤساء التحرير الذين كانوا يتوقعون على ما يبدو سقوط القنابل في أية لحظة. وقد يتصنع ذو الخبرة السخرية ولكن حتى هم كان يمكن ان يكونوا عصيين لأيام قليلة. كان من الصعب في هذا الجو حتى على البوسنيين الذين استوعبوا أخيراً النهاية المؤلمة من أن أحداً من الخارج لن يمد لهم يد المساعدة، الاستمرار في الاعتقاد أنهم سيتركون ليواجهوا مصيرهم.

وبالنسبة لمسئولي الحكومة البوسنية لم يكن أمامهم إلا أن يستمروا في محاولة حث الحكومات الأجنبية، وبخاصة الولايات المتحدة، على التدخل. وحتى مع احتمال حدوث التدخل فقد ذكر صغار الضباط البوسنيين في عام ١٩٩٣ أن معلمهم كانوا يخبرونهم بشكل روتيني أن تدريبهم يهدف إلى إعدادهم لهجوم بوسني أخير لن يتم قبل عام ١٩٩٦ على أقل تقدير. ولكن في تلك الأثناء، حتى وهم يتطلعون إلى التدخل وينتظرونه، فقد استلزمت متطلبات البقاء يوماً بيوم من جانب حكومة البوسنة أن يبحث البوسنيون عن المساعدة ليس من الناتو ولا من الفرقة الأمريكية ٨٢ المحمولة جواً، ولكن من اللجنة العليا للإغاثة وقوة الحماية التابعتين للأمم المتحدة. فقد كانت القوى الوحيدة التي تقف بين البوسنيين وقوات الجنرال ميلاد يتش.

وفي سراييفو وفي وسط البوسنة والقطاعات الشرقية لسربيتشا وغوراجده، وبخاصة بعد ان احتل الصرب المناطق المحيطة بتلك الجيوب، أصبح هذا الاعتقاد كاملاً تقريباً. فكلما زاد إجبار الناس على الاحتشاد في المدن، كلما زاد الجوع وانعدمت الراحة وزاد اعتمادهم على المساعدات الإنسانية. ولفترات طويلة نجت أماكن كثيرة مثل ماجلاي - والتي كانت مدناً تجارية وتضاعف عدد سكانها مرتين أو ثلاث بعد التطهير العرقي للمناطق المحيطة - من الهلاك بفضل الإمدادات التي كانت تسقطها طائرات النقل الأمريكية. وبشكل عام، باستثناء وضع سراييفو حيث أنقذ الجسر الجوي للجنة العليا للإغاثة بالفعل أرواح آلاف كثيرة من الناس من الموت جوعاً، فإن جزءاً قليلاً فقط مما قدرت اللجنة العليا للأجتيين حاجة الناس إليه هو

الذي كان يصلهم فعلاً. وقد أوجز ضابط في اللجنة العليا للإغاثة في نهاية ١٩٩٣ ، وهي إحدى أسوأ فترات القصف ونقص الحاجات الأساسية في العاصمة ، الوضع بقوله : «بحسب معدل تدهور الأمور في كل مكان آخر، وأياً ساءت الأحوال هنا فستظل سرايفو جنة البوسنة حتى بقية هذا الشتاء» . وكما قال لاري هولنجورث ، العقيد الإنجليزي السابق ذو اللحية البيضاء والذي كان أحد مسؤولي الإغاثة في البوسنة الأكثر تأثيراً والأكثر صراحة ، فإن الصرب استمروا ليس فقط في «التهام القرى واحدة بعد الأخرى» بل انهم احتجزوا أعداداً من القوافل أكثر مما سمحوا به . وبرغم كل ما يقال عن ان وجود قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة في البوسنة لتسهيل برنامج الإغاثة فلم يكن من سلطة الجنود استخدام القوة عند منع القافلة التي يرافقونها على الحواجز. إذ كان يفترض أنه إذا أمكن المرور بقوة السلاح مرة فسوف يترتب على ذلك ان يكون مرور القوافل التالية أمراً مستحيلاً . وبرغم مزايا هذا الجدل فإن النتيجة العملية هي أن النذر القليل من المساعدة كان يصل إلى الأماكن التي هي في أمس حاجة لها . وكمثال واحد على ذلك أنه خلال الفترة من أغسطس ١٩٩٢ حتى مارس ١٩٩٣ تمكنت ثلاث قوافل فقط للجنة العليا للإغاثة من المرور إلى سريينتشا . ولأن حرب البوسنة لم تكن مسرحية أخلاقية ساذجة ، فإن كثيراً من ذلك النذر القليل لم يذهب إلى السكان الأكثر حاجة اليه بل أخذ طريقه في النهاية إلى المحاربين على جبهة القتال . وكان من المألوف أن ترى أن مواقع الحكومة البوسنية تحميها أكياس الرمل المصنوعة من أكياس أغذية الإغاثة أو من ألواح البلاستيك التي أرسلتها اللجنة العليا للإغاثة للاستعاضة عن النوافذ التي دمرتها القذائف . ولم ير أي من البوسنيين الذين التقاهم المرء غضاضة في ذلك . فالحرب تأتي في المقدمة .

ومع ذلك فقد كان من الصعب على أي مستوى الحفاظ على الجهود السياسية والديبلوماسية والإنسانية في أطرها الصغيرة المنفصلة .

فإذا كان للأمم المتحدة أن تستمر في تسيير قوافل الإغاثة الإنسانية ، فعليها أن تغمض عينيها عن طريقة استخدام بعض الإمدادات . ومن جانبها سرعان ما أصبحت القيادة البوسنية في سرايفو تعتمد على كرم ومعروف قوات الحماية ، حتى وهي تستنكر عدم فعل المزيد ، حتى في أمور أساسية مثل الدخول والخروج من

المدينة المحاصرة . وعلى مدى القتال ، استطاع البوسنيون أن يحفروا نفقين من المدينة ، تحت خطوط الصرب والمطار الذي تسيطر عليه الأمم المتحدة ، إلى قرية تحت إدارة الحكومة واسمها بوتيمير . كان هذان النفقان ، والذان كانا في منتهى السرية حتى ١٩٩٣ عندما سمح لتشاك سوديتيك من نيويورك تايمز ان يعبر في أحدهما (سرت) إشاعة عن نية الأمم المتحدة أن تذيع نبأ وجودهما) وسيلة احضار معظم السلاح والمواد الغذائية من السوق السوداء ووسيلة الجنود وبعض المواطنين للخروج . ولم يكن المرور سهلاً فقد كان النفق منخفضاً ومعتماً ويصعب السير فيه لأي شخص سوى الصغار والأقوياء . فعندما أراد علي عزت بيجوفيتش ، وهو رجل الرابعة والسبعين ، ان يزور قواته في وسط البوسنة - وهي رحلة لن تسهلها قوات الحماية - فقد قيل أنه لزم ركوبه على عربة يد داخل النفق . وعلى أية حال ، كان النفق بالنسبة لمعظم أهل سرايفو يبدو في كوكب آخر . فالحياة اليومية في سرايفو كانت حياة في مدينة أحكم عزلها من جانب الصرب في المقام الأول بالطبع وكذلك من قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة .

وللهذه الأولى بدا تحديد الأمم المتحدة لقواعد الدخول والخروج من سرايفو أمراً لا يمكن احتماله ، فالمدينة في النهاية عاصمة لدولة عضو في الأمم المتحدة . وفي ضوء هذه الحقيقة ونتائجها المباشرة والمتمثلة في ان الصرب في بالي كانوا القادة غير الشرعيين لتمرّد ضد دولة معترف بها دولياً ، فبإمكان المرء أن يتوقع إذعان مسؤولي الأمم المتحدة لرغبات عزت بيجوفيتش ورفاقه . ومن المؤكد أنه كان من المذهل ان ترى مسؤولي الأمور المدنية التابعين للأمم المتحدة يأخذون على عاتقهم تنفيذ الادارة الفعلية لحصار الصرب بتحديد العدد القليل من أهل سرايفو - معظمهم من رجال الحكومة والصحفيين المحليين - الذين يستطيعون الطيران على رحلات الإغاثة التي يستخدمها الصحفيون الأجانب والشخصيات المرموقة من الزائرين في الاياب والذهاب .

كانت طائرات النقل التابعة للناٲو التي تستأجرها اللجنة العليا للاغاثة تعود فارغة في رحلات العودة الى قواعدھا في سبليت وأنكونا وفرانكفورت ، وأذن لم يكن الموضوع مسألة وجود مكان . ولكن ذلك لايمهم . فحسب أقوال الأمم المتحدة لم يكن

لديها «تفويض» بنقل الناس . وعلى أية حال - رغم عدم وجود نص مكتوب - فإن منع الناس من المغادرة كان جزءاً من الاتفاق بين قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة والجنرال ميلاديتش عندما تحلى الصرب عن المطار ليكون تحت سيطرة الأمم المتحدة في أوائل صيف ١٩٩٢ .

ولم يحرم البوسنيون فقط من التصريح بالسفر على رحلات الطائرات بل سرعان ما حددت فقط ٦ رسائل يحملها الصحفيون الأجانب عن أهل سرايفو عند مغادرتهم . قال لي شرطي مدني سويدي تابع للأمم المتحدة عندما اكتشف مخبأً للرسائل في جيب سترتي وصادر معظمها : « أنت صحفي ولست ساعى بريد . ولن اسمح لك بأخذ تلك الرسائل فقد يكون في احداها متفجرات بلاستيكية » وعندما سألته ما إذا كان قد وجد اي سيمنكس او فورمكس اجاب بمتتهى الأمانة : « لا ليس بعد . . . شكراً » ثم تحول الى صحفي بوسني معرفتي به قليلة وأفرغ كل أشياء الرجل الصغيرة ودس يديه فيها . فلا هذا الشرطي ، الذي كان بالمقارنة أقل غطرسة من الفرد العادي في قوات لالام المتحدة (كان يمكن الاعتماد على كتيبة صغيرة من الكولومبيين فقط في التعامل الانساني ، اما الكنديين والاسكندنافيين فكانوا يتصرفون مثل حراس السجون) ولا أى من رؤسائه الذين تحدثت معهم أحسوا بشيء خاطيء في سلوكهم أو ناقشوا مدى اللياقة في أن يحددوا ما ومن يدخل أو يخرج من سرايفو . وعندما يرى المرء الجندي التابع لقوات الأمم المتحدة اثناء العمل ، يفهم السبب في أن كثيراً من الناس في العالم الثالث يتشككون في استخدام عمليات الأمم المتحدة لعمليات حفظ السلام لاقامة شكل جديد من الاستعمار . لقد كان رجال الشرطة المدنية ورؤساؤهم في الشؤون المدنية الذين قابلتهم في البوسنة ، أناساً كان من الممكن أن يناسبوا تماماً الخدمة في منطقة نائية من الهند البريطانية يفرضون القوانين علي أجناس دنيا أعطيت لهم السلطة عليهم . ولاشك أن الشرطة الامبريالية عام ١٨٩٣ كانت مستعدة لتبرير سلوكها بطلب «تفويض» من المكتب الاستعماري في لندن كما يحيل الآن مسؤولو الامم المتحدة جميع الاستفسارات الى مجلس الامن في نيويورك .

لم يكن دور رجال الأمم المتحدة كحراس بوابات محصوراً في الإهانة ونزوة

استعراض السلطة - باسم منع أي تهديد إرهابي محتمل - على القليلين الذين شحوا
تصريحاً بالسفر علي رحلات الإغاثة . بل كانت قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة
تجوب أيضاً ممر المطار لتعبد الأشخاص الذين خاطروا في يأس في مواجهة القنصة
الصرب لكي يغادروا سرايفو . وقد مات كثير من أهل سرايفو عندما كانت الأضواء
الكاشفة لجنود الأمم المتحدة التي تستخدم في تحديد اماكنهم على المدرج تفيد في
تسليط الأنوار عليهم للقنصة الصرب القريين . كما كانت هناك قصص كثيرة عن
افراد من جنود الامم المتحدة يهينون بشكل روتيني أولئك النفر من أهل سرايفو الذين
يمسكون بهم . وقد انكرت الأمم المتحدة ذلك . ولكن حتى عندما كانت تظهر
بعض الامور التي يتم انكارها مثل حادثة ١٩٩٣ عندما قامت ناقلة افراد جنود
مصفحة تابعة لقوات الحماية اثناء دوريتها بالسير فوق البوسنيين المنكمشين قرب
مدرج الإقلاع - فإن مسؤولي الأمم المتحدة بدوا غير نادمين مؤكدين ان منع الناس
من المغادرة كان جزءاً من اتفاقهم مع الصرب . وعندما يقول لهم احد أنه باسم
الانسانية كان يمكن أن يجوبوا بدورياتهم بهمة أقل ، حيث أن هناك في النهاية الكثير
من الجوانب في التفويض لم يستطيعوا او لم يرغبوا في تنفيذها - كحماية الملاذات
الأمنة الست التي حددها مجلس الأمن على سبيل المثال - كانوا عادة يخبون بأن عدم
مرور الدوريات سيجلب عليهم غضب الصرب ويعرض للخطر النقل الجوي
الإنساني .

وقد يكونون على صواب ، رغم أنه يبدو أمراً بعيد الاحتمال ، ، حيث إنه عندما
أراد صرب البوسنة أن يغلقوا المطار لم يبد مطلقاً انهم يحتاجون الى ذريعة لذلك . فقد
كانوا يطلقون بعض من القذائف او يطلقون النار على طائرات الأمم المتحدة . لكن
كانت سمة قرارات الأمم المتحدة في البوسنة أن قوات الحماية لم تحاول مطلقاً أسلوباً
أرق مع البوسنيين ولم تنتظر مطلقاً لترى اذا كان الصرب سيقومون بالانتقام . كان
يمكن للأمم المتحدة أن ترسل دوريات أقل وكان يمكن أن تغمض عينها عن النساء
من دوبرينا او سرايفو وهن يعبرن المطار واذرعتن محملة بالطعام وهن عائدات من
المدينة أو بحقيبة صغيرة اذا كن يحاولن الهرب بها كما كانوا يغمضون أعينهم عن
السوق السوداء التي كانوا يروجونها هم . فقد كان من الأسرار المكشوفة في سرايفو أن

يقوم أفراد من الكتيبة الأوكرانية لقوات الحماية التابعة للأمم المتحدة بتهريب الصرب الذين كانا يريدون مغادرة سرايفو إلى بآلي مقابل ألف مارك . كان العبور غاية في الخطورة حيث كان القناصة الصرب يضعون تلسكوباً بالاشعة تحت الحمراء على بنادقهم ويطلقون النار . ولكن قوات الحماية كانت لا تكل ولا تتعب من إرسال الدوريات لاستعادة الناس الذين تقبض عليهم وعادة ماتصادر الأطعمة التي يأتون بها إلى المدينة . أما ما كان مزعجاً في ذلك كله ، حتى أكثر من السياسة نفسها ، فهو انعدام الخجل لدى الأمم المتحدة وهي تنفذها . لقد بدا الأمر وكأنهم عاهدوا أنفسهم على أنهم الطرف الفاضل - الطرف الفاضل الوحيد حسب تفسيرهم - في المأساة البوسنية وكل ما يفعلونه كان فاضلاً حتى الغلظة في سلوك قوات الحماية في مطار سرايفو . وبهذا التقدير المبالغ فيه للذات المتشرب بين مسؤولي الأمم المتحدة ، كان من السهل ان يتولد لديهم الاحساس بأن قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة اعتبرت نفسها الطرف الحقيقي المضطهد في البوسنة .

ومع ذلك وبالضرورة كانت الحكومة البوسنية مضطرة إلى التعاون مع قوات الحماية حتى في مسائل الدخول والخروج من المدينة .

فاذا احتاج حارس سيلازيتش أو أي مسؤولين حكوميين آخرين مغادرة سرايفو لحضور جولة أخرى من المفاوضات في جنيف ، فإنهم يستطيعون ذلك فقط على متن طائرات الأمم المتحدة . ولهذا الغرض ، كان يمكنهم الوصول إلى المطار بأمان فقط عند ركوب ناقلة المصفحة التابعة للأمم المتحدة . وعندما كان مسؤولو قوات الحماية يتضايقون بالفعل فإن أول خطوة يتخذونها كانت في العادة أن يهددوا بإيقاف استخدام المسؤولين البوسنيين للناقلات المصفحة . ذات مرة شاهدت مظاهرة للبوسنيين ضد الأمم المتحدة قال خلالها ضابط فرنسي كبير هو العقيد فالتين لمسؤول بوسني متواجد إنه « اذا لم يتوقف ذلك فوراً ، ففي المرة الثانية التي يريد فيها جانك (نائب الرئيس) أن يذهب إلى المطار فليذهب على قدميه » . وحتى ساداكو أوجاتا مندوبة اللجنة العليا للاجئين نفسها كانت ضالعة في هذا النوع من التكتيك فبعد فترة عصيبة من القصف وعندما دعا سرايفو إلى إضراب عن الطعام أجابت أوجاتا وكأنها تتعامل مع مجموعة من الأطفال الاشقياء بأن علقت النقل

كان الأمر استعراضا محضاً للقوة . في ذات الوقت ، كانت مخازن اللجنة العليا للإغاثة في سرايفوا مكدسة وكان يمكن لها أن تستغل الفرصة لإعادة ملئها . ولكن بالنسبة لأوجاتا بدا أن الأكثر أهمية ان تعيد إلى الازهان أنه مع كون البوسنة دولة مستقلة فإن اليد العليا كانت لقوات الحماية ومندوب اللجنة العليا للأجئتين التابعين للأمم المتحدة .

وعندما يحدث خطأ، حتى في امر بسيط مثل نقل مسؤول بوسني من أو الى المطار، تسرع الأمم المتحدة الى لوم الجميع عدا نفسها. ففي يناير ١٩٩٣ كان نائب الرئيس، قدرة دكتور حاكيا توراليس، وهو أبرز عضو في حكومة عزت بيجوفيت، عائداً الى سرايفو في عربة لنقل الافراد بعد اجتماع مع مسؤولي الاعانة الانسانية الاثراك في المطار. وعند منحني عند منتصف الطريق الى المدينة، حيث أقام صرب البوسنة بعد ذلك نقطة تفتيش - رغم حقيقة انه بناء على اتفاقية المطار كان يسمح لهم مسبقاً بتفتيش امدادات الاعانة في المطار وانهم قد تخلوا كما هو مفترض عن السيطرة على الطريق للأمم المتحدة- فقد اوقفت قافلته من قبل مائة وخمسين من مقاتلي الصرب وعدد من العربات المصفحة. وتلى ذلك تحفظ عليها. وبدلاً من أن يطلب المساعدة من قوة الحماية الموجودة في المطار فقد قام قائد الكتيبة الفرنسية، العقيد باتريس سارتر، بإبعاد عربات القتال البريطانية التي تصادف وجودها في موقع الحادث. وعندما عرض قائدهم الكابتن بيترجونز الانتشار حول ناقلة الجنود المدرعة التي كان يجلس فيها توراليتس صرفه سارتر قائلاً « هذه مشكلة فرنسية ». وبعد قليل سمح سارتر بفتح مؤخرة الناقلة ليظهر للصرب، كما قال لاحقاً، أنه لا توجد أسلحة أو « مجاهدين » يركبون مع توراليس وعند ذلك بكى توراليس حسبما قاله فرنسي مجند يركب معه. وقد كان لربه مايبره ففي حضور سارتر صوب مقاتل صربي مسدسه ببساطة خلف كتفه وداخل مؤخرة العربة ومزق دكتور نوراليتس إرباً.

وقد برأت لجنة تحقيق تابعة للأمم المتحدة الجنود الفرنسيين وأشارت إلى أنه كان خطأً من البوسنيين بخلق « جو من التوتر » بين الصرب ذلك اليوم . وادعى التقرير ان الصرب « انزعجوا » من وصول الطائفة التركية . ولم يعط البوسنيون قوات الحماية

إشعاراً في الوقت المناسب عن الرحلة .

أما بخصوص العقيد سارتر، فبدلاً من إعادته لوطنه ، سمح له بمواصلة العمل في البوسنة ، وعند عودته الى فرنسا ، نال نوط الشرف مكافأة له ، ثم ارسل لاحقا لقيادة أحد عناصر قوة التدخل الفرنسية في رواندا . ولم تكن هناك مدعاة للدهشة لتبرئة لجنة تحقيق قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة لسارتر بالنسبة اى شخص يعرف كيف كانت قوات الحماية تعامل موظفيها فالتغطية على التنفيذ السيء للأمم المتحدة كان واضحاً مسبقاً من خلال رفضها قبول الإحتمال بتورط افراد قوات الحماية في سوق سوداء واسعة ، وهو ما نبه إليه الصحفيون كثيراً . وقد أرسل القائد الفرنسي لقوات الحماية ، الفريق فيليب موريون بالفعل بعضاً من الجنود الاوكرانيين الى بلدهم ولكنه اصر على ان بذاءاتهم كانت حوادث منفصلة . وبدا انه لا الفساد ولا التقصير كانا سبباً يدعوا الى التقييم الذاتي لدى الرتب العليا في قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة .

وعلى ذلك فقد كانت لدى البوسنيين أسباب كثيرة ليفقدوا ثقتهم في قوات الحماية تماثل على الأقل ماكان لديهم للترحيب بهم . ولكن أحد الاشياء التي تعلمها المرء في البوسنة هو أن الناس قادرون على الإبقاء على العديد من الآراء ، بل وربما هويات متعددة ، في وقت واحد داخل عقولهم . واكثر الامثلة وقاحة وازعاجاً على ذلك بالطبع هو قدرة الكثير من صرب البوسنة على ان يتصوروا أنهم متمدينين ثمناً وقبلين في الأساس في آن واحد . وعلى جانب الحكومة البوسنية كان من المحزن أن تدرك أنه أيا كان تكرار استنكار الناس للأمم المتحدة ، وفي سرايفوا بصفة خاصة ، وعضبتهم تحت احتلالها الجزئي الحميد ، فقد توقع البوسنيون كذلك أن تقوم الأمم المتحدة بدور اكبر من أجلهم وليس فقط ارسال قوافل وطائرات نقل محملة بالمواد الغذائية والدواء . أما بالنسبة للأمم المتحدة فإن البوسنيين ، وإن لم يكونوا أولاداً طيبين ، فهم على الأقل الجانب الواقع عليه معظم الظلم والذين اضطروا للإستسلام من أجل مصلحتهم . وبالنسبة للبوسنيين فربما كانت قوات الحماية يدها قد رفعت يدها وتتصرف بدون فاعلية ولكن لو أن قواتها انتشرت في البوسنة فإنها عاجلاً أو آجلاً كانت ستدخل الى جانبهم لإنقاذهم .

لقد كان الجنرال ماكينزي محقا في ربط ذلك الاعتقاد الخاطئ بالأمل في أن التدخل العسكري للأمم المتحدة آت في آخر المطاف ، وبالنتيجة المترتبة على ذلك الاعتقاد وهي الشعور الحاد بخيبة الأمل عندما لم يتم ذلك وكذلك بالنسبة لمشكلة تسمية جيش الأمم المتحدة إلى البوسنة «بقوة الحماية» . ومع ذلك فإن الصعوبة الأساسية كانت تكمن في أنه إذا كان معظم البوسنيين قد اعتقدوا عام ١٩٩٢ ، ومازال كثير منهم يأملون فيه عام ١٩٩٤ أن قوة دولية ستنقذهم ، فقد كان ذلك لأنهم اعتقدوا انهم يستحقون الانقاذ . وربما يكون ذلك هو شعور جميع الشعوب الضحية في العالم ولكن ما جعل البوسنيين مختلفين عن الافغان أو الروانديين أن حياتهم قبل الحرب قد طبعت في أذهانهم الافتراض بأن مايستحقونه سوف يناولونه كذلك .

عندما اتجهت البوسنة نحو التقسيم ، كان من الواضح ان ذلك هو خطؤهم القاتل .

فقد تصورت حكومة البوسنة أنه إذا استطاعت فقط الدعاية للقضية البوسنية بشكل كاف وإثارة الغضب في الغرب فعندئذ ستضطر القوى الكبرى ، والولايات المتحدة على الأخص ، إلى التدخل أخيراً . وعندما ذهب وارن كريستوف ، وزير خارجية أمريكا ، إلى أوروبا في مارس ١٩٩٣ ظاهرياً لمحاولة أخذ الدعم للموقف الأمريكي وأثناء المعارضة المتشددة من قبل الانجليز والفرنسيين لأي تدخل ، سواء عمداً أو لعدم الكفاءة (كانت هناك مدرسة فكرية في واشنطن ترى أن الامريكان لم يريدوا أبداً عمل أي شيء في المقام الأول ولكنهم يحاولون ارضاء الرأي الداخلي للطبقة العليا) فقد كان يجب ان يكون واضحاً للسلطات البوسنية أنه لم يكن في ذهن الامريكان أي شيء . فبدلاً من أن يتحدث وزارة الخارجية عن خطة الولايات المتحدة ، كما كان يفعل سابقوه ، فإن وارن كريستوف دعا إلى مناقشة محكوم بعدم فائدتها .

وبالطبع لم تكن جولة الدبلوماسيين - بمناقشاتها التي لا تنتهي للخيارات الاقليمية ، واعتبارات السياسة الداخلية ، والتي لا تعني الكثير لدى البوسني - العادي (نادراً ما يكون للغة السياسة معنى عند من جربوا نتائجها) لم تكن بأى حال العائق الوحيد

فقصة انصار يوغسلافيا الذين قضوا على «الفيرماخت» (القوات المسلحة الألمانية) قد صارت حدوتة شعبية اوروبية لم تؤكد الذاكرة صحتها . أما الحقيقة فهي أنه رغم بطولة المقاومة وقدرتها على تحطيم جهود حرب الألمان في البلقان ، فإن قوات تيتو أمضت في الحرب متقهقرة أمام الألمان أكثر مما أمضت تهمهم على التقهقر . وقد تضمنت مسيرة حرباً شرسة من ثلاثة محاور بين كل من غير الأنصار والكروات وكروات البوسنة من اليوستاشا وقوات الصرب الملكية بقيادة جنرال ميهيلوفيتش - وليس حرباً ضد الألمان . وقد خدعوا مسلمو البوسنة مع كل من الكروات الفاشيين الأنصار وبالنسبة لتعدادهم فقد كانت الخسائر في الأرواح بينهم أكبر من أي مجموعة قومية أخرى في البوسنة . وأما من حيث قصة السبع وعشرين فرقة للغير ماخت فتلك هي الخرافة بعينها . فلم يشترك في حرب المحاربين الأنصار سوى فرقتين المائيتين على الجبهة . ولكن راهن تشرشل ضد مبادئ المحافظين وعلى تيتو الشيوعي اثناء الحرب . فقد قال : « كل ما أهتم به هو من يقتل أكبر عدد من الألمان » ، وعندما اعترض سياسي محافظ بأن تيتو كان شيوعياً أجاب تشرشل في نبرة لاذعة : « هل تخطط للعيش في يوغسلافيا بعد الحرب ؟ »

وبعد أن إنشق تيتو عن روسيا عام ١٩٤٨ ، عندما بدأ الغرب بالاهتمام بدعم نظام بلجراد ، فقد كان ترديد قصص تيتو عما حدث بين ١٩٤٠ و ١٩٤٥ مادة للدعاية المرافقة لكل المساعدات التي كانت تتدفق على يوغسلافيا وفق خطة مارشال . لم تكن هناك وسيلة لجعل تيتو الشيوعي شخصية مقبولة ، ولكن تيتو بطل المقاومة كان شيئاً آخر مرة ثانية . فالعزف على أوتار انتصارات قوات الأنصار كان جانباً إيجابياً في النظرة الغربية التي أغفلت باصرار الطبيعة القمعية لدولة تيتو (حدثت عملية مماثلة واجهت رومانيا - شاوشيسكو حتى لحظة لصق «عبقري الكارباثيان» بالحائط واطلاق النار عليه) ، واختارت فقط تأكيد استقلاله في السياسة الخارجية عن الكتلة السوفيتية . وبمجرد تفكك يوغسلافيا ، أثبتت نفس الأساطير أنها متأصلة تفكير البعض بما يكفي لاقناعهم أنه لا يوجد مخرج عسكري فعال لوقف الصرب في البوسنة ، ولأن تكون ذات فائدة للآخرين - مجموعة متناوبة كانت تضم علي فترات معظم الشخصيات الرفيعة في الحكومة البريطانية والفرنسية

- الذين لم يريدوا التعهد وبالتدخل او حتى رفع حظر السلاح عن الحكومة البوسنية .

وكانت هناك عوامل اخرى . فالى حدما ، اغتبط الضباط البريطانيون والفرنسيين لتقديم تلك التقديرات لأنهم كانوا يواجهون بإصرار قليل الخبرة والمعلومات من جانب بعض مساندي الحكومة البوسنية على أن التدخل الغربي سيكون سهلاً نسبياً . ولم تعمل الاصوات المطالبة برفع حظر السلاح عن البوسنيين حساباً للحقائق العسكرية على أرض الواقع . فحول السؤال عن كيفية وصول الاسلحة الى سرايفو او توزلا كانت اجابات مؤيدي هذا الاتجاه غامضة على أحسن تقدير . وعند الضغط عليهم لتقديم إجابة ، يعترفون بأن بعض القوى الخارجية ستقوم باحضار الاسلحة التي يحتاج إليها البوسنيون . ومع ذلك ، فإذا أخذ المرء بكلامهم ، فإن مايدعون إليه كان التدخل العسكري بحذافيره . كان حلف الناتو فقط هو الذي يملك القدرة على اخماد نيران صواريخ وبطاريات مدفعية الصرب المنصوبة حول مطاري سرايفو وتوزلا . كما أن حلف الناتو وحده هو الذي يملك لديه الطائرات المهاجمة القادرة على اسقاط أو على الأقل ، التهديد باسقاط الطائرات الصربية التي ستقوم باعتراض أي محاولة لاحضار الأسلحة الثقيلة أو حتى نظم الصواريخ المضادة للدبابات .

و الواقع أنه لم تكن هناك أية إمكانية مطلقاً لوصول الأسلحة بكميات تكفي قوات حكومة البوسنة بدون تدخل عسكري محدود على الأقل . فربما تراجع عندئذ صرب البوسنة . ولكن لايمكن ان يوافق أي مخطط عسكري في كامل قواه العقلية على افتراض أن مثل هذا العمل يمكن أن يتم مع تجنب حدوث قتال في الوقت ذاته . فما لم تكن للقوات المتدخلة صلاحية القتال فلا محل للتقدم . فالجنود الذين سيقومون بالفعل بعمليات الموت والقتل لهم كل الحق في طلب ذلك من حكوماتهم . كان الأمر خداعاً أخلاقياً ان تظاهر الحكومة البوسنية أنها فقط تريد السلاح . فقد كانوا يحتاجون إلى جنود الناتو ليأتوا لهم به . وكان من قبيل الحماقة الأخلاقية مهما بلغ تفهمنا للأمر ، أن يتظاهر الناشطون في تأييد البوسنة بغير ذلك .

تصرف بعضهم على هذا النحو لأنهم لم يفهموا بصورة حقيقية أبعاد ما يقولون . ويصح ذلك بشكل خاص على الغربيين المؤيدين للبوسنة المتممين لليسا

الأوروبي والأمريكي، والذين كان كثير منهم يساندون الدوائر العسكرية في حكوماتهم هم لأول مرة في حياتهم. ولأنهم أمضوا شبابهم معارضين للقوة، فإنهم لم يمعنوا التفكير فيما ينطوي عليه استخدام القوة. لقد كانت الخيارات في البوسنة ضيقة. فحتى الاستخدام المحدود للقوة العسكرية محكوم بقوانين الحرب - وهو أسلوب آخر للتعبير عن مقتضيات الحرب القاسية. فأيقاف الصرب يعني قتل الكثيرين من الصرب بمن فيهم غير المحاربين الأبرياء. فالحرب هي الحرب. وليس بإرسال شرطة مفخمين للقبض عليهم أو يجعلونهم يكفون عن عدوانهم.

ومع ذلك، فلا يقلل من قدرات قوات الجنرال ميلاديتش أو الجيش الوطني اليوغسلافي أن نصر على أن الصورة التي تشبث بها عسكريو الأمم المتحدة طول قامت الصرب الذي يبلغ عشرة أقدام كانت مبالغاً فيها مثل الافتراض الحالم لمؤيدي التدخل من أنهم أقزام (٢ قدم) أما النفاق الأكبر فهو الادعاء من جانب مسؤولي الأمم المتحدة أنهم يصلون إلى هذه الاستنتاجات على أساس دقيق للمعايير العسكرية الموضوعية. وقد يختلف الرأي فيما يتعلق بالمشروعية، ولكن كان هناك على الأقل دليل يؤيد فكرة عدم تحصن الصرب مطلقاً أمام ضربات الناتو الجوية وأن بعضهم يعلم ذلك، مثلما كان هناك افتراض بأن مثل تلك الهجمات ستكون ضعيفة الأثر على أي من السلطة العسكرية أو على الروح المعنوية للقوات الصربية. فقد ظل الضباط ذو الرتب العالية الأمريكيين والأوروبيين الغربيين يرددون، وبدقة كافية، أنه لم يتم أبداً كسب حرب من الجو - وهو ما يعني ضمناً أنه طالما ظل الناتو غير راغب في إرسال قوات أرضية فلن تستخدم الحملة الجوية أي هدف. على أن المهمة المطلوبة لم تكن تتمثل في هزيمة الصرب بل للنيل من روحهم المعنوية وتدمير الكثير من معداتهم وإدخال تلك النوعية من المعدات العسكرية التي تلزم البوسنيين لجعل جنرال ميلاديتش واعوانه يعيدون التفكير في الحكمة من استمرار حملتهم.

قد يموت الصربون شكوى ولكنهم ليسوا ممن لا يقهرون فحتى والميزان العسكري في جانبهم بشكل جذري، كانت هناك مناسبات كثيرة في العامين الأولين من القتال اهتزت فيها روحهم المعنوية. ففي بانيا لوكا في خريف ١٩٩٣ كانت عناصر من جيش صرب البوسنة على وشك العصيان. ورغم أن مقاتلي التشتيك، وكثير منهم

كانوا «محاربى نهاية الأسبوع» الذين جاءوا إلى البوسنة من صربيا والجبل الأسود، وبأعداد قليلة من المانيا والنمسا. ، للقيام بأعمال قصيرة على جبهة القتال، كانت لديهم شهية القتال، فقد قابلت كثيراً من جنود جيش صرب البوسنة في شتاء ١٩٩٣ الذين ابداو تبرمهم. ومن الواضح أنه كان من الأفضل ان تكون محارباً صربياً في غرفة حصينة فوق سرايفو أو أن تجلس وتشرب خمر سليفوفيتز على جبل فيز شرق توزلا من أن تكون أحد المدافعين عن أى من تلك المدن المعرضين لليران داخل خنادقهم. وأياً ماكان إصرارهم - وإعتقادهم - أنهم راغبون في القتال للأبد، فقد كانت الحياة بالنسبة للمقاتلين على الخطوط الأمامية للصرب تتصف بالسهولة مقارنة بغيرهم فحسب.

وإذا كان الجندي العادي من صرب البوسنة يشعر غالباً بالبرد والمطر، وبالحنين لأسرته، فقد كانت ثقته مفرطة نتيجة سلسلة الانتصارات في القتال. ففيما عدا أماكن قليلة مثل المنطقة حول بريكو، حيث أحرز الجيش البوسني والكروات بعض التكافؤ التكتيكي، فأنا نجد أنه حتى بالنسبة لكتائب صرب البوسنة التي تم نقلها ببساطة من تبعية قيادة الجيش الوطني اليوغسلافي السابق بعد أبريل ١٩٩٢، إلى قيادة جنرال ميلاديتش غالباً ماظهرت بمظهر الجنود غير النظاميين، لقد حولهم الافراط في التلميع والتنظيف الى مايشبه هيئة رامبو. ان مشاهدة هؤلاء الجنود يشون متبخرتين بأشرطة الرأس واللحي حاملين في الغالب ليس مجرد بندقية بل مدفعاً رشاشاً ومسدساً مع تشكيلة من السكاكين المؤثرة، كان يدعو للخوف ولكن بلارهة. وقد علق لي مراقب عسكري تابع للأمم المتحدة ذات مرة على ذلك بقوله إن هذا الاستعداد كان لقتل المدنيين وليس جنود العدو. وقال انه لو كان الصرب يتصورون أنهم ذاهبون لمواجهة اناس سيردون على النار بشكل فعال لكانوا حلوا مؤونة أكبر وسلاحاً أقل ولكناوا أطلقوا نيرانهم بالدفعات القصيرة اللازمة لاصابة الهدف وليس بهذا السيل الهمجي من الدفعات لمحاربين لا يبالون كثيراً أين تسقط طلقاتهم آخر الامر.

ذات مرة أخبرني عسكري أجنبي آخر، وهو بريطاني من مراقبي حفظ السلام التابعين للجماعة الأوروبية - هؤلاء المراقبون في زيمم الابيض وكان معظمهم ضباطاً

سابقين في من الجيوش الغربية ويعرفون في انحاء يوغسلافيا السابقة «رجال الاسب كريم» ويشك في كونهم جواسيس - قال ان أكثر ما أثر فيه فيما يتعلق بالأسلوب الذي حاربت به جميع الأطراف أنه «لا يبدو ان احداً يهتم بفهم الأمور عن بعد». ولم تكن شكوكه تتفق تماماً مع القلق حول قدرات الصرب القتالية التي عبر عنها في ورع زملاؤه في قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة. ومع ذلك، وكما أشار هو، فإن التكتيك الذي استخدمه صرب البوسنة - القصف العنيف ثم التصويب العشوائي من أسلحة صغيرة لإحداث أكبر قدر من الرعب في السكان المدنيين، والاغتصاب اذا صدقنا الروايات عنه - كان تكتيكاً أجيد اختباره إذا كان التطهير العرقي هو الهدف الحقيقي. قال: «عندما تطلق سلاحاً أوتوماتيكياً، فالخرفية كلها تكون في الضغط على الزناد ثم التوقف فوراً عن الضغط. وحتى في هذا الوقت ستشتت بعض الطلقات، لكن هؤلاء الأشخاص بالطبع لا يصوبون على جنود آخرين. إنهم يصوبون على القرية بأكملها ولك أن تقول أنه من وجهة نظرهم فإن كل طلقة يطلقونها ستصيب الهدف».

كان جنود الجيش الوطني اليوغسلافي الذين يكونون العمود الفقري لجيش صرب البوسنة على درجة عالية من التدريب. ولكن في السنة الأولى للقتال، لم يواجهوا أي معارضة تقريباً. فقد بدأ جيش حكومة البوسنة في التشكل في عام ١٩٩٣ فقط في هيئة تزيد قليلاً عن ميليشيا المواطنين. وكان ذلك كافياً لجعل الصرب مفرطي الثقة في أنفسهم. أضف إلى ذلك حقيقة ان دعاية صرب البوسنة أصلت فيهم بلاحد فكرة أن العالم كله كان ضد الصرب وخائفاً منهم في وقت واحد - رغم الكلام العنيف للرئيسين بوش وكلينتون لم يكن هناك تدخل - وتحولت الثقة بالنفس إلى رضاء عن النفس.

ولقد كان المشهد المحزن - عندما مارست قوات الحماية أخيراً حقها الشهير في طلب ضربات جوية لحماية أفراد الأمم المتحدة في غوارجده، في إبريل ١٩٩٤ - للطائرات المهاجمة وهي تقصف وتسقط قنابل محدودة ثم لاترد لاحقاً بقوة عندما إستهدف كوماندوز بريطاني كان يعمل مراقباً جواً متقدماً للضربات وقتل بنيران الصرب وعندما اسقطت طائرة هاريير بريطانية وتكرر اسقاط الطائرات الفرنسية،

كل ذلك كان بمثابة لفخاخرة نائب الجنرال ميلاديتش ، الجنرال جفرو، بأن جيش صرب البوسنة هو « ثالث أفضل الجيوش في أوروبا . »

فلا عجب إذن بحلول عام ١٩٩٤ أن يكون هذا الجيش غير مكترث بطريقة وضع أسلحته الثقيلة . فالمرء يخفى بطارياته عندما يخاف ان تدمرها نيران العدو وليس لمجرد ان يكلف العساكر بعمل شيء .

ومن الواضح ان الصرب لم يجدوا مايرر ذلك الجهد . فما الذي يمكن أن يخطر لهم عندما يسمعون المتحدثين باسم قوات الحماية وهم يوكسدون صعوبة ضرب استحكامات جيش صرب البوسنة ؟ كانوا يعلمون ان أسلحتهم كانت مكشوفة للهجمات الجوية . وتولد نفس الانطباع لدى كثير من المراسلين المتمركزين في سرايفو الذين كانوا يتحركون جيئة وذهاباً عبر الخط بين العاصمة ورتاسة رادوفان كارادزيتش في بالي . وعندما تقود سيارتك على طول « طريق الحرب » الذي بناه الصرب على خط سلسلة الجبال حول المدينة ، كان المرء يمر على خنادق واستحكامات للمورتار والمدفعية لانهاية لها ، ويدون أي ساتر يمنع تدميرها من الجو وضعت الأسلحة ظاهرة للعيان على بعد أمتار قليلة من الطريق . ومن الواضح أنه عندما يتقدم الصرب فإنهم يقيمون مواقع أمامية جديدة ، ولكن في معظم أجزاء البوسنة ظلت الخطوط ثابتة شهراً بعد شهر ولم تنقل الأسلحة على الإطلاق .

وحتى في سرايفو المحاصرة ، والتي تحظى بأكبر قدر من إهتمام الإعلام العالمي ومن ثم كانت لوقت طويل أنسب مكان يضرب فيه الناتو، فقد ظلت أسلحة الصرب حيث وضعوها اول الأمر منذ لحظة خروج الجيش الوطني البوغسلافي من سرايفو والبدء الجاد في الحصار وحتى آخر ساعة من آخر يوم لإنهاء الانذار الاخير للناتو في فبراير ١٩٩٣ والذي أجبر الصرب على الانسحاب أو على تخزين أسلحتهم الثقيلة . إن مجرد إنسحاب الصرب ، عندما طلبت القوى الدولية بشكل جدي أن يفعلوا ذلك ، يوضح أنهم لم يكونوا مستهزئين بقوة الناتو كما تظاهروا بذلك .

ولكن على مدى معظم الفترة التي رزحت فيها سرايفو تحت الحصار، لم يصدق أي من جنود الصرب العاديين ولاقوادهم ان الغرب سوف يستجمع إرادته ويتحرك

ضدّهم . وعندما كان المرء في يزور تلك الاستحكامات كان الجو السائد يوحي بالضجر وليس بالقتالية . كان الجنود يتحدثون عن اسقاط أي طائرة للناتو أو للأمريكان تتجراً على مهاجمتهم ومن وقت لآخر يستعرضون صواريخهم الأرض - جو المحمولة على الاكتاف أمام الكاميرات ولكن نبرات صوتهم كانت تظهر بجلاء أنهم لايتوقعون حدوث مثل تلك الهجمات . فما كان يسمى من قبل في واشنطنون «بتأثير مقديشيو» وجد طريقه الى جبال البوسنة . وقد تفاخر مسؤول من صرب البوسنة وقال مرة « إنكم تظنون أن الرأي العام الأمريكي عندما انزعج قتل ثمانية عشر من جنودكم في إفريقيا . انتظروا حتى تبدأ الأكفان في العودة من البوسنة . إنكم لم تعودوا أمة قوية . إنكم لاتستطيعون أن تواجهوا فكرة موت أطفالكم . أما نحن الصرب فنستطيع مواجهة الموت . فنحن لانخاف وهذا هو السبب في أننا سنهزمكم إذا حضرتم لمساعدة أولئك الأتراك الذي تهيمنون بحبهم» .

كلمات جريئة ومألوفة بالنسبة لأي شخص قضى وقتاً على الجانب الصربي . كان كارادزيتش يجب ان يردد «سوف نكون لكم فيتام التالية» ، ومع ذلك فكثيراً ماكان المزاج العام يتغير ويبدو لفترة وكأن الامريكان على وشك الضرب حقاً . وعندما تلوح تلك التهديدات يتراجع الصرب .. وكان يحدث نوع من التقهقر البلاغيّ يلجأإليه فجأة نفس المسؤولين الذين كانوا يتباهون بالقدرّة الصربية التي لاتقهر حيث يبدأون الحديث عن في رغبة الصرب في الاستشهاد . فيتحولون من نبرة التباهي إلى الإحتجاج والسؤال عن سبب عدم التفهم المطلق من الصحفيين الأجانب للصرب وتفسيراتهم الخبيثة لأهدافهم . ذات مرة قال كارادزيتش لشبكة لمراسل cnn كريستيان أما نبور في في لحظة انفعال مفعم : «عليكم أن تساعدونا على إرساء السلام» . ولقد كان دوماً يقول ان الصرب يريدون فقط العيش في سلام وأنهم يريدون وقف القتال وأنهم يطلبون فقط حق العيش بين اناس لهم نفس العقلية « أي مثل غرب فرجينيا التي لم ترد أن تكون جزءاً من الكنفدرالية أثناء حربكم الأهلية» .

والأكثر أهمية أنه عندما تبدأ القيادة الصربية في الخوف من أن تكون قد تمادت كثيراً وأنهم بسبب نزوة تعطش للدم يدفعون الغرب للتحرك ، كانت تبادر بالسلاح

فجأة لكل أشكال المساعدات الإنسانية للأمم المتحدة بالمرور. وسواء كان ذلك برفع الحواجز أمام امدادات الإغاثة المحشورة في مطار سرايفو او بالساح لقوافل اللجنة العليا للإغاثة بالتحرك بحرية عبر نقاط تفتيش جيش صرب البوسنة نحو المناطق المحاصرة، مثل ماجلاي شبال وسط البوسنة أو تقوم، كما في حالة سرايفو في فبراير ١٩٩٤ وغوراجده في ابريل ١٩٩٤، بسحب الأسلحة الثقيلة من المنطقة المحظورة بأمر الناتو، فقد أعطى الصرب كل دليل على أنهم لا يخافون فقط الضربات الجوية بأكثر مما ذكروا، بل على أنهم كانوا يعتقدون في فاعليتها أيضا بأكثر مما أعتقد المسؤولون العسكريون للأمم المتحدة. ومن ثم، وفي خلال يوم واحد، يتحولون من موقف التصلب الكامل ليصبحوا فجأة متعاونين لدرجة تجعل الزائر خالي الذهن يتعجب من كل تلك الضجة التي تثيرها اللجنة العليا للإغاثة حولهم. ولكن بعد أن يتحول إنتباه العالم عن مذبحه البوسنة ويقل الضغط الشعبي على الحكومات للضغط على الصرب، يعود التصلب والتشدد من جديد ويبدأ إيقاف القوافل ولايسمح لإمدادات الإغاثة في مطار بالمرور سرايفو من قبل الصرب المحتشدين فيما بداوا يسمونه بنقطة عبور حدودية دولية بين المطار والمدينة - وهي نقطة تفتيش اعترضت عليها قوات الحماية في البداية ثم سرعان ما قبلت به كما سبق وقبلت كل صياغة جديدة للاتفاقات التي عقدتها مع الصرب. اما في القرى التي قطعت عنها الإغاثة فقد بدأ الجوع في التزايد وافتقرت المستشفيات ثانياً إلى الأدوية. أما العالم، الذي ارتاح في سعادة من عبء السخط على ما يحدث في البوسنة، فقد اشاح بوجهه بينما جدد الصرب، في جراءة أشد، هجومهم على آخر أجزاء البوسنة التي اشتبهوها ولم يكونوا قد احتلوها بعد.

الفصل الثامن

كان المديرون الحقيقيون لعملية حفظ السلام من مقر السكرتارية العامة في نيويورك معارضين منذ البداية للتورط في البوسنة . ولقد قد كانت عملية قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة في الأصل مقصورة غاماً على كرواتيا وتم تنفيذها بعد التوقيع على إتفاق وقف إطلاق النار الذي توسط فيه سايروس فانس بين الصرب والكروات في نهاية عام ١٩٩١ . وكانت ، بالأسلوب الفني المتبع في الأمم المتحدة ، عملية حفظ سلام كلاسيكية وتقليدية ، بمعنى أنه كان وضعاً خوّل فيه مجلس الأمن قسم عمليات حفظ السلام DPKO نشر قوات بين جانبيين سبق وأرادا وقف القتال ولكن يلزمهم قوات محايدة لمراقبة وقف إطلاق النار المتفق عليه . ورغم وضع مراقبين عسكريين قليلين للأمم المتحدة في البوسنة ، ورغم اختيار قوات الحماية الدولية لسرايفو كمقر رئيسي لعملياتها حتى ينظر إليها على أنها لا تحايي أياً منا لصرب أو الكروات فلم تكن هناك في البداية نية من جانب الأمم المتحدة لاقتراح توسيع التفويض ليشمل البوسنة .

ولا يعني هذا أن ذلك لم يطلب من الأمم المتحدة . وقد استغلت هذه الحقيقة من قبل أولئك الذين اعتقدوا أنه بإعلان استقلال البوسنة فقد قدم عزت بيجوفيتش بذلك مسوغ موتها . وتقول تلك النظرية ان الاثنين وثلاثين بالمائة الصرب من تعداد البوسنة لم يكونوا سيقبلون مطلقاً بالبوسنة المستقلة وكان تجاهل ذلك من قبل سرايفو بمثابة انتحار . ولكن الحقيقة تكمن في أن عزت بيجوفيتش وقع في مصيدة خيار هوسون ، وبمشاركة رئيس مقدونيا ، جليجوروف ، حاول عزت بيجوفيتش في يأس طوال عام ١٩٩١ أن يخرج بمعادلة لاتحاد كونفدرالي يوغسلافي هش .

وكان سلوبودان ميلوسيفيتش هو الذي سيخرج خالي الوفاض من ذلك كله ، ولذلك أصر على أن ما يجب أن يحدث في يوغسلافيا هو زيادة في المركزية — وهي طريقة أخرى للقول بزيادة القوة للصرب وله شخصياً . وكان البقاء في يوغسلافيا

ميؤساً منه لقيادة الحزب البوسني SDA وكذلك مغادرتها. وفي النهاية، وفي ظل ما سيثبت أنه انطباع كاذب بشكل مأساوي من أن أوروبا ستضمن استقلالها، فقد اختارت حكومة البوسنة إجراء استفتاء على استقلالها والذي تم تأييده بفارق واسع، بمساندة من الغالبية الساحقة للمسلمين البوسنيين والكروات (فيما عدا مقاطعة توزلا، - معقل الجناح اليساري أياً كان تكوينها العرقي، وهو أمر يدعو للغرابة) وبمقاطعة من معظم الصرب.

ولكن في حين أن عزت بيجوفيتش أثبت أنه تهادى في تفاؤله عما سيفعله أو لا يفعله الغرب، فقد كان يعرف تماماً أن الطريق الذي اختاره شديد الخطورة. وهذا هو السبب في أن عزت بيجوفيتش ناقش انتشار قوات حفظ السلام في البوسنة مع فانس وعدد من مسؤولي قسم علميات حفظ السلام أثناء زيارتهم لسرايفو قبل بدء القتال بقليل. وكان المسؤولون الدوليون مدركين تماماً لما يمكن أن يتلو من أحداث. ففي ذروة الحرب الكرواتية وحين كانت البوسنة في سلام كتب فانس إلى هانس ديتريش جنشر، وزير الخارجية الألماني، يحذره من أن إصرار ألمانيا على الضغط على المجتمع الأوروبي للاعتراف بكمرواتيا وسلوفينيا سيجعل الحرب في البوسنة حقيقة مؤكدة. ومع ذلك فلم يوافقا على التوصية بإرسال جنود الأمم المتحدة. وحول ذلك قال لي مسئول رفيع في الأمم المتحدة وهو يسترجع الأحداث: «كان يطلب منا في الواقع أن نتشر في مقاطعة من دولة مستقلة لكي نساعد على انفصال تلك المقاطعة».

كان ذلك هو الموقف الذي أبت إدارة عمليات حفظ السلام على اتخاذه حتى بعد أن بدأت المذبحة. ففي مايو ١٩٩٢، بعد شهر من حصار سرايفو، بعث ماراك جولددينج نائب الأمين العام للشؤون السياسية الخاصة والرئيس السابق لإدارة عمليات حفظ السلام، بذاكرة إلى مجلس الأمن قال فيها إنه مع عدم وجود تفويض بحفظ السلام ترتضيه الأطراف - أسلوب مهذب للقول إن كلا الجانبين يريدان القتال - فإن الوضع في البوسنة ليس «ناضجاً» لحفظ السلام. ويوافق الذين شهدوا المداومات على أن الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن، وبضغط من الرأي العام المحلي، فضلوا تجاهل التوصية رغم عدم الاتفاق فيما بينهم على ما يجب عمله في البوسنة. وبعد إصدار سلسلة من النداءات غير المجدية لوقف القتال، أصدر

المجلس في ٣٠ مايو ١٩٩٢ قراراً بفرض عقوبات على «بقية» يوغسلافيا - أي صربيا والجبل الأسود . كما صدق علي إرسال بعثة الإغاثة الإنسانية إلى البوسنة تحت إشراف المفوضية العليا للاجئين وكلف قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة لمساعدة الوكالات الإنسانية في هذا العمل ولضمان إعادة فتح مطار سرايفو، والذي كان وقتها تحت سيطرة الصرب . وفي ٥ يونيو توصلت الأمم المتحدة إلى اتفاق مع الصرب، وفي ٨ يونيو أجاز مجلس الأمن انتشاراً موسعاً لقوات الحماية في البوسنة .

ورغم أن مجلس الأمن أصدر بعد ذلك عدداً مذهلاً من القرارات الخاصة بالبوسنة - أكثر من خمسين على مدى السنتين والنصف سنة التالية - فقد حددت تلك التحركات الأولية كيفية تفسير الأمم المتحدة فيما بعد لما هي مخولة أو غير مخولة بعمله . فقد كانت الأولوية بالنسبة لإدارة عمليات حفظ السلام في نيويورك وقوة الحماية التابعة للأمم المتحدة في الميدان لاستمرار الجهود الإنسانية على أي شيء آخر رغم ان نشاطات مجلس الأمن تضمنت قرارات فرضت مطالب أخرى على المحاربين . فقد تطلب قرار واحد على الأقل وجوب وقف ممارسة التطهير العرقي . وكانت الأمم المتحدة قد فرضت مناطق حظر الطيران فوق البوسنة وإعلان سرايفو وتوزلا وبيهاش وغوارجده وجيبا وسرينيتشا مناطق آمنة . وكانت تلك إجراءات يتعذر ترجمتها في عبارات إنسانية صارمة حيث أنه عندما تم التصديق على القرار فإن الصرب هم الذين يقومون بالقصف من الجو وكذلك بكل عمليات التطهير العرقي تقريباً (كان هذا قبل وقت طويل من محاولة HVO طرد السكان المسلمين حول موستار مثيرين موضوع جرائم الحرب الانتقامية التي تنفذها قوات الحكومة البوسنية) . وفيما يخص «الملاذات الآمنة» ، كما عرفت بسرعة ، فقد كانت جميعها مناطق تحت سيطرة حكومة البوسنة وواقعة تحت الهجوم الصربي .

وقد عارضت السكرتارية العامة للأمم المتحدة كل مطلب بأن تفعل شيئاً أكثر في البوسنة لأنها اعتقدت أن التفويض الوحيد لقوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة كان لزيادة البرامج الإنسانية وأن التصريحات الأخرى لمجلس الأمن بشأن المسائل الأوسع مثل التطهير العرقي لم تحدد دور الأمم المتحدة فيها . وكانت قد عارضت بشدة قرار المناطق الآمنة وقاومت بعناد تنفيذ خطة منطقة حظر الطيران اعتقاداً منها أن كلا الأمرين يمثلان انحيازاً من الأمم المتحدة في القتال . وكان ذلك انتهاكاً لكل

ما اعتقدت إدارة عمليات حفظ السلام أن من واجبها الحفاظ عليه في جهودها لحفظ السلام. وقالوا أنهم لو تصرفوا بغير ذلك لعرضوا للخطر كل مفهوم حفظ السلام.

قال لي مرة مسئول من الأمم المتحدة في زغرب «إننا لن نفقد عملياتنا شرعيتها في العالم كله من أجل المحافظة على الدولة البوسنية». كذلك

صرح شاشي ثارور - وهو روائي هندي معروف ومسئول سابق في المفوضية العليا للإغاثة في حديث له عام ١٩٩٣ بأن تنفيذ قرار الأمم المتحدة المتعلق بمناطق حظر الطيران إنما «يعني وضع الأمم المتحدة في موقف يصبح فيه العاملون في صفوف قواتها لحفظ السلام، المرتدين الأزرق وغير المسلحين بمعدات ثقيلة، يصنعون الحرب والسلام في آن معا! وكما أوضحت المنظمة الدولية لحقوق الإنسان Human Rights Watch في أحد تقاريرها فإن ثمن مثل هذا التصور هو حتمية أن تصبح حقوق الإنسان «جدول الأعمال الضائع» في عمل الأمم المتحدة لحفظ السلام رغم أن «الانتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان غالباً ما تلعب دوراً خطيراً في تغذية النزاع المسلح وتفاسم الأزمات الإنسانية». وكانت الأمم المتحدة قد عينت رئيس الوزراء البولندي السابق، تاديبوس مازوفيكلي ليكون «مقرها الخاص» لحقوق الإنسان في يوغسلافيا السابقة. ورغم أنه كان يطالب الأمم المتحدة بإنفاذ قراراتها هي نفسها الخاصة بحقوق الانسان، وهدد مرة بالاستقالة لأنه لم تكن لديه الرغبة لأن يلعب مكتبه دور «مظلة تخفي إنعدام حيلة المنظمة الدولية» فقد أولى مسئولو الأمم المتحدة جهوده إهتماماً باللسان فقط ولكنهم لم يبذلوا أي جهد لتحديد ما كانوا يقومون به في الميدان من أجل أخذ توصياته في الحسبان والتي ادعوا أنهم يقدرونها كثيراً.

أما أولئك الذين أداروا العملية في البوسنة فلم يتزحزحوا أنملة عن التزامهم بمواصلة أداء دور قوات الحماية للأمم المتحدة على أنه محصور في تخفيف آثار الحرب. وقالوا إن الأمم المتحدة لم ترسل هنا لإنهاء الصراع أو لتعطي حماية حقوق الإنسانية الأولوية. وإذا كان ذلك ما أراده مجلس الأمن، فكان عليه أن يقول ذلك في عبارات صريحة، ورغم ذلك ففي الوقت الحالي، إذا كان لمثل هذا التحسن المطلوب في الموقف أن يتم، فان عليه أن يقوم بذلك من خلال ضغط آخر خارجي أو من خلال

المفاوضات . وهذا العمل متروك للحكومات ولرؤساء فريق التفاوض المشترك للأمم المتحدة والجماعة الأوروبية ، أي فانس وأوين في البداية وبعد ذلك أوين وثرفالด์ ستولتنبرج وزير الخارجية النرويجي السابق والرئيس السابق للجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة الذي حل محل فانس استقالته في مايو ١٩٩٣ . أما إذا أراد المجلس حلاً عسكرياً للأزمة البوسنية فعليه إذن أن يتدخل لا تحت بند حفظ السلام الوارد في الفصل السادس من ميثاق الأمم المتحدة ولكن تحت بند إنفاذ تدابير السلم الوارد في الفصل السابع ، كما فعل في موضوع الكويت . وذات مرة قال لي مسؤول في عمليات حفظ السلام : « كان ذلك أفضل لنا . لم نكن سنشكو لو أنهم سحبوا الأمر من أيدينا وأعلنوا أنهم يريدون إنفاذ السلام وليس فقط حفظ السلام ، وتركونا نقوم بأعمالنا » .

كانت مثل هذه التعليقات تتسم بجو من التلاعب والفسفسطة البيروقراطية وقد كانت كذلك إلى حد ما . فقد كانت السكرتارية العامة للأمم المتحدة منظمة إلى حد كبير جداً من قبل موظفين مدنيين بريطانيين وضعوا بصماتهم القاتمة والمتزمتة على المنظمة . فمن سمات أسلوب عمل الأمم المتحدة ألا يقوم أي موظف مدني في الأمم المتحدة سواء بالاعتراض علناً أو بالاستقالة بسبب مسألة مبدئية حول سياسة البوسنة . وفي الواقع لو سألت المسؤولين المعنيين عن سبب عدم استقالتهم تكون الإجابة أقرب إلي نظرة باهتة ، كما لو أن الفكرة غير واردة في سياق عمل الأمم المتحدة ، أكثر منها دفاعاً متحمساً عن قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة . أما في اللقاءات الخاصة فكان مسئولو الأمم المتحدة قادرين على الاعتراف بأنه ، من المنظور الأخلاقي فإن البوسنيين قد يكونو على حق ، ولكن في من منظور مهمة حفظ السلام التي يديرونها كان المفروض عليهم أن يظلوا على حياد تام . وفي بعض الأوقات قد تكون تلك الحيادية مزخرفة بشكل إيجابي ، كما حدثت عندما قام ياسوشي أكاشي ، المبعوث الخاص للسكرتير العام بمغادرة اجتماع في بالي وأعلن للصحافة أنه يعتقد أن رادوفان كارادزيتش « رجل سلام » مباهياً « بالصدقة » التي نمت بينهما . وقد أدلى بتلك التصريحات الشاذة ، وحتى غير الضرورية من الوجهة الدبلوماسية ، بعد وقت طويل من توصل معظم العالم المتحضر ، بمن فيهم معظم مسئولو الأمم المتحدة ، إلى أن القائد الصربي هو مجرم حرب بكل المقاييس .

كانت كلمات أكاشي مثيرة لغضب الصحفيين الذين يستمعون إليه ، والذين رأى كثير منهم رؤية العين كيف شن كارادزيتش الحرب . وقد بدت أساء الشهرة التي أطلقت عليه وأثارت غضب ضباط الميدان في اللجنة العليا للإغاثة المستائين مثل «التشنيك الميتسويشي» و«رئيس موظفي العلاقات العامة للصرب» ، بدت مناسبة في ذلك اليوم بالذات . لقد بدا على أحسن تقدير تجسيدا لانتصار الأمل على التجربة الذي بدا أنه كان السمة الرئيسية في دبلوماسية الأمم المتحدة ، والأكثر ترجيحاً هو أن أكاشي كان - شأن العديد من المسؤولين العسكريين في قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة الذين عرفهم الصحفيون ، ولم يثقوا فيهم ، وأنا هنا أتكلم عن نفسي - مدافعاً عن الصرب بوجهين ، يحاول بكلماته أن يستبق موقفاً أكثر حزمًا من جانب قوات الناتو . ومع ذلك كان يقال أن أكاشي من أفضل رجال الأمم المتحدة . فقد أرسل إلى يوغسلافيا السابقة بعد إنهاء واحدة من أنجح عمليات حفظ السلام للأمم المتحدة حتى ذلك الوقت وهي البعثة في كمبوديا .

فإذا ما بدا في صورة الساذج في البوسنة فإنه لم يكن بالتأكيد قليل الخبرة .

وإذا كان راغباً في الكذب بخصوص رادوفان كارادزيتش وفي معاملة القتلة وكأنهم يستحقون الاحترام والصدقة مثل ضحاياهم (ظل أكاشي يؤكد «علاقاته الخاصة الجيدة» بقيادة صرب البوسنة) فذلك لأنه ظل شديد الالتزام بالمفهوم القاصر المحدد لمهمة الأمم المتحدة في حفظ السلام . وكما أوضح عندما منع ، منفرداً ، هجمات الناتو على الصرب بعد تجاهل الإنذار الأخير بالانسحاب الكلي من غوارجده في أواخر إبريل ١٩٩٤ ، فإنه سيذهب إلى أبعد الحدود في حفظ كيان هذا المفهوم .

وقد أثبت أكاشي في هذا ، كما أثبت في مجالات كثيرة أخرى ، أنه لا يختلف عن أسلافه . فقد يتكلم بغير حكمة عن مشاعره الحارة تجاه كارادزيتش ، ولكن كان أسلافه هم الذين قبلوا ، تحت ذريعة استمرار المفاوضات ، طلباً من الصرب بالآلا تشير الأمم المتحدة بعد ذلك إلى أن سرايفو مدينة محاصرة . فقد كان الصرب يدعون ويجادلون في أنه «تصادف» أن كل المناطق من سرايفو التي يسيطر عليها الصرب الآن كانت صربية قبل الحرب ، وأنهم لا يهاجمون «المسلمين» بل كانوا فقط يحمون

الصرب من الهجوم . وبمقاييس بالي ، فإن هذا الإدعاء انطوى على نوع من الهمجية لا غير . إما أن تسمع مسئولاً صحافياً محتكاً في قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة ، وهو ضابط كندي محبوب ووثيق المصادر يدعى باري فريور ، وهو يردد كالبيغاء هذا السطر ويبلغ الأوساط الصحفية المفطورة على الشك أن الصرب لا يحاصرون سرايفو ولكنهم كانوا في «مراكز تكتيكية مناسبة» فإنك بهذا تستمع إلى الأمم المتحدة وهي تقلب الحقيقة (رأساً على عقب) . لم يكن مسئولو الأمم المتحدة المعنيون يشعرون بالخل وهم يكذبون لصالح الصرب ، فقد كانت عقيدتهم متزمنة ولا تسمع إلا صوتها ، وبالرجوع إلى أصولها المجردة فإن العقيدة التي عاش عليها رجال الأمم المتحدة حياتهم المهنية تطلبت منهم ان يعتقدوا أنهم غير مفوضين لعمل أي شيء من أجل البوسنيين سوى تخفيف الآثار الإنسانية للقتال كما قالوا هم ، وقد ظلوا يرددون أنه لو أنهم أيدوا التدخل العسكري لكان قد تم تصفية تلك البعثة الإنسانية . وقالوا أنه إما أن نوصل المساعدات الإنسانية أو أن نستخدم القوة . وبالنسبة لحقوق الإنسان فقد كانوا عادة ما يهزون رؤوسهم . وكلهم تقريباً اعتقدوا أن كل الأطراف كانوا يرتكبون جرائم حرب . وفي الواقع كان من الشائع أن تسمع قوة الحماية تصر على أن السبب الوحيد في أن الجانب الحكومي ارتكب جرائم أقل أن فرصة كانت ضئيلة لفعل ذلك .

(وهذا البيت لأودين : «كل من يناهض الشر ، يفعلون الشر في المقابل» يبدو تشخيصاً أكثر دقة) . أما في المقابلات الخاصة ، ففي حين لا ينتكرون مباشرة للجنة جرائم الحرب التي كونتها الأمم المتحدة ، فانهم يوضحون أنهم يشعرون بأن على المرء إما أن يتفاوض مع ميلوسوفيتش وكارادزيتش وميلاديتش والآخرين أو أن يحاول تقديمهم للعدالة ، أما الإدعاء بأنه يستطيع أن يقوم بالعملين معاً فقد يكون شيئاً لطيفاً تقول به الحكومات الغربية أمام مواطنيها ولكنه تصور صياني .

وكما وضح من تصرفات الأمم المتحدة في البوسنة فإن مسئوليتها اعتقدوا أنه ما لم يلتزموا بحيادهم بصراحة فإن مهمة قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة لن تستمر . وبصريح العبارة ، لا يستطيع الصرب أن يقبلوا بالسماح لقوة الحماية التابعة للأمم المتحدة ولا للجنة العليا للإغاثة بالاستمرار في العمل إذا مارست القوات التابعة للأمم المتحدة العمل العسكري : فالقوافل ستوقف وسيتم قتل أو إبعاد أفراد اللجنة

العليا للإغاثة ويوقف الجسر الجوي لسرايفو - وهو أنجح عمل للمجهودات الإنسانية - كما أن المطار محاط بالسلاح الصربي، وبالتالي لا تستطيع الأمم المتحدة أن تأمل في استمرار فتحه لرحلات النقل الجوي إذا بدأ سقوط قنابل حلف الناتو. وأي تفسير أكثر قوة للتفويض الإنساني للأمم المتحدة محكوم بعدم واقعيته. فنظرياً، أعطيت السلطة لقوة الحماية التابعة للأمم المتحدة باستخدام كل الوسائل الممكنة بما في ذلك القوة العسكرية ما تتطلبه من أجل تأمين وصول قوافل الإغاثة إلى غايتها. أما من الناحية العملية، فقد استتجت الأمم المتحدة مبكراً أنه في حالة تحويل قوات حفظ السلام بالضرب (أو حتى التهديد بالضرب) للمرور عبر نقطة التفتيش، مهما كان ذلك مريضاً، فإن كل شيء تعمل الأمم المتحدة من أجله سوف يدمر. وهو ما عبر عنه لي سيرجيو فيراي ميللو، وهو خبير متمرس عمل مثل أكاشي في عمليات الأمم المتحدة في كمبوديا قبل أن يصبح المنسق الإداري الأول لعمليات الأمم المتحدة في سرايفو في أواخر ١٩٩٣ قال: «تستطيع أن تمر بالقوة مرة. وبعد ذلك تكون في حالة حرب، وتنتهي من جميع النواحي العملية الجهود الإنسانية وتكون أنت الخاسر».

والمشكلة في هذه الحجة هو أنها تمثل عقيدة لدى الأمم المتحدة، وليس حقيقة قائمة على تجربة حدثت لقوات حفظ السلام في البوسنة. وفي الواقع، عندما كانت الوحدات الفردية لقوة الحماية تستخدم القوة، كان ذلك يسهل عملها أكثر ولا يصعبه، ففي شمال البوسنة، على سبيل المثال، صمم الجنود البريطانيون المستولون عن مرافقة قوافل الإغاثة من قاعدتهم المتقدمة في قرية كلاداني إلى مدينة توزلا على طريق معروف باسم «زقاق القنابل»، وبدون استخدام البوق، صمموا على البدء في الرد بإطلاق النار على الصرب في التلال المحيطة. وبعد اشتباكات قليلة توقفت تماماً محاولات الصرب لوقف القوافل، وفي وسط البوسنة في أواخر ١٩٩٣، تولى قيادة الكتيبة النوردية المختلطة قائد جديد وهو سويدي شديد البأس واسمه هندريكسون والذي قال لي ذات مرة: «أخبرهم أن يدعوني أمر أو أفجر رؤوسهم الفارغة جميعاً. صحيح، أحياناً لا يقبلون وعندئذ على أن أعود. ولكن لا ضير إذا حاولت. فعليك أن تفعل ذلك في البلقان: أن تصرف كالرجل الصلب أو يبولون فوق رأسك».

ومن جانبها فقد بالت الأمم المتحدة على رأس كل أولئك الذين حاولوا، مثل

هندريكسون، أن يفعلوا شيئاً أكثر. فخلال حصار سربرنتيشا، عندما قرر قائد قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة في البوسنة، الجنرال فيليب موريلون، أن يذهب إلى الإقليم وحاول من خلال بقائه أن يجبر الصرب على وقف القصف، ارتعت السكتارية العامة في نيويورك وأنب بطرس موريلون شخصياً وأخبر الجنرال الفرنسي أنه مذنب بـ «تجاوز التفويض»، وبعبارة أخرى فبدلاً من الكلام عن إنقاذ الأرواح وفرض السلام، قام مرويلون للحظة قصيرة فعلياً بإنقاذ أرواح وفرض قدر من السلام. لم يكن الأمر وكأن موريلون قد أمر جنوده بإطلاق النار على الصرب، بل لقد ذهب ببساطة إلى حيث اعتقد أنه قد يفعل شيئاً جيداً (فالجنرال، أياً كانت القيود المحيطة به، كان لديه الشعور الديجولي القديم بالشرف والعظمة الشخصية). وبعد شهر قليلة، طرد من القيادة وأرسل إلى فرنسا وسرت إشاعة أن الحكومة الفرنسية استجابت لطلب شخصي من بطرس غالي نفسه.

بالنسبة لمن هو متعاطف مثلي مع القضية البوسنية والذين اعتقدوا أن نشاط الأمم المتحدة في محاولة منع أو - بعد الضربة الجوية في غوارجده عام ١٩٩٤ - الحد من التدخل العسكري قد جعلها، مهما كان عن غفلة وعن غير عمد، أداة في المذبحة الجماعية لمسلمي البوسنة، فلن يبرر أي شيء أن نؤكد أن رجال الأمم المتحدة تصرفوا بدافع الإخلاص العنيد لحفظ السلام كما فهموه ولتفويض اعتقدوا أن مجلس الأمن أمرهم بتنفيذه. ولكن يظل من المهم أن نحاول أن نفهم السبب في تصرف الأمم المتحدة على هذا النحو، وفي حين أنه قد يرضينا أن ننسب هذه السياسة إلى نوع من الحباثة التنظيمية الكامنة، فإن الشخصيات التي تدير حفظ السلام التابع للأمم المتحدة تعد بشكل عام من أذكى الموظفين المدنيين في العالم وأكثرهم ثقافة ويميلون لأن يكونوا أكثر تأثراً، وليس أقل، بالمذبحة من أي شخص أو بلد آخر في العالم. والواقع أن ما كان مروعاً بالنسبة للغرباء عن المنطقة هو تلك الفجوة بين الحساسة التي فهم بها كثير من مسؤولي الأمم المتحدة في كل من يوغسلافيا السابقة وفي نيويورك وجنيف ماكان يحدث وبين الإصرار على أنه يجب أن يسمح للمذبحة أن تستمر.

ومع ذلك فكلما زادت مقابلاتي مع مسؤولي الأمم المتحدة، وضح لي أنهم لم يكونوا قط واقعيين في شرك منظمة ربما أكثر تزمناً وبيروقراطية هرمية من أي مؤسسة فيما عدا

العسكرية ، ولكنهم اعتادوا على أن يتخاطبوا معاً بلغة ذاتية المرجعية قد تكون ذات معنى لديهم ولكنها مفتقرة للمعنى في إطار البوسنة . ومن المؤكد أنه بسبب ذلك التقديس الأعمى من قبل الأمم المتحدة «للتفويض» الذي استطاع تقرير بطرس غالي إلى مجلس الأمن بتاريخ ١٦ مارس ١٩٩٤ ، في تقييمه لما إذا كانت قوة الحماية تستمر أو تتوقف ، أن يزيح من أمامه جميع الانتقادات الهامة للعملية . وفي هذا التقرير يقول بطرس غالي : «إنني أدرك أن استمرار الصراع والمأساة في منطقة عمليات قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة منذ تجدد تفويضها قد أدى إلى انتقادات كثيرة وإن كانت غيل مبررة ، لكفاءة أداء هذه القوة» جدير بالاعتبار ولكنه غير مبرر لفعالية القوة» .

واستطرد التقرير يقول ان مثل هذا النقد غير مبرر لأن تطورات معينة «مشجعة» حول سرايفو «مثل وقف اطلاق النار الذي فرضه الناتو» كانت تعني أن التسوية صارت وشيكة . ولكن الأهم أن من الظلم انتقاد ما قامت به الأمم المتحدة في البوسنة لأن انتشار قوة الحماية يجسد إرادة المجتمع الدولي في المساعدة على الوصول إلى مثل هذه التسوية . . . إنها مسؤولية الأطراف أن تنتهز الفرصة التي يتيحها استمرار قوة الحماية لتظهر بتصرفها أنها ملتزمة بالبحث بجدية عن طريق نحو السلام . فإذا أظهرنا ذلك فإن الأمم المتحدة على إستعداد ، كما هي دائماً ، لمساعدتهم .

إن قراءة عبارات مثل هذه بعد قضاء شهر أو إثنين في البوسنة يعني أن تدخل في عالم يبدو أن الحقيقة فيه تقف على رأسها . فإيا ما قد يقوله آكاشي أو بطرس غالي في العلن ، فلم يكن الوضع مشجعاً في وسط مارس ١٩٩٤ ، وأصبح الأمل أضعف في الشهور التالية ، حيث أثبتت المنطقة المحظورة حول غوراجده المفروضة من الناتو أنها نكتة مكشوفة ، وأن التهديد العسكري ليس سوى خدعة وحتى وقف اطلاق النار في سرايفو كان يزداد هشاشة . أما عن موضوع نجاح قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة فهو قول يشبه في الحقيقة قول إحدى الشخصيات في مسرحية هزلية قديمة : «لقد نجحت العملية . فقط مات المريض» . ولو أن مسؤولي الأمم المتحدة تكلموا ببساطة ، كما يفعل عادة بعض الأقل تبصراً فيهم ، عن الأرواح التي تم انقاذها بالنقل الجوي ، أو أنهم أصروا ، كما فعل بعض العسكريين ، على أن البوسنيين هم شرذمة من المتوحشين الذين كان يجدر السماح لهم بأن يواصلوا قتل بعضهم البعض ، لكان ذلك قابلاً للفهم على أقل تقدير . إما الأمر الشاذ فهو أن تسمع أفضل الناس

في قوة الحماية وفي قسم عمليات حفظ السلام يقولون بإخلاص وفي نفس واحد أنهم قاموا بعمل جيد بينما يعترفون في النفس التالي أن الوضع في البوسنة تحول إلى كارثة محققة .

هنا يأتي دور التشويه الاحترافي لمسؤولي حفظ السلام ، فكما قال لي مسؤول في قسم الشؤون المدنية التابع للأمم المتحدة في سراييفو: «عليك أن تتعلم كيف توزع نفسك في هذه المهنة . فأنا أعرف ما فعله الصرب في البوسنة . لقد رأيت الجثث وسمعت بكاء النساء . ولكن لا يهم أين يذهب تعاطفي أو ما أقوله أو ما كنت أريد أن يتم عمله لو أنني كنت صحفياً مثلك . فعملي ليس محاربة الصرب ولا شجبتهم . أنا هنا لمساعدة البوسنة بقدر ما أستطيع ، ولكي أفعل ذلك فليس على فقط أن أبدو محايداً أعامل الصرب والمسلمين على قدم المساواة ولكن حيث أن الصرب هم المتصرفون في هذه الحرب وحيث يلزمك تصريحهم بأن تقوم بمعظم الأمور هنا فقد كان علي أن أكون على وفاق معهم» .

بالنسبة لكثير من مسؤولي حفظ السلام كان التعبير عن عواطفهم الأخلاقية ترفاً بعيد النال . وقد سارع أكثرهم تبصراً بالاعتراف بالوضع الأخلاقي الغامض تورطت فيه هذا الأمم المتحدة بسبب ذلك . كان فريد كاني يسخر وهو يقول أنه لو كانت الأمم المتحدة متواجدة في الثلاثينات لكان كل فرد في أوروبا يتكلم الألمانية ، وبالنسبة لمن تعلم منا خلال سنتين أن يزدروا الأمم المتحدة على حيادها وعلى رضاها المغرور عن نفسها في البوسنة فإن هذا يوجز كل شيء يلزم قوله عن قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة . (اللجنة العليا للأجثين في الأمم المتحدة أمر مختلف تماماً) ولكن كان هناك مسؤولون في الأمم المتحدة استطاعوا الاعتراف بهذا ومع ذلك مازالوا يدافعون عما قاموا به في البوسنة . ولم يكن تعليق فريد كاني بعيداً عن أفكاره عندما كنت في سراييفو، لذلك صعبت وأنا أسمع مسؤولاً في الأمم المتحدة يعلق في ارتجال فيأحد الاجتماعات قائلاً: « كما تعرف ، عندما تتكلم عما لم نستطع القيام به في البوسنة فإن ردي أنه كانت هناك كثير جداً من المواقف لم تكن أداة حفظ السلام ببساطة ملائمة لها . فعلى سبيل المثال ، أعتقد أن الأمم المتحدة ما كانت لتكون فعالة في التعامل مع هتلر في الثلاثينات .

واستطرد قائلا: «إننا متهمون بأننا لم نفعل أكثر في البوسنة ولكن الحقيقة أنه منذ عملية حفظ السلام الأولى عام ١٩٤٧ لم نتجاوز تفويض مجلس الأمن. وبالتأكيد لم نكن في وضع يسمح بعمل ذلك هنا. وعندما تديننا فأعتقد أن ذلك لأننا الرموز الأكثر وضوحا للعالم، وبالتالي لفشل العالم في منع الأشياء الفظيعة التي حدثت في يوغوسلافيا السابقة. ولكن عندما تديننا، فإنك في الواقع تطلق النار على الرسول الوسيط. لوموا حكوماتكم على ما حدث: كان يمكنهم ان يعطونا تفويضا مختلفا. لوموا انفسكم لعدم دفع حكوماتكم للتصرف. فلا معنى لان تلومونا فالأمم المتحدة ليست حكومة العالم. انها منظمة لحكومات العالم. وحفظ السلام ليس سوى اداة نجهزها نحن في الأمم المتحدة اذا طلب منا مجلس الأمم ذلك. إنكم تظنون أننا نتخفى خلف التفويض ولكن الحقيقة أنه يمدنا بالشرعية الوحيدة التي نملكها. إن قيامنا بعمل ما هو أقل مما يطلب مجلس الأمن شيء قد يحدث — وغالبا ما نكون مجبرين — ولكنك وزملاؤك تلومونا لعدم القيام بما هو أكثر. ولكننا لا نفعل ذلك لأننا ببساطة لا نرى أن ذلك وظيفتنا أو حقنا. ولو حاولنا فعل ذلك، لكننا نسلب سلطة الدول الاعضاء، وأقولها لك إنهم لن يتحملوا ذلك لوقت طويل».

لقد انطوى هذا الكلام ضمنا على فكرة أن تكون قوات حفظ السلام إما ملتزمة بموقف المتفرج المحايد المهذب أو ألا يتورطوا على الإطلاق. ورفض أي رأي بدور لها في تفسير التفويض الذي أعطى لها والقرارات المحددة التي أمرت بتنفيذها ولقد بدا أن مسئولو الأمم المتحدة غير متقبلين لفكرة أن القرارات التكتيكية التي تتخذها قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة على أرض الواقع في البوسنة يمكن أن يكون لها الأثر العميق على القرارات التي تتوصل اليها حكومات الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن سواء في الأمم المتحدة أو في المجالس العليا مثل الناتو. وأشاروا بحق إلى أن مجلس الأمن ظل يأمر قوات حفظ السلام بالقيام بأعمال صعبة وغامضة ولكن بعد ذلك لم يكن راغبا في مساندة تلك التفويضات الجديدة حتى بالقدر الأدنى من المال والرجال التي تتطلبها.

والمثال الكلاسيكي على ذلك هو ما يسمى بالملاجيء الآمنة الصادر في مايو ١٩٩٣. فقد قدرت قوات حفظ السلام حاجتها إلى ثلاثين ألف جديدة من الجنود لحماية تلك المناطق. وقال قائد القوة أنه عند اللزوم يستطيع أن يؤدي المهمة بعشرة

الآف من الجنود - أو «الملاجيء الآمنة الخفيفة» كما سرت النكتة في مقرر رئاسة قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة في زغرب - وفي نهاية الأمر، سمح مجلس الأمن بـ ٧٥٠٠ جندي وأخيراً حدد المال اللازم بـ ٣٥٠٠ جندي فقط. وحتى تلك القوات لم يتم التفويض لها إلا بعد عام وبعد كثير من التراجع من الاعضاء الدائمين وسلسلة طويلة لمناورات السياسية من جانب مسؤولي قسم عمليات حفظ السلام. وكما هو الحال مع قرارات الأمم المتحدة في البوسنة غالباً، فإن الغرض المقرر من أي قرار نادراً ما يكون مثل الهدف الحقيقي منه. فقد تم تبني سياسة المناطق الآمنة بعد أن حول صرب البوسنة سربرينيتشا إلى ساحة قتل ضخمة. وكان هناك في فرنسا، بصفة خاصة، ضغط شديد على حكومة ميتران للتدخل العسكري كما كان الضغط يتنامى في بريطانيا. وكان الرأي لدى كثير من مراقبي الأمم المتحدة، داخل وخارج السكرتارية العامة، انه يجب أن يرى الفرنسيون والانكليز وهم يفعلون شيئاً، وتحديد بعض المدن في البوسنة كملاجيء آمنة يظهر ذلك العزم من دون تكليف الأمم المتحدة أو خلف الناتو بعمل الكثير.

وخلافاً لذلك كانت الولايات المتحدة تحبذ هذه السياسة لأنها كانت على أقل تقدير تميل نحو تدخل عسكري متصاعد. وبدا أن إعلان مناطق آمنة تعتبر خطوة في هذا الاتجاه. وكما إتضح، بالطبع، فإن البريطانيين والفرنسيين - الذين عارضوا التدخل في كل خطوة وكان يلزم رؤية كل عمل لهم في هذا الضوء حتى يمكن فهمه جيداً - حصلوا على النصيب الأفضل في هذا. أصبحت سربرينيتشا حظيرة إيواء بالنسبة للاجئين البوسنة، كما أصبحت غوراجده بعد عام، ولم يتم عمل شيء خاص لحماية المناطق الأخرى - بيهاتش وزيبا وتوزلا وسرايفو. أما الولايات المتحدة، وبرغم تعهداتها بمساعدة البوسنيين - كان تلك هي الفترة التي ظل فيها الرئيس كليتتون يصر على أنه «يفضل» رفع حظر السلاح ولكنه لم يستطع أن يجعل الحلفاء يوافقون - قلم ترفض فقط أن تلتزم بإرسال قوات بل خلفت في النهاية وعددها المقطوع منذ وقت طويل بتمويل القوات الملتزمة من الدول الأخرى. وبعد سنة من إصدار قرارات المناطق الآمنة كانت أزمة غوراجده هي التي اضطرت إدارة كليتتون لكي تؤكد مرة أخرى التزامها الأصلي.

وبذلك كان هناك لوم كثير في كل اتجاه. فقد كان مسؤولو الأمم المتحدة مخادعون

عندما تظاهروا بأنهم الطرف الوحيد النزيه في مأساة البوسنة وفي الحقيقة، كانت قوات حفظ السلام تنفذ جدول أعمال سياسياً خاصاً جداً وجيد التخطيط منذ بداية إنتشارها. فقد كان افتراضها الأساسي بسيطاً. إذ رأت الأمم المتحدة أن مجرد تدخل واسع النطاق لمساندة البوسنيين بل وأي نشاط عسكري متزايد، سواء كان ضربات جوية للناتو أو رفع لحظر السلاح ذي الجانب الواحد ضد حكومة البوسنة، يعتبر مخاطرة بكل شيء كانت تحاول تحقيقه في البوسنة. كان معيارها غير أخلاقي باعتبارهم هم - إذ رأى مسئولو الأمم المتحدة أنه لا دخل لهم في الحكم على الصواب والخطأ في الصراع. كذلك لم يكن المعيار سياسياً، حيث إنه رغم كونه حكومة البوسنة دولة معترف بها دولياً وأن «جمهورية» صرب البوسنة إنقلاب غير شرعي، فقد شعرت الأمم المتحدة بأنها مجبرة على أن تتعامل معهم على قدم المساواة «كأطران» أو بوصفهم «الأطراف المتحاربة».

وبالاحرى، أرادت الأمم المتحدة أن تمرر المساعدة وتسهل السلام. فقد أصر جنرال برتراند دي لا برسييل، القائد العام لقوات الأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة في نهاية اكتوبر ١٩٩٤ على أن «مهمة قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة هي حفظ السلام. ليس لدى اعداء. لدى شركاء».

ومن وجهة نظر قوة الحماية كانت طبيعة شروط السلام غير ذات صلة تقريباً. فلم يكن يلزم ان يكون السلام عادلاً أو حتى سلاماً يمكن حفظه. فكل ما كانت تطلبه الأمم المتحدة أن توافق عليه «الأطراف». ومرة ثانية، كان المظهر التي ظهرت به الأمم المتحدة هو أنها منظمة تحاول في حيادية أن تساعد على حل موقف رهيب. ومرة ثانية كذلك، أخفت هذه الواجهة مصالح كانت الأمم المتحدة تجمع على الاعتراف بالدفاع عنها ولكن لم يكن من الصعب معرفتها فإذا كان الغرض من مهمة هو أن توقف الحرب، وكان الطرف الفائز مستعداً للتسوية بينا الطرف الآخر، بشعوره بأنه على حق ولكنه الخاسر، مصمم على مواصلة القتال، فعندئذ فإن من يديرون المهمة يجدون معظم الوقت أن مصالحهم مع الفائزين. فهم والفائزون يريدون السلام في حين أن الطرف المهزوم، الذين استولت عليهم فكرة أن الحق معهم، يرفضون القبول بهزيمتهم، في ظل هذا الالتقاء ومع فهم الفائزين والأمم المتحدة

لذلك، فهما يشتركان في نفس الهدف .

ذلك هو ما حدث بالضبط في البوسنة وبالطبع حزنت الأمم المتحدة على ما قام به صرب البوسنة ولكن طالما ليس لديهم تفويض بعمل شيء حيال ذلك وتفويض خاص لإنهاء معاناة الشعب البوسني فقد وجدت الأمم المتحدة أنها تحاول حث حكومة البوسنة أن تعود إلى صوابها وتستسلم . وقد لا يكون ذلك نتيجة مثالية ولكن على الأقل سيتوقف قتل الناس . وإذا تضمن هذا إلغاء شرعية عدد من دول الأمم المتحدة بصورة أساسية ، فليكن ذلك .

كان من المثير للاهتمام أن اعتراض كل من قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة وإدارة عمليات حفظ السلام على قرار المناطق الآمنة هو أنه لكي يكونوا عادلين و«إنسانيين» بحق كان على القرار أن يطلب نزع سلاح القوات البوسنية في المناطق الست ، والا ستكون تلك المناطق مسرح عمل لإعادة تموين تلك المناطق للقوات الحكومية . كان ذلك معقولاً في لغة حفظ السلام .

وكانت المشكلة تكمن في أنه إذا كانت قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة قد استطاعت في الحقيقة أن تنزع سلاح القوات البوسنية في عاصمة الدولة ، سرايفو، وفي ثاني أكبر مدينة تحت سيطرتها وهي توزلا، وفي المناطق التي كانت تمثل آخر مقاومة بوسنية في أجزاء من الدولة تم تطهيرها عرقياً بصورة كاملة ، إذا كان الأمر كذلك فإنها ستلغي دولة البوسنة بصورة نهائية باسم حماية المواطنين البوسنيين من هجوم الصرب .

ولحسن حظ البوسنة ، فشلت محاولة تغيير القرار . ولكن الاستعداد الذي أبدته الأمم المتحدة للتضحية بالبوسنة لإسعاد البوسنيين يملأ مجلدات لما اعتقدت انها تقوم به في الدولة . وكما أدرك أي غريب قضى أي وقت في البوسنة فإن هذا الالتقاء في المصالح بين الأمم المتحدة والمليشيات الصربية لم يكن وضعاً استثنائياً بل كشف عن نفسه في الواقع بصورة يومية تقريباً . ومع ذلك فقد كان واضحاً جداً متى سيقوم الصرب بهجوم . وعادة عندما يقومون بذلك تكون الخسائر في الأرواح بين المدنيين رهيبية وتتناولها الصحافة ويزيد الضغط في الغرب من أجل نوع من التدخل . وفي عدة مناسبات فإن الأمر الوحيد الذي منع وصول قاذفات القنابل كان حركة وقائية

من قوة الحماية .

فعلى سبيل المثال ، عندما احتلت قوات ميلاديتش اخر نقطتين هامتين فوق سرايفو يوليو ١٩٩٣ وهما جبل اجمان وجبل بيلبسكا فقد بدا وكأن الأمم المتحدة قد ترسل طائرات مهاجمة لرد الصرب ، وعند تلك النقطة قام قائد قوة الحماية في البوسنة ، وهو الفريق فرانسيس بريكمونت البلجيكي ونائبه البرجادر البريطاني جاي دي فير هايز ، والذي كانت علاقاته الطيبة الواضحة مع كارادزيتش وميلاديتش مصدرا للدهشة والسخط الشديد في سرايفو ، قاما بتدريج اتفاقية يسمح الصرب بموجبها لقوة حفظ السلام الفرنسية بالتمركز على خط الجبهة الجديد ويتراجع الصرب قليلا ولكن ليس بالقدر الذي يجعل خطوط الفرنسيين والمليشيات الصربية منفصلة بحيث تستطيع الطائرات المهاجمة أن تفعل شيئا .

كانت الأمم المتحدة تقول إن اتفاق فصل القوات المزعوم كان نصرا كبيراً للسلام - كان يشاع على نطاق واسع أنها من صنع هايز ورئيس الشؤون المدنية للأمم المتحدة في سرايفو فيكتور اندرييف الروسي . وقد أصر مسئولو الأمم المتحدة للصحافة أنه «لا حاجة» للضربات الجوية . ولكن في الحقيقة فإنه بوضع قوات حفظ السلام قريباً من الصرب بحيث تقتل الضربات الجوية من الفرنسيين مثل عدد التشتيك فإن الأمم المتحدة لم تتصرف كمراقب محايد بل نجحت في التأكيد على أن رغباتها - وفوق كل شيء الرغبة في منع التدخل - قد انتصرت . وهكذا مرة أخرى تتلاقى المصالح . فبوضع العقبات أمام الضربات الجوية تمكنت الأمم المتحدة من الحفاظ على مهمتها وتمكن الصرب من المحافظة على مكاسبهم على أرض المعركة . فلا عجب أن تكون العلاقة بين الصرب وقادة قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة سمناً على عسل . فأثناء معركة جبل إيجمان ، وكما في كثير من المعارك الاخرى سابقاً ولاحقاً ، كانت الأمم المتحدة أفضل صديق للصرب . وبدا الأمر وكأن طائرات الناتو لا يمكنها أن تقتل الجنود الفرنسيين . أو بمعنى أوضح ، بدا أن أيا من قوة الحماية أو المتشددين في البالي لم يكونوا غافلين عن تلك الحقيقة .

كذلك لم يكن يبدو أن مسئولو الأمم المتحدة في شك من صحة مثل تلك الأفعال . فإلهم تجنب قتال آخر وحسب . وهذا يعني أن يهدأ الوضع عندما يتهدى

الصرب ويندرج تحت هذا عادة عدم الاستجابة مطلقاً والانتظار حتى تتفجر الأزمة . فعندما قام الصرب بالهجوم على قوات الأمم المتحدة مباشرة ، كما كانوا يفعلون من وقت لآخر ، فإن القوة لم تستخدم مطلقاً أو استخدمت على نطاق ضيق بحيث لم يكن استخدامها فقط بلا فاعلية عسكرياً بل أظهرت للصرب الا يخافوا من قوة الحماية للأمم المتحدة ، كما حدث عندما أمرت بضربتين جويتين لمساعدة رجالها في غوراجده في ابريل ١٩٩٤ . وقد شجع ذلك الصرب ، وإن كانوا ليسوا بحاجة لذلك ، على الشعور بأنهم يستطيعون أن يفعلوا ما يشاءون في البوسنة . فإياً ما كان يفعله الصرب مع الأمم المتحدة فقد ارادت الأمم المتحدة أن تتفاوض مع الصرب . وعلى مدى سنتين ، وكما تعود المراسلون على البلاغات الرسمية المتفائلة في حذر من قوة الحماية معلنة أنه سيتم هذه المرة عقد صفقة ، فقد سقطت بوسانسكي برود وسريسكا وجايسا وزيبا . كما تم تطهير بانياالوكا وتدمير سرايفو وتحولت سربيتشيا وغوراجده إلى معسكرات ضخمة للأجثين المسلمين . وفي منتصف ١٩٩٣ قال ديفيد أوين «إننا نتحرك بصعوبة نحو تسوية سلمية» ، وكان يجدر به أن يقول أن جنرال ميلاديتش يتحرك بصعوبة نحو النصر .

ويمكن انتقاء الأمثلة في كل فترة من الحرب على العلاقة الحميمة بين الأمم المتحدة والصرب . وربما وصل الأمر إلى أسفل الدرك عندما عقد أكاشي اتفاقاً سرياً مع الجنرال ميلاديتش لمرافقة سبع دبابات لجيش صرب البوسنة عبر المنطقة المحظورة حول سرايفو . كانت تلك قضية خانت فيها الأمم المتحدة ليس فقط التفويض بحفظ السلام ، بالسماح للصرب بإعادة ترتيب وضع الأسلحة على جبهة أخرى على راحتها ، بل خانت كذلك قرار الناتو بخصوص المنطقة المحظورة التي يفترض ان قوة الحماية للأمم المتحدة تشرف عليها . ولم يكن أكاشي أو رؤساؤه في نيويورك آسفين على هذه الصفقة . فقد قالوا أن الصرب أعطوهم شيئاً في المقابل ، هو بالتحديد حق نقل مائة وخمسين آخرين من قوات الحماية إلى غوراجده وتمركز المراقبين العسكريين للأمم المتحدة على الخط الأمامي في بركو في شمال شرق البوسنة — وهي المنطقة التي يوجه الجنرال ميلاديتش اتهامه إليها بعد تدمير غوراجده .

وقالت قوة الحماية وإدارة عمليات حفظ السلام تبريراً للأمر: ما قيمة سبع دبابات صربية أخرى مقارنة بتلك «الانجازات»؟ ومع ذلك أصر هؤلاء المسؤولون

أنفسهم على أنهم كانوا فقط ينفذون تفويض مجلس الأمن ولم يكن ذلك من عندياتهم. ولم يحصل الصرب فقط على صفقة من الأمم المتحدة، كما هي العادة، ما كان يصح أبداً أن تقدم لهم، ولكن، عندما إنكشفت الصفقة وحاول أكاشي المحرج ان يلغيها، تحركت دبابات جيش صرب البوسنة داخل المنطقة المحظورة على الفور. ومنذ اضطر أكاشي للسماح باستخدام القوة الجوية لم يكن هناك ما تستطيع الأمم المتحدة أو الناتو أن يفعلاه لوقفهم. بل إن دبابة تقدمت على مرأى من قوة الحماية المرافقة. كان هناك طابور من ثلاث عربات: الدبابة الصربية فوق الشاحنة ثم عربة مرافقة صربية ثم العربة المرافقة لقوة الحماية. وقد أعلن المكتب الصحفي لقوة الحماية في اليوم التالي ان العربة المرافقة الصربية بدأت فجأة في التحرك ببطء جيئة وذهاباً عبر الطريق لحجب الرؤية عن الموجودين في عربة قوة الحماية. وأثناء ذلك أسرع الشاحنة التي تحمل الدبابة بالتقدم. وأعلن العقيد إيريك شابيرون المتحدث باسم قوة الحماية لرجال الصحافة ما يلي: «لقد فقدناها ونبحث عنها في كل مكان داخل المنطقة المحظورة»

لم تكن قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة لا تجد غضاضة فقط في ترك الصرب يفعلون ما يحلو لهم في البوسنيين، بل أثبتوا طوال القتال أنهم راغبون في ترك الصرب يفعلون ما يريدون بقوات الأمم المتحدة. وهناك مثال صارخ على ذلك: فأثناء الفترة نفسها من صيف ١٩٩٣، والتي كان الجنرالان هايزو بريكمونت يتلمسان طريقا لمنع الناتو من طرد التشيتنيك من جبل ايجيان، اختار الصرب الهجوم على وحدة فرنسية أقامت معسكراً قرب أنقاض ستاد زيترا الاولمبي في سرايفو، حيث قام جيش صرب البوسنة باطلاق اكثر من ثمانين قذيفة على الوحدة الفرنسية ودمروا عدداً من عرباتها رغم عدم قتل أي من أفرادها وهذا معجزة، وتحاذل جنرال بريكمونت عن إعطاء الأمر بالرد مفسراً ذلك لاحقاً بأنه لم يكن يريد أن يعرض للخطر محادثات السلام التي كانت على وشك البدء ثانية في جنيف. وبينما كانت الشاحنات تسحب عربات نقل الجنود المدمرة في شوارع سرايفو، اتضح أن السكان المحليين كانوا يهتفون في ازدراء. وقال لي أحدهم: «على الأقل هناك ثمانين قذيفة لن يصوبها التشيتنيك نحونا».

ومع ذلك فقد كان كلا القرارين - التعامل مع الصرب وعدم الرغبة في الرد بنفس الأسلوب على النيران المباشرة من الخطوط الصربية - متفقين تماماً مع أهداف الأمم

المتحدة وعملياتها في البوسنة . ومن دون التأكيد على أن هايز واندرريف قاما فعلاً بإعطاء ميلاديتش مخرجاً من أزمة الإيجان ، فقد أخبرني أحد مسؤولي الأمم المتحدة لاحقاً أنهم لو كانوا قد فعلوا ذلك فلا غبار عليهم ، حيث قال : «لقد كنا وسطاء في هذا الموقف . يقول لنا الصرب بما يستطيعون عمله ودورنا أن نقول : حسناً . إذن عليكم أن تفعلوا ذلك . . وبالطبع نحن نرحب بأن يفعلوا كل ما في استطاعتهم . هذا هو ما تدور حوله مفاوضاتنا معهم . ولكن ليس في التفويض ما يسمح بإجبارهم على اتخاذ قرار معين ، كما أنه ليس من مهمتنا أن نجبر الجانب الصربي على إتخاذ قرارهم . فكل ما نفعله هو المساعدة على إتفاق الأطراف» .

ولم تكن المسألة ببساطة أن الأمم المتحدة تجد نفسها موضوعياً على وفاق مع الصرب وليس مع موقف الحكومة البوسنية فيما يتعلق بفرض السلام بسرعة ، رغم أن ذلك كان جزءاً كبيراً منها . والواقع أنه كان من رأى كثير من مسؤولي الأمم المتحدة أن المجرمين الحقيقيين في حادثة تفكك يوغسلافيا لم يكونوا كارادزيتش أو ميلوسوفيتش وبل فرانكو تودمان وهانز ديتريش غنشر وعلي عزت بيغوفيتش مع الترتيب التنازلي في إلقاء اللوم . ولقد اعترفوا أن عزت بيغوفيتش حاول قدر المستطاع الإبقاء على وحدة يوغسلافيا . لكن مع اعتبار ميلوسوفيتش فوق أي طعن فقد توصلوا إلى أن عزت بيغوفيتش يتحمل مسؤولية القبول بأي شيء يرغب القائد الصربي في تقديمه له . ذلك ما اعتقدوا أنه الموقف الصحيح في ١٩٩١ وقابل للتطبيق بنفس الدرجة عام ١٩٩٤ .

ولم يكن هناك مجال لإنكار أن صرب البوسنة قد حققوا بسرعة معظم أهدافهم العسكرية وعند بداية ١٩٩٤ كانوا يضغطون من أجل وقف إطلاق النار . وكان هذا في واقع الأمر تحديدا لخطوط التقسيم في البوسنة حسبما تم في ميدان القتال . ولكن من أجل الوصول إلى السلام ، أي سلام ، كانت الأمم المتحدة راغبة في مساهمة الوضع . وبدهياً يكون الجانب البوسني ، الذي كان في مفهوم الأمم المتحدة ، كما قيل عن الأيرلنديين ، غير جاد في حرية بلده ، هو الميعق لذلك . فقد كان يريد تسوية بالقوة أولاً وبعد ذلك فقط يكون وقف إطلاق النار . في عام ١٩٩١ في كرواتيا طالبت خطة فانس بالسماح بعودة من طردوا من مناطق بلدهم التي كانت تحت الاحتلال الصربي وأن تتولى الأمم المتحدة السيطرة على المناطق المتنازع عليها ، أو ما

ولم تتغير بعد ذلك . فإذا استطاعت قوة الحماية وإدارة عمليات حفظ السلام القبول ، كما فعلوا في ٩ أبريل ١٩٩٣ بعد اسبوع من تحرير الأمم المتحدة لقرار بتحويل الناتو بفرض حظر الطيران فوق البوسنة ، بقيام الجنرال ميلاديتش بالطيران في مروحية القيادة لحضور اجتماع مع جنرال موريلون ، فمن الواضح انها ستقبل بأي شيء يجرؤ الصرب على تقديمه . قال صديق لي من سرايفو في ذلك الوقت ساخراً : « بهذا المعدل الذي يسرون عليه فإنهم سيطلقون على إذلال النفس إسماً قبيحاً » .

لكن محاولات الأمم المتحدة لعقد صداقة مع الصرب كانت تقوم على ما هو أكبر من شعور جنرالات قوة الحماية بالراحة مع جيش صرب البوسنة أكثر من راحتهم مع البوسنيين ، أو من تفضيل مسؤولي الأمم المتحدة المدنيين للسلام بأي ثمن واستعدادهم للتضحية بأي مبدأ باسم جهود المساعدات الانسانية - رغم أنه مع مرور الوقت فقد وضع تماماً التناقض بين موقف قوة الحماية للأمم المتحدة نحو حكومة البوسنة وصرب البوسنة . وغالباً ما علق مسئولو اللجنة العليا للإغاثة ، الذين رافقوا مسؤولي قوة الحماية إلى الاجتماعات في كل من رئاسة حكومة البوسنة أو مقر رئاسة رادوفان كاراديتش في بالي ، على مدى ارتياح قادة الأمم المتحدة لصحبة الصرب . وفي اللجنة العليا للإغاثة كانت يُشار إلى أي مسئول رفيع في الأمم المتحدة بطريقة روتينية على أنه « السيدة ميلاديتش » .

بل أن أعضاء من موظفي الجنرال روز كانوا يقولون سرا أن الجنرال يعتبر أن خطة التقسيم في ربيع ١٩٩٤ غير عادلة مع صرب البوسنة وأنه ، أثناء اجتماعه مع رادوفان كاراديتش ، أعلن عن تحفظاته عليها . إن تأثير مثل تلك التصريحات على رغبة الصرب في قبول الخطة أمر سهل التنبؤ به . فكيف يكون الغرب جاداً إذا كان مسئول الأمم المتحدة الرفيع في البوسنة لديه شكوكه ؟ لكن رغبة الأمم المتحدة في النظر إلى ما يحدث في البوسنة من وجهة نظر كاراديتش ليست مجرد نتيجة للأراء الخاصة لمسؤولين معينين ، بل كانت الأخرى دالة للطريقة التي عملت بها قوة حفظ السلام للأمم المتحدة تاريخياً منذ بدايتها .

وطوال الصراع كان مسئولو حفظ السلام التابع للأمم المتحدة على الأرض ، في يوغسلافيا السابقة وكذلك في نيويورك وجنيف يحاولون التعامل مع صرب البوسنة

(ومع حكومة ميلوسوفيتش في بلغراد كذلك) وكأنهم جادون حيال تسوية يجري التفاوض عليها . وسلوكهم هذا كانوا يستخدمون سلسلة من الشكليات ويعملون في إطار اقتراضات قد تكون مناسبة في التعامل مع أناس يريدون إيقاف القتال ولكنها غير مناسبة تماماً في التعامل مع قادة محبين للحرب لدولة شريرة كانت في الواقع جمهورية صربيا .

وليس من المستغرب أن الصرب كانوا محصنين ضد تلك الدعوات الكثيرة للتصرف كمواطنين مسئولين في المجتمع الدولي بنفس الدرجة التي كانوا محصنين بها ضد التهديدات بالعمل العسكري الذي كانوا يعرفون أنها فارغة . ومنذ البداية ، كانوا واضحين حول أهداف حربهم وواضحين حول استراتيجيتهم العسكرية والأكثر أهمية أنهم كانوا واعين لحقيقة أنه مهما قال ممثلو القوى العظمى وأياً كانت القرارات التي قد يمررونها في مجلس الأمن ، فلم تكن هناك إرادة مطلقاً بين الحكومات الغربية لدعم هذا الكلام بالقوة . ولم يكن المجتمع الدولي يعرف ماذا يريد وبالتالي كان مشلولاً . كان يريد للحرب أن تتوقف وللإبادة الجماعية أن تنتهي وان يتم احتواء الصراع ، ولكن كان يمكن تحقيق آخر هذه المتطلبات فقط ، والتي كانت على المدى القريب على الأقل ، متسقة مع إنتصار صربي مثلما هي متسقة مع هزيمة صربية ، من دون تعريض حياة جنود الناتو للخطر .

ومنذ الحرب الصرب كرواتية عام ١٩٩١ كان من الواضح أنه لن يتم ارسال القوات الأميركية والانكليزية والفرنسية للقتال في البلقان . فالمساعدة على توصيل المساعدات الانسانية شيء ، والقيام بحرب شيء آخر . وبالنسبة للصرب فإن رفض الغرب القيام بعمل بينما يتم تدمير فوكوفار وقصف دوبروفنيك كشف لهم - في كنين وبالي وبلغراد - كل ما يريدون أن يعرفوه . ولم يكن الصحفيون الساخطون فقط هم من يعتقد ذلك . فعندما اتهم ديفيد أوين ، في اجتماع في نيويورك أوائل ١٩٩٣ ، بأنه كان يتصرف مثلما تصرف الإنكليز والفرنسيون في محاولة لإرضاء هتلر عام ١٩٣٨ ، رد ببرود : « كانت ميونيخ العام الأخير » . ومهما يمكن أن يقال عن دبلوماسية أوين فقد كان محقاً تماماً في ذلك . كان قد تم إرسال فانس وأوين من قبل الأمم المتحدة والإتحاد الأوروبي للتفاوض حول تسوية في البوسنة وهما يعلمان منذ البداية أنه لن يكون هناك ضغط عسكري أو حتى تهديد جاد به يظهره امام الصرب مع علمهم

بأن الصرب كانوا على وعي تام بذلك . ومع مضي الوقت فإن حقيقة أن أو يون وفانس نفسيهما بدا حملة نشطة ضد التدخل العسكري الغربي (مجادلين في مضبغة للوقت بأنها على وشك تخطي الوضع) لا تغير شيئاً .

قال أو يون في مقابلة : « كانت هناك جهود للوم المتفاوضين . ضعوا اللوم على حكوماتكم . إنني وسيط ، مفاوض . والمفاوض يعمل دائماً في جانب السلام . على أن أتمسك بتلك الحيادية . إنني أعيش داخل هذا الإطار . . لم نكن مطلقاً ضد مشاركة أكبر من جانب الحكومات . . . أن وظيفتنا هي حفظ السلام والانتظار حتى تستأنف الحكومات المشاركة في المفاوضات !!

المشكلة أنه لم يكن هناك سلام يحفظ ولا شيء للتفاوض عليه . فكل ما كان يريده الصرب هو النصر . وهذا ما كان على الأمم المتحدة والمجموعة الأوروبية وفانس وأوين والباقي أن يواجهوه . إنها مشكلة قديمة تواجه الليبراليين في صراعهم مع الشموليين : عدم القدرة على تصديق أن ما قاله القتلة لجهنمهم المحليين كان يعكس ما خططوا لعمله بأكثر مما يعكس ما قالوه حول مائدة المؤتمر . فلو شاهد أحدهم رادوفان كارادزيتش أو الجنرال ميلاديتش في تلفزيون بلغراد أو بالي فسيجدهما يتحدثان عن إقامة صربيا الكبرى وعن النصر ، اما إذا كانوا يتكلمون مع الصحفيين فإنهم يتكلمون (أو على الأقل فعل ذلك كارادزيتش على أي حال ، أما ميلاديتش فغالبا ما يهدد أعداءه بالدمار ويحذر المراسلين ومسؤولي الأمم المتحدة بأن يتنبهوا لحركاتهم وأن يقفوا عند ذلك) عن الطبيعة الدفاعية للحرب وينكرون وضع اللوم على جانب الصرب . كان الصرب يراهنون مع السديلو ماسيين بينما في الميدان استمرت قواتهم في عمل ما كانت تفعله على طول الخط .

قال أوين ذات مرة «يعرف الصرب كيف يتعاملون مع الأمم المتحدة» . ولقد أصبح خط سير مسؤولي الأمم المتحدة في البوسنة مألوفاً لدى أولئك الذين إستطاعوا المضي في مراقبته : يصل الديبلوماسي أو القائد العسكري للأمم المتحدة إلى زغرب أو سرايفو واعدأ بمجهود متجدد . وغالباً ما يصر ، عند مواجهته لجمهرة من الصحفيين المعادين الذين طالبت إقامتهم في البوسنة ، أن من الخطأ لوم الصرب على كل شيء وأنه خطأ أكبر أن نسخر من عملية المفاوضات وتبرز ثقة هادئة وإمكانية أن

ستصير الأمور أخيراً نحو الأفضل . كان يتم اعلان ذلك إما بصراحة أو بالتلميح في الكواليس أو تحت بند ليس للنشر . ثم يحدث التخلي عن الوهم حتّى ، ذلك الصعود على منحني الوهم السحيق والذي سار فيه كل مسئول في الأمم المتحدة قبل مغادرة البوسنة وقد صارت سمعته البراقة إلى أشلاء .

كان الطيارون من الرتب العليا غالباً ما يفعلون ما هو أسوأ مما يفعله الانتهازيون . فعندما إمتد التفويض لقوة الحماية التابعة للأمم المتحدة أول الأمر ليغطي البوسنة والهرسك بالإضافة إلى كرواتيا فإن مستوى المسؤولين العاديين للأمم المتحدة ، بعكس اللجنة العليا للإغاثة ، كان منخفضاً نوعاً ما . فقد كان المسئول المدني الرئيسي للأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة وهو دبلوماسي أنجلو - أيرلندي يدعى سيدريك ثورنبري ينظر إليه من قبل كثير من الناس في فريق أوين/ فانس وداخل اللجنة العليا للإغاثة على أنه انتهازي لبق الحديث منهجه الأساسي أن يبذل أقل قدر من الجهد وأن يحول اللوم حيثما يستطيع . وعندما تم تعيين ياسوشي أكاشي كممثل خاص للأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة وكذلك تعيين سرجيو دي ميلو كقنصل مقيم للأمم المتحدة في سراييفو فإن العارفين بهما سارعوا بافتراض أن السكرتارية في نيويورك أصبحت أخيراً جادة في البوسنة . كان هذا ، وهو ما أكدته لي رجال الأمم المتحدة ، أول فريق وأن وصول قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة إلى نتائج مختلفة هو مسألة وقت فقط .

وفي الوقت ذاته تم استبدال جنرال بريمكونت - الذي كان سجله خالياً من أي خبرة قتالية والذي تعود على أن يتنقل بين المفارقة للصحفيين بوصوله غير المسبوق إلى جنرال ميلاديتش (الذي ادعى معرفته قبل تفكك يوغسلافيا) والشكوى من بيروقراطية الأمم المتحدة في نيويورك والصعوبات التي يواجهها «تحت النيران» في سراييفو - بالسير مايكل روز ، وهو جنرال محارب فعلاً وكان قائداً سابقاً في كوماندوز الخدمة الجوية الخاصة البريطانية وعسكري محنك في الفوكلاند وفي الحرب في أيرلنده كما حصل على دورة في حفظ السلام في كامبرلي بكلية العسكريين البريطانية . وبالرغم مما قاله أحد مسؤولي الأمم المتحدة ، والذي كانت له تعاملات مع روز ، عن «نظرة بعيدة» تلمح أحياناً في عيني الجنرال ، أرجعها إلى قضاء روز وقتاً طويلاً «يقتحم الغرف ويحمد كل شخص أمامه» ، فلم يكن هناك شك أن روز كان ضابطاً

على كفاءة عالية. في بادئ الأمر، وعند ترتيب وقف إطلاق النار وسحب أسلحة الصرب الثقيلة حول سرايفو، ظهر حقيقة أن تلك القيادة المدنية والعسكرية الجديدة ستغير الأمور. فقد وصلت اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة إلى أماكن في البوسنة كانت تحجز عندها لشهور. وفي سرايفو بدأ روز في رفع القمامة وإصلاح خط الترام، بل وإقامة مباراة في كرة القدم على مرأى من الصرب المحاصرين - وهو شيء لم يحلم به أحد قبل وقف إطلاق النار.

ولكن، وكما كان يجب أن يكون واضحاً منذ البداية، كان وراء الأكمة ما وراءها. ولو أن مسؤولي الأمم المتحدة والحكومات الغربية انتبهوا أكثر إلى ما يبثه تلفزيون بالي، فإن أولئك الذين اعتقدوا تماماً أنهم حققوا انتصاراً على الصرب كانوا سيدركون أن الجو في جمهورية صربيا لم يكن انهماكياً. فقد توقف الصرب من زمن عن خططهم في أخذ كامل مدينة سرايفو. وقد علق أوين عند نهاية سحب معظم (وليس جميع، كما اتضح) أسلحة الصرب الثقيلة من حول سرايفو بقوله «إلى حد ما، كان يطلب من الصرب أشياء سبق وقبلوا بها مبدئياً . . .».

وعندما يزور المرء بالي أو المناطق التي يحتلها الصرب في سرايفو، فإنه يلاحظ أن الحديث بين قادة صرب البوسنة لم يعد، كما كان قبل ست شهور، حول إعادة الاستيلاء على بقية المدينة بل حول التقسيم. كان نيكولاس كوليفتش، الناقد الأدبي الذي أصبح وزيراً، يجب أن يجبي الصحفيين الزائرين في بالي بأوصاف «سرايفو الجديدة»، أي أطراف وضواحي المدينة التي يخطط الصرب لجعلها عاصمتهم بعد نهاية شاملة للأحقاد في البوسنة. كان يجري تبديل كل شيء من الأسماء الجديدة للشوارع إلى خطط الإنشاءات الجديدة. وربما كان يجدر بالأمم المتحدة أن تعتبر أن فتح جسر الأخوة والوحدة بين الجزء الواقع تحت سيطرة حكومة البوسنة في سرايفو وجريفايكا، التواء الذي يحتله الصرب داخل سرايفو، بمثابة إشارة على أنه ليس مطلقاً خطوة نحو لم شتات سرايفو ثانية، بل إجازة لتقسيمها قانونياً، أو هي على الأقل قامت بذلك عندما سمحت للصرب بإقامة مركز جمارك مع شعارات تقول «مدينة سرايفو الجديدة» و «نقطة عبور» على لافتة بجانبها.

عند رفع اللافتة أعلن مسؤولو الأمم المتحدة بازدراء إن إقامتها لم يكن جزءاً من

صفقتهم مع الصرب وأنه يجب إنزالها . وهو ما لم يحدث بالطبع . لقد كان أوين على الأقل أكثر صراحة . ففي أوائل ١٩٩٤ كان مستعداً للاعتراف علناً بأنه مع مرور كل يوم فإن «احتمال تقسيم دائم لسرايفو يصبح أكبر» . كان مثل ذلك التقييم الصريح للوضع منشأ وبخاصة عند مقارنته بتصريحات أكاشي المتناقضة . ولكن أوين ابتعد بذلك كثيراً عن الموقف الذي صرح به مراراً وبشكل حاسم طوال النصف الثاني من عام ١٩٩٢ وطوال عام ١٩٩٣ والقائل إنه «لن تكون هناك جمهورية صربيا الكبرى» والآن بدأت اللعبة وكان يعرف بها . والقوة فقط هي التي تستطيع إجبار الصرب على التخلي عن أي منطقة حول سرايفو ولكن وكما علق أوين «الروس موجودون هناك الآن ، وأي هجوم الآن يعتبر تعدياً على كبريائهم» .

ولكي يحبطوا الضربات الجوية للنااتو قام الروس بتحريك قوات إلى الجانب الصربي من خط المواجهة قبل أيام من انتهاء مهلة الإنذار الأخير للنااتو في نهاية فبراير ١٩٩٤ . قال أوين «كان حلف النااتو مستعداً لاستخدام الضربات الجوية» . ولكن مع انتشار الروس تبخر هذا الاستعداد . فقد كانت القوى الكبرى تهتم بروسيا أكثر من اهتمامها بالبوسنة وكان من المستبعد تماماً القيام بضربة جوية قد يقتل فيها جندي روسي واحد . وكان الصرب يفهمون ذلك . فعندما وصلت الكتيبة الروسية التي كانت في السابق جزءاً من قوة الحماية المنتشرة في شرق كرواتيا إلى باني ، تم استقبالهم كمحررين حيث رفع السكان المحليون تحية الأصابع الثلاثة للقوميين الصرب ووزعوا خمر سليفوفيتز والمقاني والخبز كما رد الروس على التحية بمثلها وهم يساعدون في صعود الشباب فوق عرباتهم المصفحة . ولاحقاً كانوا يتمازحون مبادلين بالبرهات الزرقاء للأمم المتحدة قبعات جيش صرب البوسنة التي يرتديها الجنود الصرب في الجانب المقابل . ثم انتقلوا إلى مواقع على طول خط المواجهة وانتشارهم لم تعد هناك إمكانية أمام حكومة البوسنة لاستعادة بوصة بالقوة من سرايفو يسيطر عليها الصرب كما حاولت أن تفعل في أواخر ديسمبر ١٩٩٣ م .

ربما كان كل ذلك أمراً محتوماً . أو كما قال أوين «إننا نخدع أنفسنا إذا تصورنا أن الناس يستطيعون العودة إلى مناطق الصرب» . لكن لم يؤكد هذا التقييم أي من الأمم المتحدة أو الحكومات الغربية الرئيسية المعنية بالبوسنة . ورغم مرور وقت طويل حتى تم إعلانه ، فإن الإنذار الأخير من النااتو للصرب وما حدث في سرايفو نتيجة له تم

تقديمه وبخاصة في الولايات المتحدة - ربما بسبب عاطفة النخبة ، تجاه البوسنيين أو لأن كلينتون وهو مرشح للرئاسة وعد برفع حظر السلاح ضد الحكومة البوسنية حيث كان الشعور بالفشل السابق عنيفاً - على أنه نصر عظيم . ولكن لم يكن الأمر كذلك مطلقاً . فقد أكد ما كانت القوى الكبرى قد قررت مسبقاً : إن الحل الوحيد للأزمة البوسنية هو التقسيم مع السماح للصرب بالاحتفاظ بقدر كبير من الأراضي التي احتلوها وطهروها عرقياً . ولم يكن سيتم عمل شيء مطلقاً من أجل سرايفو لو لم تواجه القوى الكبرى بأزمة علاقات عامة سببتها الصورة المتلفزة لمذبحة السوق في ٥ فبراير ١٩٩٤ مع جماهيرها . وكان الحد الأدنى هو الذي تم .

وقد اتضح عدم تغير العلاقات الأساسية في القوة بين الأمم المتحدة والناطو وبين الصرب بعد ذلك بشهرين ، في إبريل ١٩٩٤ ، عندما شن جنرال ميلاديتش هجوماً على جيب غوراجده شرقي البوسنة . وكانت غوراجده أحد ثلاث جيوب لمقاومة حكومة البوسنة في وادي درينا ، وهي منطقة كانت تضم غالبية مسلمة قبل ١٩٩٢ .

وكانت المدن الأخرى في المنطقة - فوكا وكانيسي وبيلاينا وزفورنيك - قد تم أخذها في أوائل الحرب مع ممارسة التطهير العرقي بقسوة خاصة هناك . ولكن ظلت ثلاث مناطق ، كل منها يتكون من مدينة رئيسية واحدة - سربرنيتشا وزيبا وغوراجده وسلسلة من القرى المحيطة مع حكومة البوسنة . وظلت المناطق الثلاث شوكة في حلق الجنرال ميلاديتش . ولم تتفق خطة إقامة صربيا الكبرى الممتدة من صربيا مروراً بالبوسنة إلى كرايينا مع وجود ثلاث مناطق بوسنية محتشدة بمقاتلين من رجال العصابات على درجة عالية من التدريب يقطعون خطوط اتصالاته شرقاً إلى كرواتيا وجنوباً على طول نهر درينا إلى الجبل الأسود والأدرياتيكي .

كان ميلاديتش قد تعامل مع سربرنيتشا في أوائل ١٩٩٣ حيث نشر عدداً من قواته ومدفعيته حول الجيب وبدأ في التقدم إلى الدخول في بطاء . وكما كان يحدث دائماً فقد دمج ميلاديتش الفكر العسكري للجيش الوطني اليوغسلافي "وحلف وراسو" - الذي يمكن تلخيصه في عدم إرسال جندي مطلقاً حين يمكن إرسال طلقة أولاً - مع نزوع صرب البوسنة إلى جعل المستشفيات ومحطات معالجة المياه ومراكز اللاجئين

هدفاً لهم من أجل إحداث أكبر قدر من الرعب بين السكان . وسقطت قرية بعد أخرى حتى وصلت قوات ميلاديتش إلى مشارف سربريتشا نفسها . وفي يوم محدد تم قتل ستين مدنياً في المدينة بينهم عدد كبير من الأطفال بنيران قذائف جيش صرب البوسنة . وعندئذ فقط أصدر مجلس الأمن قرار المناطق الآمنة . وبالرغم من الهجوم القصير الذي قام به في سربريتشا قائد قوة الحماية في البوسنة وقتها، جنرال فيليب مورويون الذي وعد الناس هناك بأنه «لن أترككم أبداً» لكن بعد أسبوع عاد إلى سرايفو، فقد كان تأثير القرار الوحيد أن ظل وسط المدينة المشلول اقتصادياً في يد البوسنيين .

وكانت غوراجده تكررًا لسربريتشا، لكن هذه المرة مع عجز الدبلوماسي المميز أكاشي والعسكري الصلب روز عن فعل شيء لوقف الصرب أو لتقييم مقاصدهم بدقة . فقد أعلن الجنرال روز في ازدرء عند نقطة معينة وكأنه لم يسمع مطلقاً عن مثل هذا التكتيك من جانب كارادزيتش وميلاديتش : «لقد كذبوا عليّ . لن أثق في الصرب مرة ثانية» كذلك بدا أكاشي كما لو كان مذنباً بفأس . كما حدث ذلك أيضاً للمفاوض الروسي ، وكيل وزارة الخارجية فيتالي شوركين ، الذي كان حتى تلك اللحظة يدافع عن كل ما يفعله الصرب . ومع استمرار قصف غوراجده طالبت قوة الحماية بضربتين جويتين غير مؤثرتين وتراجعت بسرعة . ثم أعلن النانو عن منطقة محظورة وبعد إحدى عشرة ساعة سحب الصرب معظم أسلحتهم الثقيلة وأعلن أكاشي وروز أن الأزمة قد انتهت .

ثم انهمكت قوة الحماية في إعادة كتابة ما حدث في غوراجده . ووفق قولهم فإن الحصار لم يكن بذلك السوء . فحينما كان أعضاء رئاسة روز يقاومون الضغط من اللجنة العليا للإغاثة لعمل شيء حيال غوراجده فإنهم أعلنوا أنهم يعتبرون مسؤولي اللجنة أناساً لا يعتمد عليهم وأن تقارير الرئيس الكندي لفريق المراقبين العسكريين للأمم المتحدة الرائد بات ستورجران عديمة القيمة كذلك لأنه يبدو أن الرائد قد انهار تحت الضغوط ، كما قال أحد مساعدي روز للصحفيين ، وحتى بعد توقف قصف غوراجده ، استمر روز وجماعته في الإصرار على أن الأزمة كلها مبالغ فيها ، في تقريره . و بعد زيارته الأولى لغوراجده بالطائرة ، عقد الجنرال روز مؤتمراً صحفياً أصر فيه على أن كلاً من الدمار في المدينة وأعداد الخسائر في الأرواح مبالغ فيها جداً وقال

في غضب: «إننا نقوم بإجلاء الجنود الجرحى الذين يقفزون خارج مروحياتنا».

في الواقع، كان هياجه بسبب أنه اعتقد أن قوات حكومة البوسنة استدرجت أحد جنود قوات الطيران الخاصة البريطانية، والتي تقوم بتنظيم الطيران المتقدم وذلك بدعوته إلى أحد مواقعهم وأطلقوا النار على الصرب وتركوا الضابط البريطاني ليقتل من الضرب المضاد. وعلى أي حال، يُقال إن روز كان يعتقد بينه وبين نفسه بأن مذبحه السوق في سرايفو كانت في الواقع إحدى حالات قصف البوسنيين لأنفسهم بالمورتار. وكان مساعدوه يخبرون الصحفيين الزائرين بذلك على وعد بعدم النشر طبعاً. ولكن اللجنة الدولية للصليب الأحمر وكذلك اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة والتي كان لها مسؤولون دوليون في غوراجده أثناء وبعد القصف أنكرتا تقرير روز بكل وضوح. فقد قال بيتر كيسلر من اللجنة العليا للإغاثة والذي أمضى سنة في يوغسلافيا السابقة مقابل كل شهر أمضاه روز هناك: «إننا نواجه كارثة إنسانية هنا».

وفي تلك الأثناء، أوضح صرب البوسنة أنه فيما يخصهم فإن كل ما يطلبه إنذار الناتو منهم هو وقف قصف غوراجده وسحب معظم أسلحتهم الثقيلة. وبعد أيام قليلة من افتراض سحبهم لجميع رجالهم وجميع ألياتهم كما طُلب منهم بدأ صرب البوسنة مرة ثانية في تحريك قواتهم إلى مسافة أقرب من وسط المدينة. ثم أرسلوا مجموعة من لاجئي صرب البوسنة بمرافقة جنود من جيش صرب البوسنة في زي رجال الشرطة الأزرق. وأصر كارديتش في تكرار تخيف لتصريحاته عن سرايفو نفسها قائلاً: «إننا لن نسلم مطلقاً الجزء الصربي من غوراجده». وفي بادئ الأمر أنكرت الأمم المتحدة التقارير عن وجود جنود ومستوطنين في المدينة. حيث قال الجنرال روز «إننا لن ندخل حرباً لأن الصرب تركوا دبابة صدئة في مكان ما» ثم اعترفت قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة أن «قليلاً» من الصرب ربما لا يزالون داخل المنطقة المحظورة. وفي نهاية الأمر، وعندما لم يكن من الممكن المضي في إنكار تقارير أفراد قوة الحماية، اعترف الجنرال روز أنه توجد «مشاكل» في غوراجده. وبالطبع فإن الحقيقة تمثلت في أن قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة لم تكن عاجزة فقط، بل في أنه بعد كل ما حدث ظل أكاشي وروز يفضلان ذلك على القتال. كان الصرب يستطيعون أن يفعلوا ما يشاءون مع قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة، فهم لن يحاولوا التدخل ولا

حتى نفخ الصافرة ما لم يكونوا مجبرين على ذلك .

وكان أحد الأشياء التي يجب مسؤولو الأمم المتحدة أن يحدثوا الزائرين عنها أن كل شخص في يوغسلافيا السابقة يكذب . وربما كانوا على صواب في ذلك . ولكن للذين شاهدوا القتل في البوسنة ، بدا غالباً وكأن مسؤولي الأمم المتحدة أنفسهم هم أكبر الكذابين جميعاً . فمن خلال التغطية « بورقة التوت » الإنسانية على ما كان يحدث حقيقة في البوسنة وبالتظاهر بأن اهتمامهم لم تكن تلك الاهتمامات الضيقة الأفق لمنظمة مفلسة أخلاقياً وعقلياً أجبرها مجلس الأمن على تولي مهمة كانت غير قادرة على القيام بأعبائها بشرف ، فإن قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة وإدارة عمليات حفظ السلام أصبحتا مشاركتين في الإبادة الجماعية . وكما قالوا فإنهم كانوا فقط يتبعون تفويضهم . وكان لهذا رنين جميل . فهل استطاعوا أن يسمعوا صدى الجملة مشابهة صدرت منذ نصف قرن مضى ، اختلفت فقط في استبدال كلمة « أوامر » بكلمة « تفويض » ؟ لكن ربما كان مسؤولو الأمم المتحدة على حق ، وربما كانت كل الأطراف في الصراع تكذب . على أن ما كان فاحشاً في تلك الأكاذيب الصادرة الأمم المتحدة - بالنسبة لنفسها كما للعالم كله - أنهم صدقوا أنفسهم وهم يتفوهون بها . كانوا يعتقدون أنهم الإنسانيون ، وكانوا يعتقدون أنهم حافظو للسلام .

الفصل التاسع

استرد العالم شرفه في البوسنة من خلال أولئك الذين يعملون في «منظمات الإغاثة غير الحكومية» واللجنة الدولية للصليب الأحمر ومكتب المفوضية العليا للاجئين بالأمم المتحدة . لقد عملوا هناك بدون أي جدول أعمال سري ورفضوا بشدة القبول بفكرة أن مصالح الدول الكبرى التي تمولهم تجبرهم على تنفيذ جداول الأعمال السياسية لتلك القوى . وإذا كانت المنظمات غير الحكومية قد حاولت أن تتصرف بحيادية فإنها لم تفعل ذلك بروح قوة الحماية الدولية التي تتظاهر بأنه من الممكن وحتى من المفضل المحافظة على «توازن» بين القتلة وضحاياهم ، وعند الاستطاعة تعزيز العلاقات معهم . فلم يتفاخر روني برومان ، أحد مؤسسي المنظمة الفرنسية غير الحكومية MSF «أطباء بلا حدود» بأنه كون علاقة شخصية طيبة مع رادوفان كارادزيتش ، كما لم يفعل ذلك برنارد كوشنر ، وزير الشؤون الإنسانية السابق في عهد فرانسوا ميتران والذي برغم اشتراكهما في تأسيس MSF معاً ، لم يكن على وفاق معه .

فبالنسبة لهم ، ولعظم الناس في المنظمات الأخرى غير الحكومية العاملة في البوسنة ، كان الالتزام بالمساعدة والتزام العدالة في لب الأمور وليس التظاهر بحيادية كان أساسها موجوداً في لعبة السياسة وخيال البيروقراطيين فقط . وعلى أدنى تقدير ، يمكن القول إنه بالتمسك بتلك المبادئ (حتى ، في وضع كوشنر ، المطالب بالتدخل العسكري على أسس إنسانية ومن أجل وقف التطهير العرقي) لم تحقق تلك المنظمات أقل مما كانوا سيحققون لو أنهم اختاروا طريق الأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة .

ومهما تسبب أسلوبهم في تكرار دخولهم في صراع مع قوة الحماية وسكرتارية الأمم المتحدة ، فقد خرجت تلك الجماعات من محنة البوسنة دون أن تصبح شريكة غافلة في الإبادة الجماعية .

أما عن مسؤولي قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة والذين كان كثير منهم يكونوا احتراماً كبيراً بصفة شخصية لما أنجزته المنظمات غير الحكومية في كرواتيا والبوسنة ،

فعادة ما كانوا يلصقون أساليبهم المختلفة بمتطلبات تفويض كل منهم . قال لي موظف في الشؤون المدنية في زغرب «لدى مسؤولي هذه المنظمات حرية قول أشياء لا نستطيع نحن أن نقولها ونحن سعداء بالتعاون معهم حيثما نستطيع ليس للعمل الطيب الذي يقوم به معظمهم ولكن لأن شخصاً ما هنا عليه أن يقول تلك الأشياء . أما إذا قالتها قوة الحماية فستنتهي مهمتنا هنا ، وبسرعة كما أتصور . جميل وجميل جداً أنت تتحدث عن وقوفك في المواجهة ولكن تصور أن ذلك هو الخط الذي التزامناه وأن النتيجة ستكون طردنا فهل سيحسن ذلك من الوضع في البوسنة؟ الحقيقة أنكم أيها الصحفيون ستكونون أول من يصرخ فينا للعودة» ، واستطرد قائلاً: «لم نقصر في تطبيق التفويض رغم أنني على علم أكيد بالاختلاف بين التفويض والحل . أنتم الصحفيون تدأبون على مطالبتنا بأن نبدي صلابة أشد وكذلك يفعل كثير من رجال تلك المنظمات . ولكننا نقف بالفعل على أعتاب المخاطرة . وأخذ طريق بالقوة بينما نقوم بتوفير المساعدة الإنسانية يظل دائماً الأسلوب الخاطئ . فازدواجهما أمر قاصر» . وتوقف ثم قال : «انظر، أياً كان تصورك ، فلدى بعض منا أقوى الشكوك الأخلاقية فيما يفعله هنا وما إذا كان علينا في الواقع أن نبقي . ولكن رجاء لا تلق بالمسؤولية على الأمم المتحدة . ولا تستمر كما يفعل معظم الصحفيين للأسف في قصر اللوم علينا . فنحن منظمة ملتزمة بالسلم . وهذا هو دورنا كما أن للمنظمات غير الحكومية دورها ولكم في الصحافة دوركم» .

كانت كلماته تمثل توتراً معيناً في تفكير الأمم المتحدة ، شديد الرفض ولكنه مصدوم نوعاً من الموقف الناقد في عنف تجاه عملية قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة . وكما قال مسؤول رفيع في الأمم المتحدة في رسالة غير موقعة لمجلة الشؤون الأجنبية (Foreign Affairs) من أن تصميم الصحافة على إثارة التدخل لصالح حكومة البوسنة «يغري بعض الالتزام الشخصي – الجهادي في الواقع – الذي لا يتفق مع الإبقاء على المعايير المهنية الحقيقية» . إن من الأمور المثيرة للجدل ما إذا كان من حق مسؤول في الأمم المتحدة ، وهي منظمة لديها في الأصل كل الشفافية والافتتاح أمام تحقيقات الصحافة شأن الفاتيكان أو الجيش الأحمر السابق ، أن يتكلم في تعال عن الواجب والتقصير في الواجب من الصحافة . كذلك كان أكثر تشويقاً افتراض الكاتب أنه لم يكن للأمم المتحدة دور فيها أسماه «تفكيك بالقوة لمجتمع متعدد إلى

دويلات عرقية أحادية» وهو عمل اعتبره في آخر للرسالة «معاد للقيم الديمقراطية المتفق عليها». لكن ما كانت الصحافة غاضبة بشأنه لم يكن فشل الأمم المتحدة في مساندة القيم الديمقراطية، بل فشلها في معارضة الإبادة الجماعية. وقد فهم ممثلو قوة الحماية وسكرتارية الأمم المتحدة ذلك تماماً ولكنهم نادراً ما كانوا يرغبون في قول ذلك بصراحة. وللغربة، فقد كان الاستثناء من ذلك هو سيدريك ثورنبري الذي كان رئيساً للشؤون المدنية لقوة الحماية في يوغسلافيا السابقة عامي ١٩٩٢ و ١٩٩٣. ففي خطاب ألقاه في ستوكهولم قال: «لقد اتهمنا بصفة أساسية بعدم الالتزام في وجه نوع جديد من الهولوكوست... وإذا كانت الأمم المتحدة متواجدة عندما تحدث بعض الأحوال، فيمكن إلقاء اللوم علينا». ورغم إصرار ثورنبري على أن المهمة كانت ناجحة وفق شروطها، فعلى الأقل سلم بأنهم يستحقون اللوم بمعنى ما له أهميته، حيث قال: «إن وسائل الإعلام، وهي تراناً رمزاً للمجتمع الدولي، تلوم شعوب وحكومات العالم لما تراه على أنه إخفاقها في التعامل باهتمام أكبر مع وضع صدم أوروبا وأذهلها في نهاية القرن العشرين».

كان ذلك صحيحاً على قدر ما وصلت إليه الأحداث. فقد كانت الأمم المتحدة تعطي المجتمع الدولي ورقة التوت التي تستر عدم قدرة بعض دوله، مثل الولايات المتحدة، على شحذ الإرادة للعمل وفشل البعض الآخر، مثل بريطانيا وفرنسا، في أن تكون صريحة مع شعوبها حول قرارها بالسلاح للقاتل في البوسنة بالتداعي في أفعاله. ولكن المحير في موقف المسؤولين داخل قوة الحماية وسكرتارية الأمم المتحدة هو قدرتهم على تصديق أنهم يستطيعون، بعد أن قدموا أنفسهم ستاراً للقوى العظمى، أن يظلوا خارج دائرة الشك والريبة أخلاقياً عما فعلوا، ففي نفس حديثه أوضح ثورنبري نهج الأمم المتحدة المعتاد في أن «أياً من كانوا المجرمين الأساسيين فالأن ليست هناك أطراف بريئة في سرايفو أو البوسنة وما يلزم أن نحفظه في عقولنا هو أن الوحشية تخط من قدر جميع المتأثرين بها».

ولكن يبدو أن الهيئة العليا في قوة الحماية أو في قسم عمليات حفظ السلام لم تنزعج من أن ذلك الموضوع عن الفظائع التي ارتكبتها الطرف البوسني (أو ما أسماه الجنرال موريون «الطرف المسلم») والذي بكل إصرار، يمكن أن ينطبق عليهم لذلك. فلم يكن الأمر ببساطة، كما تصور أغلبهم، أن الصحافة اتهمهم ظلماً بدلاً عن

خطوط الحصار في وقت كان أفراد قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة لا يغامرون مطلقاً بالخروج الا في عربات مصفحة . وكان كل ما قاله «إن هذه الحرب ترفع نسبة الادرينالين في دمك» . وإذا قاد ضباط «حماية» لجنة الإغاثة ، كما كان يطلق عليهم ، مثل بير أوليير وفيليبوس بيافيليسو في بانيا لوكا السيارة وحدهم غير مسلحين إلى بريودور ليطلبوا من العمدة هناك فعل شيء لوقف التطهير العرقي -وهي رحلة عرضتهم للقتل مرات كثيرة* - فإن ذلك يعتبر جزءاً من عملهم . وقد أصر رئيس اللجنة العليا للإغاثة في الأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة خوزيه ماريما مانديلوس ذات مرة في نبرة عاطفية : «إذا كانوا يريدون بيع الأحذية لكان عليهم في هذه الحالة أن يظلوا في ريو او نيويورك أو باريس» . وكان هذا هو نفس إعتقاد مرعوس مانديلوس .

لم يكن في تاريخ اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة مايوحي بأنها ستصرف بشكل خاص في يوغسلافيا السابقة بتلك الطريقة غير العادية التي عملت بها . لقد أنشئت اللجنة عام ١٩٥١ خلفاً للجنة العليا للاجئين التابعة لعصبة الأمم والمنظمة الدولية للاجئين الناشئة التابعة للأمم المتحدة IRO . وكان «التفويض» لها أن تقدم الحماية الدولية للاجئين وللأشخاص الذين شردوا داخل دولتهم أو الذين هربوا عبر حدود دولتهم . وبالإضافة إلى حماية اللاجئين أينما كانوا كرست اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة جهودها لإعادة توطينهم ، وإذا أمكن ، يعيدونهم إلى وطنهم بعد أن تخف الأزمة التي تسببت في هروبهم في المقام الأول . وكل عام كانت مهمة اللجنة العليا للإغاثة تزداد صعوبة مع تضخم أعداد اللاجئين وبعد تقلص رغبة دول أخرى في قبولهم . ففي عام ١٩٧٠ كان يقدر عددهم بحوالي مليونين ونصف لاجيء في العالم . وفي عام ١٩٨٠ أصبح أحد عشر مليوناً ثم صار تسعة عشر مليوناً عام ١٩٩٣ .

كانت تلك الأعداد تشمل فقط أولئك الذين عبروا حدوداً سياسية بسبب تهديد سياسي واضح ، أما الرقم الخاص بمن يسمون «المشردين داخلياً»-أشخاص تعتقد اللجنة العليا للإغاثة بحاجتهم لنفس الحماية والمساعدة التي تقدم للاجئين ، ولكن أملهم ضعيف في الوصول إلى دولة أخرى حيث يجدون مأوى- فيصل إلى أربعة وعشرين مليوناً . ولا يتضمن ذلك ما يقدر بمائة مليون من الأشخاص الذين

يتحركون باستمرار بحثاً عن مستقبل مريح لهم ولأسرهم والذين عادة ما يصنفون على أنهم «مهاجرون اقتصادياً». وكما قالت المفوضة العليا للاجئين، ساداكو أوجاتا، في تقريرها عام ١٩٩٣: «في عالم يظل فيه الإضطهاد وانتهاك حقوق الإنسان بالجملة والصراع المسلح هو الخبز اليومي فإن مأساة اللاجئين تتزايد عن أي وقت مضى»، ثم تضيف «إن الحجم الحالي وطبيعة مشكلة اللاجئين ومحدودية القدرة الاستيعابية للدول المضيفة يعني أن طرق الحماية التقليدية لم تعد كافية ويجب إستكمالها بأساليب مرنة تتناسب مع فترة الانتقال الحالية والجيشان الحاصل في الشؤون العالمية».

وبالرغم من أن أوجاتا لم توضح ذلك في تقريرها فقد كانت قبل كل شيء خبرة اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة هي التي جعلتها تدرك كيف أن الطرق القديمة التي ذكرت في كتيب عمليات اللجنة العليا للأغاثة والمسمى «الكتاب الأزرق» أصبحت غير صالحة. وقد سمعت أوجاتا تعلق مراراً أنها ليست في الواقع المفوضة العليا للاجئين بل موظفة على مكتب في يوغسلافيا السابقة. وقلقها مفهوم فحتى عام ١٩٩٣، كانت عمليات اللجنة العليا للأغاثة التابعة للأمم المتحدة في البلقان تستهلك ما يقرب من نصف ميزانيتها السنوية وتستخدم عدداً ضخماً من هيئة موظفيها الدولية المدربة. فكان يتم إحضار الأشخاص من معسكرات اللاجئين في شرق آسيا وجهود إعادة التوطين في مالاي و العمل مع الباحثين عن ملاجئ لهم في أوروبا الغربية وذلك للعمل في البوسنة وكرواتيا وصربيا. كانت النكتة الشائعة في مقر رئاسة اللجنة العليا للإغاثة في جنيف أن الأشخاص العائدين من يوغسلافيا يكاد يهاجمهم زملاؤهم في الأماكن الأخرى مغتالين من الطريقة التي تلتهم بها هذه العملية في يوغسلافيا السابقة مصادر المنظمة في الوقت الذي يتعرضون فيه باستمرار لوابل النيران في البوسنة. لقد بدأت اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة تعاني مع اتساع نشاطها من ضيق مالي شديد قبل أن تبدأ أزمة يوغسلافيا. وكما أثبتت أزمة لاجئين أخرى على طول حدود رواندا مع تنزانيا وزاير في ربيع وصيف ١٩٩٤ - حيث تم وفي يوم واحد إجلاء ١٥٠ ألف شخص جوا وفي اسابيع قليلة عدة ملايين وهو اكبر عدد يهرب في مثل هذه المدة القصيرة- فقد بدا أن اللجنة العليا لا تستطيع أن تركز كل اهتمامها وأفضل رجالها على البلقان.

وبالرغم من مهارتهم وتفانيهم في التعامل مع آثار الحرب، فإن معظم مسؤولي اللجنة العليا للأغاثية الذين أرسلوا إلى البوسنة كانوا يعرفون القليل عن الحرب نفسها. ولم يكن ذلك ببساطة لأن كثيرين منهم قضوا حياتهم المهنية يرتبون طلبات اللجوء للاجئين في أوروبا أو يديرون معسكرات للاجئين في أفريقيا وشرق آسيا. بل لأنه لم يكن لدى أي شخص في اللجنة العليا للأغاثية أي خبرة في توفير المساعدات أثناء الحرب. ومع ذلك فقد كان ذلك بالضبط ما تم حشدهم من أجل القيام به-

في كرواتيا أولاً، ثم في البوسنة . وكما ذكر فريد كاني ، الذي أتى إلى البوسنة ولديه خبرة في توفير المساعدات الإنسانية وقت الحرب ربما فاقت خبرات ذوي المناصب في اللجنة العليا للإغاثة مجتمعين : « كانت جميع وكالات الأمم المتحدة تفتقر إلى كل من المبدأ العملياتي والخبرة العملية التي تسمح لهم بالخروج بخطة متكاملة في البوسنة . فلم تكن هناك مطلقاً خطة متكاملة في جنيف أو نيويورك كمفهوم لما كانوا يريرون تحقيقه . ونتيجة لذلك ، فإن وكالة الإغاثة التابعة للأمم المتحدة كانت تعمل كرد فعل للأحداث وليس لمحاولة تشكيلها » .

بعد قليل من بدء العمل في يوغسلافيا السابقة ادرك كبار مسؤولي اللجنة العليا للإغاثة المعنيين أنه رغم إمكان ضم كل من كردستان والبوسنة لتمثل « جيلثانيا » للجهود الإنسانية ، فلم يكن هناك عامل مشترك في الواقع بين العمليتين . فقد تم نشر اللجنة العليا للإغاثة في كردستان في نهاية حرب الخليج بعد أن هرب نصف مليون تقريباً من الأكراد من جيش صدام حسين . وأعلنت الأمم المتحدة منطقة عسكرية محظورة شمال خط ٣٨ وتعهدت بتطبيق ذلك عسكرياً وأنيطت مهمة التعامل مع الأكراد داخل المنطقة بلجنة عليا للإغاثة متكاملة من الأساس . وفي أول الأمر ، ورغم حقيقة أن الأكراد كانوا يموتون بالآلاف على طول التلال فإن مسئول اللجنة العليا للإغاثة في كردستان ، وهو أسترالي يدعو نيكولاس موريس ، كان يناضل للتأكيد على أن مساعدة المطرودين في منطقة حرب ليسوا مشمولين في تفويض اللجنة العليا للإغاثة . ولكن تحت ضغط شديد من الأمريكيين ، تولت اللجنة العليا للإغاثة مهمة توفير الإغاثة الإنسانية ، ولدهشة الكثيرين ، وفي المنظمة نفسها ، كانت المجهودات ناجحة إلى حد كبير .

إن تجربة إمكان توفير المساعدات وسط الحرب ربما أوحى بإمكان القيام بعملية مشابهة بها في البوسنة . وعلى أي حال ، فإن جعل اللجنة العليا للإغاثة الوكالة القائدة كان تقريباً السبيل الوحيد المتاح أمام سكرتارية الأمم المتحدة والاعضاء الخمسة الدائمين في مجلس الأمن ، عندما أصبح واضحاً أن مجلس الأمن لن يسمح بتدخل عسكري كما حدث في العراق . كان الشعور ، أو على الأقل الأمل ، أن تمكن تجربة كردستان اللجنة العليا للإغاثة من القيام بالجهود الانساني الرئيسي المطلوب في يوغسلافيا السابقة . وفوق كل ذلك ، كان يجب أن يظهر وكأن القوى الكبرى تعمل

شيئا . فإذا كان كل المقصود، موضوعيا ، هو محاولة تخفيف آثار المذبحة التي كانوا غير قادرين على حشد الإرادة السياسية لوقفها ، فلم يكن ذلك مزعجا لقادة دول حلف الناتو . وفي داخل السكرتارية كانت النظرة أكثر إلتزانا . وكان خيار اللجنة العليا للإغاثة أقل لأن مسئولي الأمم المتحدة إعتقدوا أن هناك فرصة كبيرة لنجاحها أكثر مما كان بسبب الشعور بأنها المنظمة الوحيدة التي تواجه حتى ولو فرصة ضئيلة للنجاح .

وفي الحقيقة ، كانت اللجنة العليا للإغاثة أقل استعدادا للمهمة مما تصور أحد . وعندما أدرك جوزيه ماريانديلوس ، الدبلوماسي الأسباني الذي خدم لسنوات في أمريكا الوسطى ثم إصبح القيادي الثاني في اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة في كردستان قبل أن يأتي إلى يوغسلافيا السابقة ، حقيقة ما يحدث في البوسنة عندما جاء ممثلا خاصا للمفوضة العليا أوجاتا ، فقد فهم على الفور أن الدروس التي أخذتها اللجنة العليا للإغاثة في الشرق الأوسط لن تنفع في البلقان . وقال لرجاله في تلك «الخلطة» من الفرح والاكتئاب التي غالبا ما تحركه «مهما فعلنا فسنضطر إلى أن نلقى بالكتاب الأزرق جانبا» . وكانت تلك عبارة قال معاونوه أنه يجب تكرارها لمعظم الضباط الميدانيين الجدد في اللجنة العليا للإغاثة بمجرد اللقاء معهم . وأصر منديلوس على تأكيد أنه لن يضطر الناس إلى تنحية جنيف من عقولهم فحسب بل إن عليهم أن ينحوا كردستان عنها كذلك ، ففي يوغسلافيا السابقة عليهم أن يتكروا أشياء خلال عملهم . ولم يكن ذلك بالأمر السهل . وكان منديلوس يجب أن يقول «كانت كردستان صعبة ولكن كردستان مجرد حفلة شاي إذا ما قورنت بها نواجهه هنا» .

جاء أول تعرض لمنديلوس لحقائق التطهير العرقي . بمحض الصدفة . ففي أوائل ربيع ١٩٩٢ كان عائدا بالسيارة من مكتبه في سرايفو (فمثلما كانت تفعل قوة الحماية ، أدارت اللجنة العليا للإغاثة عملياتها أثناء الحرب الصرب كرواتية من العاصمة البوسنية المفترض حيادها) بعد اجتماع في بلجراد . وبالمصادفة وصل إلى مدينة زفورنيك على جانب البوسني لنهر درينا ، في نفس اللحظة التي كانت تحتاجها وحدة صربية غير نظامية معروفة بالنسور البيضاء .

استعداد المنظر في رعدة: «رأيت أطفالاً تحت جنازير الدبابات وضعهم تحتها رجال بالغون ثم تدوس عليهم بواسطة رجال آخرين. وفي كل مكان كان الناس يطلقون أسلحتهم وكان المحاربون يتحركون في أنحاء المدينة يقتلون بأسلوب مدروس كل المسلمين الذين تقع عليهم أيديهم. بالتأكيد كان وراء ذلك نوع من الشحن المسموم. فقد كان الإعلام الصربي يصدر التقارير عن المسلمين الذين يقومون بطرد الصرب من زفورنيك وعن الأعمال الوحشية التي ارتكبت هناك.

ورغم أن هذا قد يكون صحيحاً في بعض الأحيان، فعادة ما يكون هؤلاء الصرب مدفعوين إلى عمل ذلك من قادتهم المحليين.

وعلى أي حال فإن الصرب الذين قاموا بالقتل في ذلك اليوم لم يأتوا من زفورنيك. فهذه الأزمة لم تبدأ كحرب بين الصرب والمسلمين بل كانت حرباً بين قوميين متعصبين. كانت هؤلاء الناس استراتيجية محكمة والهدف كله إيقاع أكبر قدر ممكن من الرعب بين السكان المدنيين وتدمير قدر ما يستطيعونه من الأملاك وتركيز أكبر قدر من العنف يمكن إيقاعه بالنساء والأطفال. وبعد أن قام أفراد الميليشيا بعملهم تصل السلطات القائمة - الجيش الوطني اليوغسلافي أو قوات كارادزيتش أو الشرطة المحلية، لإعادة النظام ظاهرياً. ولكن بالطبع كان ذلك يعني نجاح التطهير العرقي في ذلك المكان المحدد وبالتالي يمكن للنسور البيضاء أن تبتعد».

ويقول منديلوس إنه قام، في ذلك اليوم، بنقل أكبر عدد من المسلمين الأحياء من زفورنيك معلناً للقادة الصرب المحليين أنه يضع السكان تحت حماية اللجنة العليا للإغاثة. وباسترجاع الأحداث فإن ما بدا بطولة متهورة كان له ثمنه. فالبرغم من أن منديلوس فعل المعجزات وأنقذ مئات الأرواح بإجلاء المسلمين عن البلدة ورتب أمر نقلهم إلى توزلا، فقد كان وهو يتصرف بأنبل الدوافع يعطي الضمانات بأن زفورنيك صارت فصاعداً مدينة صربية - وهو الغرض السياسي لهجوم النسور البيضاء في المقام الأول - وقد اعترف منديلوس نفسه بذلك حين قال لي: «ليست لدينا الآلية للتعامل مع التطهير العرقي. إننا نستطيع أن نعالج أعراض المرض سواء بتحسين الأوضاع الأمنية في المناطق التي لم يحدث فيها التطهير العرقي بعد، أو ببذل أقصى جهدنا لتنبيه المجتمع الدولي لعمق الأزمة أو بمحاولة ترتيب توزيع الطعام من خلال قوافل

الإغاثة وإعادة الإمداد الجوي للمناطق المحاصرة. ولكن يبدو وكأننا لا نستطيع إجبار الأطراف على وقف الحرب أو أن نتدخل عسكرياً لمنع استمرار التطهير العرقي.

إنه موقف رهيب. ومنذ البداية أحب الناس تبسيط المشكلة بالكلام. فهم يتكلمون عن لبنة البلقان الآن تكلموا من سنوات قليلة عن بلقنة لبنان. لكن الحقيقة هي أنه في هذه اللحظة لم يهزم أي من الأطراف بمن فيهم البوسنيون، ولا توجد إرادة قوية ولم يتحقق أي نجاح ورغم كل جهود فانس وأوين فلا يوجد ضغط دولي حقيقي». قال منديلوس ذلك كله في خريف ١٩٩٢، عندما كان لا يزال متفائلاً نسبياً. وعندما غادر، بعد أكثر من عام لاحقاً، وهو كسير الفؤاد حول ما حدث وبعدها انهارت صحته، كان الوضع أسوأ بكثير. ولكن التحليل الأساسي الذي توصل إليه في تلك اللحظة ينطبق على عام ١٩٩٤ مثلاً انطبق على عام ١٩٩٢ فقط مع استبدال زفورنيك بغوراجده وإضافة حلف الناتو للمعادلة وما عدا ذلك فلم يتغير شيء كثير.

كان منديلوس قد قال: «أحياناً تذكرني الحياة في هذا البلد بما كوندو في كتاب جارسيا ماركيز «مائة عام من العزلة». لم يكن الوضع سهلاً في كردستان أو أمريكا الوسطى، ولم يكن بأي حال سائغاً. ولكن هناك أوقات يكون كل ما أحلم به أن يرسلوا بي إلى مكان استوائي حيث الأمور واضحة، مكان يكون فيه لاجئون وبلاد ترسل وتستقبل، دون تعقيدات أخرى. إن هذه الأزمات من الصعوبة بحيث لا يوجد حل لها. ولكن أن تحاول خلق مناطق آمنة ومناطق محمية وسط أتون الحرب، عندما تكون الجبهة في تغيير مستمر ولا يكون اللاجئون نتاج الحرب، كما كان في السلفادور، بل هم هدف شنها في المقام الأول - فكيف يمكن للجنة العليا للإغاثة أن تقوم بذلك؟ إنهم يقدمون لنا المزيد من الجنود. وأنا لم أطلب مطلقاً جندياً واحداً. وفي الوقت نفسه، لدي خمسين شاحنة لإعادة إمداد مئات الآلاف من البشر. حتى لو تم تشغيل الشاحنات على مدار الساعة، فكيف يفترض أن أفعل ذلك؟ لقد قمنا بعمل المعجزات من قبل ولكننا بدأنا نفتقدها الآن والشتاء على الأبواب حيث تصبح كل مشكلة لدينا بدءاً من مشكلة إبقاء الشاحنات على الطريق إلى إطعام وكسوة اللاجئين أصعب على الحل بكثير».

أدت اللجنة العليا للإغاثة مهمتها بنجاح في الشتاء الأول للمذبحة البوسنية وكذلك في الشتاء الثاني. فلحسن الحظ كان الجو فيها لطيفاً. وكان في جعبة منديلوس وخلفه، والطريف أنه كان نيكولاس موريس، الرئيس السابق للجنة العليا للإغاثة في كردستان، بعض المعجزات. تم إسكان اللاجئين وأمكن إعادة توطين أقلية محظوظة في الخارج. كما تم إرسال معدات أكثر وأفضل وبخاصة من الدول النوردية ومن إدارة التنمية البريطانية عبر البحار. وبدأ تشغيل الجسر الجوي إلى سرايفو، الذي أداره منديلوس ومساعدته الذكي الشاب الأنجلوشيلي فابريز يوهوكتشايلد عندما كان مجرد تفرغ يدوي للأطعمة بالرافعات المعدنية، وغالباً تحت وابل النيران، بدأ يعمل بشكل أكثر كفاءة مما يحلم به أي شخص. وبحلول نهاية عام ١٩٩٣ كان من الواضح أنه في معظم الأماكن في البوسنة يمكن تفادي الكارثة الإنسانية. وما كان يقتل الناس ليس الجوع والمرض كما تنبأ الكثيرون، بل الرصاص والشفطايا. وإذا ما كان الحكم عليها حسب المعايير الإنسانية الضيقة، فإن مجهودات الإغاثة التي قدمها المجتمع الدولي كانت ناجحة. وكانت المشكلة تكمن في أنه ليس البوسنيين وحدهم الذين اعتقدوا بفشلها بل أن كثيرين من أفضل الرجال داخل اللجنة العليا للإغاثة اعتقدوا بفشلها كذلك. وكانت مقدرتهم على تبين ذلك هي التي وضعت رجال اللجنة العليا للإغاثة في خلاف، أخلاقياً، مع زملائهم في قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة.

أصبح معظم من قابلوا خوزيه ماري منديلوس معجبين به من اللقاء الأول غالباً وأنا منهم، ولكن كانت هناك أقلية سليطة اللسان شديدة الانتقاد لما فعله في البوسنة. فقد أصروا على أنه في حين كان منديلوس يتكلم عن أعمال جيدة فإنه مجرد منفذ لقواعد الأمم المتحدة مثل أي مسؤول رفيع آخر. وقد علق مراسل عرفته في سرايفو قائلاً: «نعم، هو رجل عظيم. ولكنني كنت سأحترمه أكثر لو أنه، بدلاً من حواديت النسيمة عن الجنرال مرويون أو متابعة ثأره من الشؤون المدنية للأمم المتحدة، واجه واقعياً قسم عمليات حفظ السلام وقوة الحماية التابعين للأمم المتحدة. كان منديلوس دائم الحديث عن وشوك ترك التحفظ. فهو دائماً يقول بصفة أساسية بعد آخر إغماضة عين الحماية التابعة للأمم المتحدة: «هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير». أنا أعرف أن اللجنة العليا للإغاثة في وضع رهيب ويعلم

البوسنة» وقبل منديلوس بأنه ملام أيضاً . فقد قال لي : «كنا غير مستعدين للتفكير في البوسنيين كشعب لديهم شيء نتعلم منه . وفي المقابل أصرنا على معاملتهم كضحايا وسكان متلقين للإغاثات فقط» .

وقد عارض منديلوس منذ البداية جعل الإغاثة الإنسانية ذات صبغة عسكرية . ومما أثار رعب مساعديه أنه أحب مقارنة بطولة سائقيه المدنيين بالعناد والحذر المتزمت للجنود . ومع ذلك فقبل أن يغادر منديلوس يوغسلافيا السابقة أصبحت عسكرة جهود الإغاثة دستوراً للأمم المتحدة .

ولم أفهم مطلقاً - وطالما لم يكن يسمح لمسؤولي السلام باستخدام السلاح خلال المرور من نقاط التفتيش لتمرير المساعدات - لماذا أصبح مجالاً للنقاش أن يقوموا بمرافقة القوافل . فقد استطاع كثير من القوافل بدون مرافقة ، بما فيها تلك التي أشرفت عليها المجموعة اليهودية في سرايفو وآدرا وهي منظمة إنسانية ، أن تعبر حتى في أسوأ فترات القتال .

كان أقرب تفسير هو أن الأمم المتحدة أرادت أن تظل متحكمة ، ولإنقاذ نفسها والدول الأعضاء الأخرى التي ظلت تؤكد باسمها أنها تعالج بذلك الارتباكات المرتبطة بذلك النوع من الجهر بما يدور على أرض الواقع في البوسنة والذي تولع به اللجنة العليا للإغاثة . فقد كانت عادة رجال الاستعلامات العامة في اللجنة العليا للإغاثة من الإفصاح عما في عقولهم غير مقبولة حيث لم تكن قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة تريد أن ترى تصريحات مثل تلك التي أطلقها مرة لويس جنتايل ، رئيس اللجنة العليا للإغاثة في مكتب بانينالوكا في أواخر ١٩٩٣ وأوائل ١٩٩٤ ، والتي قال فيها إن ما سمح العالم بحدوثه في البوسنة «لا يُغتفر مطلقاً» أو ما قاله لاري هولنجرورث في شكواه ضد قصف الصرب لسربريتشا والذي يتضاءل معه «أشد الأماكن حرارة في جهنم» . وباسم عملية التفاوض ، أرادت قوة الحماية تقليل الخلافات بين الأمم المتحدة والصرب وليس رؤيتها تشتعل بسبب مسؤولي اللجنة العليا للإغاثة الذين لم يفهموا أنه يجب إخفاء بعض الحقيقة .

ولكن ومنذ البداية ، شجع منديلوس رجاله على فضح الأحوال التي يشاهدونها أيّاً كانت النتائج السياسية ، وسواء كانوا يذكرون تفاصيل حصار غوراجده أو

استمرار التطهير العرقي في بانيا لوكا، فيمكن الاعتماد على مسؤولي اللجنة العليا للإغاثة في ذكر الحقيقة. فربما كان ذلك كل ما يستطيعون عمله من أجل البوسنة. ولم يكن ذلك يعني أن لويس جنتايل كان يستطيع وقف التطهير العرقي في بوسانسكا كرايينا أو أن دكتورة ماكغلوهاين من اللجنة العليا للإغاثة كان بإمكانها عمل الكثير من أجل الجرحى. ولكن ذكر الحقيقة ليس بالإنجاز الذي يصح إهماله. وسيسجل التاريخ لمسؤولي اللجنة العليا للإغاثة قولهم الحقيقة بدون تحريف. وبالطبع يقوم رجال الاستعلامات العامة وأحياناً كبار مسؤوليهم بالتدخل مؤكدين أن تقارير اللجنة العليا للإغاثة كانت مبالغاً وأن الدمار في الحقيقة «أو عدد الضحايا أو عدد المشردين أو مدى الحاجة» كان أقل كثيراً من التقارير الأولى. فطالماً أن الضحايا في تلك الحالات كانوا دائماً في غالبيتهم من البوسنيين فغالباً ما كان رجال قوة الحماية يلمحون بشكل عام كصدى للدعاية القادمة من بالي وبلجراد، بأن البوسنيين قد لفقوا تلك التقارير لكي يجملوا الغرب على التدخل.

وبعد أن زار جنرال مايكل روز غوراجده في أعقاب إقامة الناتو لمنطقة عازلة في مايو ١٩٩٤، عاد إلى سرايفو وأعلن أن تكرار قصف المستشفى عار من الصحة وأن معظم الجرحى كانوا من الشباب في سن الجنودية «وهو تلميح لأن الصرب كانوا يقصفون أهدافاً عسكرية مسلحة ولا يرتكبون جرائم ضد المدنيين». وعندما سئل عن السبب في أن اللجنة العليا للإغاثة ومنظمة «أطباء بلا حدود» غير الحكومية الذين ذهبوا إلى غوراجده أثناء الهجوم الصربي قد وجهوا نفس الاتهامات وقدموا نفس التقديرات بالضحايا التي قدمها البوسنيون والتي رفضها روز، قال الجنرال أنه لا يعرف وأنه ربما لأنهم أمضوا كثيراً من وقتهم في الملاجئ فلمنهم قد استقوا الكثير مما ظنوا أنهم يعرفونه من التقارير البوسنية. وقد كرر مسؤول الاستعلامات العامة في اللجنة العليا للإغاثة، في البوسنة، بيتر كيسلر، بصلاصة، أنه متمسك بتقديراته وحتى عندما أكدت الدكتورة ماكغلوهاين كلام البوسنيين عن الأحداث، بدأ مسؤولو قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة مرة أخرى يوضحون للصحفيين، كما فعل المراقب العسكري الكندي في الأمم المتحدة، أنه لا بد أن خبرتها سيطرت عليها وأنها ليست شاهدة موثوقة.

كانت تلك مسؤوليات حفظ السلام للأمم المتحدة. وبالنسبة لمن كان يرى أن

قوة الحماية غالباً ما تستمىح الأعذار للصرب في الماضي فلم يكن هناك شيء مستغرب في كلمات الجنرال روز. فقد اعترف على الأقل بأن بعض المدنيين قتلوا في غوراجده. ويعتبر ذلك خطوة في الاتجاه الصحيح بالنسبة لرجل بدا أنه صدق أن البوسنيين، وليس الصرب، هم المسؤولون عن المذبحة في السوق المركزي في سرايفو. وقد أمضى الجنرال ماكينزي، رغم كل شيء، عاماً كاملاً ينكر أن مذبحة طابور الخبز في أغسطس ١٩٩٢ منسوبة بأي تأكيد للصرب. كما عارض الجنرال بريكمونت جعل غوراجده منطقة آمنة لأن «المسلمين»، كما ادعى، سيستخدمونها قاعدة للإغارة على الصرب. بل إنه ادعى أن الصرب كانوا أكثر من يعتمد عليهم في التفاوض، أثناء جولة عمله في البوسنة، رغم أنه في خطاب وداعه لشعب سرايفو اعترف أنه سيفتقد المدينة لأنها متعددة الثقافات مثل مدينته المحبوبة بروكسل.

ولم يقل جوزيه ماري مانديلوس إنه سيفتقد سرايفو. بل ودع زملاءه في اللجنة العليا للإغاثة بحارة وقال إنه سيفتقدهم. ولكن عند نهاية عمله كممثل خاص كان من الواضح أن منديلوس قد ضاق ذرعاً بالوحشية والأكاذيب، ومثل كثيرين من الرجال الأكفاء الذين عملوا معه على مدى الستين الماضيتين وانهاروا أخيراً تحت عبء الضغوط الجسدية والنفسية، فقد خمد حماسه كذلك. كان هذا شعوراً مشتركاً يشارك فيه المراسلون والعاملون في المنظمات غير الحكومية والمسؤولون في قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة، حتى قيل إن جنرال بريكمونت باح لمجموعة صغيرة بأنه يتوق للعودة إلى وطنه لأنه، في النهاية، ظل تحت وإبل النيران ثلاثة شهور (يفترض أنه كان يقصد إقامته في سرايفو). إن الأمر يخلص في أن بعض الناس يحمدون قبل غيرهم مثلاً يأس بعض الناس قبل غيرهم.

وكان منديلوس ورجال اللجنة العليا للإغاثة الآخرين قد نال منهم اليأس. فكلموا عملوا أكثر بدأوا يدركون أن ما يتظرهم هو الإخفاق، مهما بلغ تفانيهم والسبب الأساسي لذلك يكمن في أنهم ببساطة لم يعرفوا ما يتوقع العالم منهم في البوسنة. وكما قال لي توني لاند وهو موظف محثك في اللجنة العليا للإغاثة والمسؤول عن مكتبها في سرايفو عام ١٩٩٣ و١٩٩٤: «أي نوع من الالتزام يريد الغرب والأمم المتحدة أن يقوموا به في الحقيقة؟ يمكن أن تنجح سياسة المناطق الآمنة في ظروف معينة ولكن ليس قبل أن نضمن للناس في تلك الأماكن نوعية معقولة من الحياة

فليس هناك مياه في سربرنتشا . وإذا لم يسمح لنا الصرب بإعادة المياه ، ألا يعني ذلك أن علينا نقلها إليهم ؟ إننا نواجه نفس نوع المشكلات العملية في الأماكن الأخرى . إنني لا أتحدث حتى عن مشكلة الروح المعنوية للناس في تلك الأماكن وهي المنعومة تماما» .

«كنا نعلم منذ البداية أن الثمن فادح حتى لو تم وقف عام لإطلاق النار غدا ، ولكن السؤال هو وفق أي مبادئ مطلوب منا أن نعمل هنا . وأسألك : هل المياه حق إنساني لهؤلاء الناس ؟ أنتم الصحفيون تتحدثون بحق عن حقوق الإنسان وكأنها مجرد ضرب الشرطة المبرح ، أو تتحدثون ، بحق ، عن الاغتصاب والتطهير العرقي . ولكن ماذا عن التعليم ؟ أو الكهرباء ؟ وماذا عن محاولة إعادة تلك الأشياء في وضع يستمر فيه القتال والتطهير العرقي والاغتصاب في كل مكان حولك ؟ ومرة ثانية يبرز السؤال كما كان منذ البداية ، ماذا نحاول أن نحققه هنا في الواقع . علينا أن نقرر ، رغم مرور سنتين لم نفعل ذلك بعد» .

حتما لقد وصلت اللجنة العليا للإغاثة إلى حالة من الرضا عما فعلته في البوسنة . ورغم أنها المنظمة التي فعلت أكثر من الآخرين لفضح الحقائق عن التطهير العرقي ، فقد كانت هناك أوقات وجدت فيها نفسها تساعد عليه في الواقع . ففي إحدى المناسبات قال منديلوس «إنني أفضل إجلاء ثلاثين ألف شخص عن ثلاثين ألف جثة» . وفي عام ١٩٩٣ قامت اللجنة العليا للإغاثة في سربرنتشا بتنظيم عملية إجلاء ضخمة للسكان المدنيين عبر المناطق التي يسيطر عليها الصرب إلى توزلا ، ولم يكن ذلك يتم بالضغط على أي شخص . فكما قال موظف في اللجنة العليا للإغاثة وقتها : «كل شخص يريد أن يخرج من جحيم سربرنتشا . إنهم يعلمون أنه لا مستقبل لهم فيها» . ومع ذلك فكما أبدى جندي بوسني في مرارة وهو يشاهد أول قافلة تعبر الأرض المشاع وتتحرك بعدها نحو مدينة توزلا : «هذا هو التطهير العرقي . إن اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة تقوم بالعمل نيابة عن الصرب» .

أصر مسؤول اللجنة العليا للإغاثة المكلف بالإجلاء أنه يقوم بإجلاء «إنساني محض» وحذر أنه رغم أن العملية في سربرنتشا كانت الأكبر بين عمليات اللجنة العليا للإغاثة في البوسنة حتى الآن ، فإنها لن تكون الأخيرة . وقد كان محقا ، شأن كل

من مالوا في البوسنة إلى تلك النظرة الكارثية. ففي ربيع ١٩٩٤ عندما صار واضحاً للجنة العليا للإغاثة أن الصرب في بوسانسكا كرايينا وبخاصة في منطقة بيرودور كانوا يبدأون مرة أخرى حملة منظمة من القتل والحرق المتعمد ضد نحو ستة آلاف من المسلمين الذين بقوا، كانت هناك محاولة لإجلائهم بالجملة إلى كرواتيا، وكأن المسلمين لا يستطيعون الفرار من تلقاء أنفسهم. ففي محطة حافلات بانيا لوكا علقت لافتة في خريف ١٩٩٣ تعلن عن منع المسلمين من ركوب الحافلات، وفي الخارج كررت الكتابة على الجدران تلك المزاوجة المميزة للافتات العنصرية في العالم أجمع: «ممنوع الكلاب أو المسلمين».

كانت اللجنة العليا للإغاثة ولجنة الصليب الأحمر تحاولان على مضض القيام بعملية الإجلاء. وسرت الشائعات في زغرب أن الأموال المقدمة سرا إلى السلطات الصربية المحلية غير كافية وهذا هو السبب في فشل الإجلاء أخيراً. ولكن الأحداث السابقة في سربرنتشا، والتي تكررت العام التالي على نطاق أضيق في أماكن كثيرة من البوسنة وتحركت دون أن تكتمل في بوسانسكا كرايينا، كلها كانت تحدد بشكل متزايد مدى ما يصل إليه التفويض للجنة في «حماية» اللاجئين في الواقع. لقد تورطت في حقيقة الأمر، في وضع مستحيل فيما أن تقف مكتوفة الأيدي وتشاهد التذيع أو أن تقوم بنفسها بتسهيل الهدف الأكبر لحرب الصرب في نقل السكان غير الصرب خارج مناطق البوسنة التي يسيطر عليها جيش صرب البوسنة. وبالنسبة لمسؤولي اللجنة العليا للإغاثة الذين كرسوا حياتهم للعناية باللاجئين، فقد كان الخيار غير محتمل مهما أدركوا حتميته.

وباسترجاع الأحداث، فإن قتل البوسنة كان قد أصبح نتيجة محتومة سلفاً بعد سربرنتشا، وهو ما عبر عنه لاري هولنجورث من اللجنة العليا للإغاثة حين قال: «كان يجب أن نكون أقوى من ذلك منذ البداية. ففي هذا اليوم والزمين، يجب أن يكون إطعام الناس حقاً مطلقاً، ولكننا بدلاً من ذلك حاولنا أن نلحق بالترتيب الصحيح الذي يقنع الصرب بتركنا ندخل. ومنذ أغسطس ١٩٩٢ وحتى مارس ١٩٩٣ أدخلنا العدد القليل، وفي تلك الأثناء كان الصرب يطبقون على سربرنتشا ويأخذون القرى ويجبرون الناس على الهرب جاعلين الموقف في تلك المناطق التي لم يأخذوها يعد أكثر بأساً». وقبل أن تقرر اللجنة العليا للإغاثة أخيراً إجلاء المدنيين

من المنطقة أكد منديلوس في غضب أن ما يقدمه الصرب للأمم المتحدة بموافقتهم على فتح ما يسمونه «الممر الإنساني» في الشمال الشرقي عبر خطوطهم كان مجرد فتح ممر للتطهير العرقي. «نعتقد أن للناس الحق في مساعدات إنسانية في الأماكن التي يعيشون فيها وليس بعد قصفهم وتجويعهم بعيدا عن بيوتهم».

إن عدم مقدرة اللجنة العليا للإغاثة في بادئ الأمر على استيعاب ما كانت تواجهه لم يكن مدهشا. وكما قال لي بيير أوليه، المسؤول الفرنسي الشاب في اللجنة العليا للإغاثة الذي قابلته لأول مرة في بانالوكا عام ١٩٩٢ والذي تطوع في وقت ما لكل مهمة مرهقة في البوسنة وقبل أن يقتل في اصطدام طائرة وهو في طريقه إلى مقدونيا «لم تكن هناك حرب مطلقا تمثل الهدف العسكري الرئيسي فيها في خلق لاجئين بالجملة. من السهل أن تقول إن على اللجنة العليا للإغاثة ألا تتورط في السياسة - وأن شابا مثلي بلا خبرة خاصة في السياسة لا يصح أن يتفاوض مع صرب البوسنة أو HVO أو حكومة البوسنة. ولكن مع وجود لاجئين في قلب الأزمة السياسية والعسكرية ليس هناك سبيل آخر. لا يهم إذا كان منديلوس يريد ذلك أو حتى أن يكون مؤهلا للقيام باللعب في حقل السياسة العليا. فلقد تورطت اللجنة العليا للإغاثة في هذا الدور منذ البداية».

وكان أولييه على حق. كان منديلوس ورفاقه يلعبون السياسة منذ بداية العملية ولكن من دون الموارد التي تتطلبها السياسة. وقد قال هيربرت أوكون مرة مازحا: «دبلوماسية دون التهديد بالقوة على الأقل تشبه لعب البيسبول دون عصا». وكما أعلن لاري هولنجورث لمراسل من صنداي تايمز اللندنية وهو يغادر البوسنة للأبد في ربيع ١٩٩٤: «كان يجب أن نكون أكثر خشونة منذ البداية. لقد أضاعت الأمم المتحدة فرصة الإمساك بزمام المبادرة وأن تكون ذات بأس ورأينا سلطتها تتضاءل تدريجيا منذ ذلك الوقت. ولو أننا قلنا منذ البداية إما أن توقفوا هذا القتال أو نذهب ولن يحصل أحد على شيء، لكننا قد أثبتنا بعض القوة».

إن الطريقة التي بدا أن قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة تفضل أن تتعامل بها مع قلة حيلتها هي التظاهر بأن الوضع سيتحسن قريبا وأنه بطريقة ما ستبدأ المفاوضات في نهاية المطاف في إعطاء النتائج. إن هذه الرغبة في الاعتقاد في قرب النهاية منعهم

من ذكر الحقيقة حتى لأنفسهم . وعندما طالب المراسلون ديفيد أوين بأن يواجه الصرب بخصوص معسكرات الاغتصاب ابتسم قليلا وكان ذلك أبعد المطالب منا في العالم وقال لأحد المراسلين : «يصعب كثيرا أن تتكلم عن أشياء مثل تلك مع الصرب» ومع ذلك فعندما طلب الصرب من الأمم المتحدة أن يتوقفوا عن تسمية حصار سرايفو بكلمة حصار، استجابت الأمم المتحدة على الفور. لكن على أقل تقدير تمسكت اللجنة العليا للإغاثة بسخطها . فعند عودة لاري هولنجورث من سرايفو إلى سربنتشا أعلن : «إنها المذبحة هناك ، ويجب وقفها ، وإذا استلزم الأمر إطلاق النار، فليكن ذلك» .

وعلى عكس منديلوس فقد رحب هولنجورث أول الأمر بنشر جنود قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة لكنه قال لاحقا : «لقد بدا كما لو أن مهمتي صارت أسهل وأن حياة آلاف من البوسنيين ستصبح أكثر احتمالا . وبدا غرض القوات واضحا : مرافقة المساعدات دون التدخل في الحرب ذاتها . ولكن من ناحية أخرى ، إذا أرسلت جيشا ولم تسمح له بالاعتداء فلماذا الدبابات وقوة النيران إذن ؟ لقد خرجت للأسف بنتيجة مفادها أن القوات أرسلت ليس لاتخاذ موقف صلب ولكن ببساطة لتظهر بموقف الصلابة» . في الواقع ، كان هذا بالضبط ما قاله قائد رفيع الرتبة في قوة الحماية لمجموعة من الصحفيين في زغرب في أوائل ١٩٩٤ قبل قليل من إعادته إلى وطنه : «إن مهمتنا هنا ليست لعمل شيء في الواقع . إن مهمتنا أن نعطي الانطباع بأننا نفعل شيئا» قال ذلك بنبرة تمزج بين ازدراء الأوامر التي نفذها بإخلاص وازدراء لأولئك الذين لم يفهموا ماهية قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة في البوسنة ، ثم ضحك وقال «إنها مهمة غاية في الصعوبة» .

إن مكمن الشجاعة في موقف اللجنة العليا للإغاثة هو أنها ، ورغم التزامها برأي الأمم المتحدة في كونهم محايدين ، رفضت أن يؤخذ ذلك على أنهم معفين من التورط بالمفهوم الأخلاقي . وقد تكلم منديلوس بصراحة عن إحباطه «كعضو في المجتمع الدولي» بأنه لا يستطيع فعل ما هو أكثر . أو بعبارة أخرى ، لم يقبل بفكرة أن دوره كمسؤول في اللجنة العليا للإغاثة يعفيه من التزاماته الأخلاقية كإنسان . ولا يعني هذا أن يضرب منديلوس واللجنة العليا للإغاثة عن العمل من تلقاء أنفسهم .

فمن الزاوية الموضوعية يمكن النظر إلى جهودهم الإنسانية على أنها ورقة التوت الساترة لتخاذل القوى الكبرى عن التدخل عسكريا في البوسنة . أو «الفخ الإنساني» كم يجب أن يسميه صحفي فرنسي في سرايفو . أما في ظروف العمليات ، أي في أمور الحياة اليومية التي واجهوها ، فقد كان مسؤولو اللجنة العليا للإغاثة يحاولون المساعدة . كانوا يعرفون أن ضباط الحماية يستطيعون عمل القليل للحماية وأن قوافلهم لن تمر ولكن ذلك لم يجعلهم ساخرين كما حدث كثيرا مع قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة ، بل إنها جعلتهم يتصلبون في قراراتهم . ففي مقر الرئاسة في زغرب غضب المسؤولون الكبار من الالتصاق بالأعمال المكتبية واستخدموا كل ذريعة واضحة للعودة إلى البوسنة . كان خوزيه مارييا منديلوس مشهورا بتفضيله صحة سائقي قافلته على صحة الدبلوماسيين الذين كان يقضي معهم معظم وقته . ولكنه في نهاية المطاف فقد الأمل أيضا .

قال لي منديلوس قبل قليل من مغادرته البوسنة : «بصراحة نحن في اللجنة العليا للإغاثة نشعر أن المجتمع الدولي تخلى عنا وكذلك الأمم المتحدة في نيويورك . إننا نشعر كما لو كنا يتامى . وعندما تدهور الموقف تماما في شرق البوسنة ، وجدنا أنفسنا في الوضع المستحيل أخلاقيا الذي يضاعف الهدف من التطهير العرقي من أجل إنقاذ أرواح الناس . ومع ذلك فلم تصدر أي تصريحات عن هذا من مجلس الأمن أو من مفاوضي فانس وأويون أو السكرتير العام . ويبدو أننا سنعتمد على أنفسنا في هذا الوضع المستحيل . لقد أصبحنا شركة نقلات وعلينا تجاهل جميع أمور الحقوق الإنسانية والتي هي صميم التفويض لنا . إننا ننقل الطعام ونتصرف مثل أي وكالة سفريات للزوار الأجانب .

«كانت هناك فترات طويلة ، أياءت الأمور ، عندما كان لدي أمل ! وأتذكر تفكيري أنه عند نقطة ما سيضطر المجتمع الدولي إلى عمل شيء ما ولا يكفي فقط بالكلام ، فعندما حضرت إلى هنا في الماضي وتحدثت معك عن المعجزات والقيود فقد كان ذلك بالطبع عن الصمود حتى يتم عمل شيء ما . وأنا أفتخر كثيرا بما حققناه في اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة . ويرجع الفضل بدرجة كبيرة إلى جهودنا في ألا يموت الناس جوعا في سرايفو . ولكن في كل مكان آخر . » وتهدج صوته واهتز : «في كل مكان آخر تقريبا ، الأمور غاية في السوء» وبعد

شهر كان منديلوس قد رحل . وفي زغرب وسرايفو لم يخف كبار موظفي اللجنة العليا لإغاثة ارتياحهم لرحيله . فكما حدسوا عن حق فإن خلفه ، نيكولاس موريس ، لم يتبع مثل هذه السياسة المستقلة ولم يكن لديه حساسية منديلوس المكشوفة إزاء العسكريين في لحظة أصبحت فيها قوة الحماية وليست اللجنة العليا للإغاثة ، لأسباب عملية ، هي الوكالة القائدة لنشاط الأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة . وفي ظل قيادة موريس عادت اللجنة العليا للإغاثة وكالة إغاثة صرف ولا شيء غير ذلك .

كان تبديل منديلوس بموريس إشارة إلى التغير في دور اللجنة العليا للإغاثة وربما في تفكيرها كذلك . ولا جدال في أن موريس كان أفضل إداري وأفضل كبير وقراطي ، وربما في إطار الأمم المتحدة الأفضل كسياسي كذلك . كان ينظر إليه كرجل محترم ، كما كان ينظر إليه من قبل الكثيرين أيضا كرجل واقعي وصارم . ولكن كان هناك بعض التساؤل حول «التزامه التحفظات» . فبعد كل شيء كان الرجل الذي عارض توسيع دور اللجنة العليا للإغاثة في كردستان - وهو موقف أكسبه اسم موريس «ليس تفويضي» الذي أطلقه عليه المراسلون الذي كانوا موجودين في شمال العراق في ذلك الوقت . فعلى النقيض من منديلوس الذي قاوم بثبات مبدأ أن مهمته تنحصر في احتواء الكارثة أو أن يفعل ما يستطيعه فقط ، يسلك موريس طريقا أكثر تحفظا . وتحت قيادته ارتدت اللجنة العليا للإغاثة في يوغسلافيا السابقة بشكل كبير إلى كونها وكالة أرثوذكسية للأمم المتحدة . لقد اشتكى من خدموا في العملية منذ البداية من فقدان الروح ، وبحلول منتصف ١٩٩٤ كان معظمهم إما قد غادر أو يفكر في المغادرة . وعندما غادر آخر عضو في المجموعة القريبة من منديلوس ، وهو مانويل دي أليدا ، إلى جنيف في يونيو ١٩٩٤ ، كان في هذا النهاية الرمزية للعملية أو كما أسماها أحيانا «الوحش» الذي خلقه منديلوس .

كان منديلوس ينظر دوما إلى مهمته لا على أنها مجرد إنقاذ أرواح أو توفير الإغاثة ، بل إحياء آمال الناس . وكما قال أحد زملائه بعد مغادرته للبوستة : «قد يكون جوزيه ماريّا حظي بانتصارات جوفاء ، ولكن وبينما يكسبها كان في استطاعة رجال اللجنة العليا للإغاثة أن يواصلوا الاعتقاد ويواصلوا الأمل . والآن هناك أزمة ولا أمل وهذا يشبط معنوياتنا جميعا» . وبمجرد مغادرة البلقان شعر منديلوس بحريته في كشف

مدى إحباطه شخصيا . فقد أعلن «لقد وصلت عملية مفاوضات السلام في يوغسلافيا السابقة إلى ذروة الفساد . كانت بادىء الأمر تحافظ على دولة البوسنة والمهرسك التي اعترف بها المجتمع الدولي . ولاحقا جاء الاقتراح بتقسيم الدولة إلى عشرة أقاليم ، وفي النهاية أصبح لدينا فكرة خلق دويلات عرقية تجبر السكان على أن يحددوا هويتهم وفق منطق فاشستي» . وكان منديلوس يصصر على أن ذلك غير مقبول . فقد قال «يجب وضع حد للبراجماتية وللحوار الذي فرضته الإبادة الجماعية . فإذا لم تكن مستعدين للتدخل فمن الأفضل أن نبقى في بلادنا ، ولكننا موجودون وتعهدهنا بالفعل بالتدخل الإنساني وخلقنا توقعات كاذبة» .

إن الأمر الرائع عند مشاهدة رجال اللجنة العليا للإغاثة وهم يتقدمون في الميدان كان ، على الرغم من وصول الأمور إلى حالة اليأس ، هو رفضهم الدائم للانزامية . أما الآن فقد كان منديلوس في الواقع يقبل الهزيمة . وفي وقت لاحق ، ترك اللجنة العليا للإغاثة وانغمس ثانية في السياسة الإسبانية وفاز في انتخابات البرلمان الأوروبي على قائمة الاشتراكيين . لقد فشلت ما أسماها «أضخم وأعقد وأخطر عملية تعهدت بها المنظمات الإنسانية» على الأقل ، إذا كان مقياس النجاح هو وقف ما كان يجري في الواقع . وحتى نيكولاس موريس أصر عام ١٩٩٣ على أن «فشل المجتمع الدولي في أن يقلب منطق الحرب يعني فشل العمليات الإنسانية القائمة أساسا على قلب ذلك المنطق» . كذلك قالها لاري هولنجورث بكل صراحة ، فقبل أن يغادر البلقان قال في غضب إنه «يجب على الغرب أن يعقد العزم فيما إذا كان يريد أن ينقذ مسلمي البوسنة أم لا» . وبحلول ربيع ١٩٩٤ ، كان من الواضح أنه عقد عزمه وكانت الإجابة أنه لا يريد .

الفصل العاشر

سألني عجوز في مقبرة «لايون» في سراييفو في إبريل ١٩٩٣ : «لم لا يلقي الأمريكيان القنبلة الذرية على الصرب؟ وبعد لحظة انفجرت قنبلة مورتار على بعد ثلاثمائة متر. وقام المشيعون - وكانوا قد حضروا لدفن طفل عمره أربع سنوات قتله قناص قبل يومين - بالزحف أو بالأحرى بدأوا في حركات زحف صامتة بحثاً عن ساتر حيث لم يكن هناك، باستثناء تمثال الأسد الذي شوهه القصف والحافة التي يقف عليها وسط المقبرة، أي ساتر على الإطلاق. فحتى الشواهد في سراييفو أصبحت تصنع من الخشب بعد عام من الحصار. ويقول الحفارون إن الشواهد أصبحت بنصف سماكتها قبل ستة شهور. وحملت في انفعال في قبرين تم حفرهما حديثاً في نهاية أحد صفوف الدفن. ومن خبرتي السابقة عرفت أنها أكثر الأماكن أمناً للقرصة إذا بدأ القصف جدياً، وهو احتمال واضح حيث تخصصت القوات الصربية الرابضة على التلال المحيطة بالمدينة في إطلاق النار على المشيعين وهم يدفنون موتاهم.

وبمعايير سراييفو، كانت مقبرة «لايون» أكثر أماناً من المقابر الرئيسية المحلية الأخرى، فلم تكن مكشوفة تماماً مثل ملعب الكرة القريب، الذي حولته السلطات المحلية إلى مقبرة في خريف ١٩٩٢، لاستيعاب فيض الجثث من مشرحة مستشفى كوسيفو، والذي امتلأ هو الآخر بعد عام لثلاثة بالقبور. وحتى وقف إطلاق النار في فبراير، كانت كل منطقة في سراييفو مصدر خطورة، ولا يوجد مكان بعيد عن مرمى نيران المورتار أو المدفعية أو القناصة المتشربين في كل جهة. وعلى أقل تقدير كان القصف غير شخصي نسبياً. لأن رجال المدفعية يصوبون على منطقة أو غالباً على مبنى محدد. ولكن المرعب والمهين بشكل خاص في كونك تحت نيران القناص هو أن القناص يلتقط ويختار من بين الناس المارين أمام شعرات التعامد لمنظار مدفعه.

ويقول لنفسه «أعتقد أنني سأقتل الفتاة ذات السترة الحمراء» ، أو يقول «أعتقد أنني سأدع الرجل الطويل يعبر الطريق وأحاول إسقاط صديقه ، الشاب القصير غير الحليق في المعطف الصوفي ، عندما يحاول أن يتبعه» .

في ذلك الصباح ، وقبل أن نذهب إلى مقبرة لايون قال لي صديق فرنسي ، وهو مصور حربي ذو خبرة طويلة : «هناك طريقتان لتصوير الجنائز: على قدميك مع الأحياء أو على ركبتيك بين الأموات» . كان يمكن له أيضاً أن يتكلم أيضاً عن أساليب التفكير في سرايفو أو بشكل عام عن المذبحة في البوسنة . فعندما يكون المرء في المدينة وقت الحصار فإن المسيطر (بصرف النظر عن خوف المرء الذي يفقده نصف عقله) هو أن الوضع يبدو بسيطاً وهو أن مدينة أوروبية تتلاشى : قرطاجة بالتصوير البطيء ، ولكن هذه المرة في وجود جمهور ومع تصوير بالفيديو . وليس هناك شيء ، لا التاريخ المعقد للمنطقة ولا أخطاء وجرائم البوسنيين أنفسهم ولا المخاوف المبررة أحياناً لصرب البوسنة ، يستطيع أن يخفف من الجريمة التي وقعت . لا شيء لا شيء . لا شيء .

ولقد كان نوعاً من أوهام الصحفيين - الناشيء بلا شك عن التقدير المشترك للذات من ناحية ، وعن الإيمان غير المدروس في التقدم والآثار المهدئة للرخاء ، ومن الإيمان الذي نهىء أنفسنا عليه بأن أوروبا أصبحت مكاناً متحضراً - أن نتصور أنه إذا تم إخبار الأهل في الوطن وإطلاعهم على ما يحدث حقيقة في سرايفو ، وإذا ما شاهدوا منظر طفل أصيب لتوه برصاصة مدببة أو بشظية مشرشرة على شاشة التلفزيون أو جثث المواطنين الذين يمحصدون وهم في الطوابير للحصول على الخبز أو الماء ، فإنهم سيطلبون من حكوماتهم فعل شيء . كان أمل الصحافة الغربية هو أن العارفين بالأوضاع في الوطن سيطلبون من حكوماتهم ألا تسمح بأن يقتل ويغتصب ويشرد مسلمو البوسنة . وبدلاً من ذلك فإن اللدغات الصوتية و «اللدغات المرئية» التي تم اختيارها من ميدان القتال نمت روح السفطة واللامبالاة بشكل منظم أكثر مما نجحت في تعبئة الناس للتصرف أو حتى لزدراء الوضع .

وباسترجاع الأحداث ، يدرك المرء أن الذين اعتقدوا منا أن النتيجة كـ

يمكن أن تكون غير ذلك كانوا ساذجين . كان هناك نوع من «تأثير CNN» بالمدى الواسع والمتمثل في أنه لولا إظهار CNN و BBC وغيرها للمأساة البوسنية طول الوقت لخدمت في أذهان الناس بعد الشهور القليلة الأولى من القتال برغم أنها كانت تحدث على مائتي ميل من إيطاليا . وبمفهوم أضيق ، كانت كاميرات التلفزيون وليس حلف الناتو في الواقع ، ناهيك عن الأمم المتحدة ، هي التي أنقذت سرايفو بعد المذبحة في السوق المركزي في أوائل فبراير ١٩٩٤ . لقد قاوم البريطانيون والفرنسيون وكذلك قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة وقسم عمليات حفظ السلام بكل قواهم أي تهديد حقيقي من جانب الغرب باستخدام القوة للدفاع عن سرايفو على مدى ما يقرب من عامين . فقد أصروا على أن التفويض لا يسمح بذلك وأن المخاطرة بالجهود الإنسانية كبيرة وأنه في النهاية ستكون للتهديدات العسكرية نتائج عكسية .

ولكن في أعقاب مذبحه السوق ، أدركوا أن هناك غضباً حقيقياً في أوطانهم ، وهو غضب ولو مرة لن يتبدد بنفس السهولة مثلما حدث في أعقاب الأعمال الوحشية السابقة . وليس من المستغرب أنه قد اتضح لهم إمكان تطبيق عدد من الخطوات التي حكموا باستحالتها . وكما أخبرني دبلوماسي مما يسمى بالدول الخمس الدائمة في مجلس الأمن وهو يسخر: «ليس التفويض هو الذي تغير بل عواطف الجماهير وبخاصة في أوروبا الغربية» .

وعلى طول الخط ، أخذ كثير من الصحفيين على عاتقهم ، بوعي أو بغير وعي . أن يغيروا من مشاعر قرائهم ومشاهدتهم تجاه المذبحة . وهذا هو السبب في أنه ربما كان المراسلون وأطعم شبكات التلفزيون ، طوال معظم فترة الحصار ، هم حلفاء البوسنيين المؤثوقين . وفهمت حكومة البوسنة ، التي راهنت على التدخل الأجنبي ، تأثير رجال الصحافة مبكراً ، كما فهمت أنه مع حرمانها نتيجة لاستمرار حظر السلاح من وسائل الدفاع عن نفسها بفاعلية فإن استدرار العطف الأجنبي وجمع الأموال من العالم الإسلامي هي الدعائم القوية المتاحة .

ولكن لم يكن صحيحاً، كما كان يجب أن يقول رجال الأمم المتحدة، أن مشاعر

العطف جعلت الصحفيين يشوهون القصص ليظهروا الطرف البوسني في صورة إيجابية لا يستحقها. وفي الواقع، كانت أصابع الاتهام تشير أكثر إلى الأخلاقيات المشبوهة التي خلقتها بين كبار مسؤولي الأمم المتحدة هذا الالتزام بالحيادية حيال ما أسموه غالباً «ادعاءات الأطراف المتحاربة»، وبرغم جو الدهشة المجروحة فقد كان على هؤلاء المسؤولين أن يعرفوا أنه لو كانت هناك أية عدالة في جانب صرب البوسنة فلإنها بنفس نسبة العدالة في جانب النازيين أو الخمير الأحمر. ومرة أخرى، فإن ما كان يقوم به الصرب هو الإبادة الجماعية.

أما ما كان صحيحاً، ولأن ما كان يحدث في البوسنة كان إبادة جماعية، فهو أن معظم الصحفيين تعاطفوا مع القضية البوسنية بنفس الأسلوب الذي غنى به المرء لو أن ممثلو الصحافة الأجنبية تواجدوا في حي اليهود بوارسو عام ١٩٤٣ وتعاطفوا مع اليهود.

إن المنطق في موقف الأمم المتحدة في البوسنة يوحي بأنه لو تواجدت الأمم المتحدة أثناء الحرب العالمية الثانية وأعتقدت أنها منحت «تفويضاً» بمعاملة جميع الأطراف بحيادية، لكانت قد شكت من عدم فهم الصحفيين أن معاداة السامية كانت مشكلة أوروبا عبر القرون وأن مخاوف الألمان من نفوذ اليهود لا بد أن تفهم من خلال سياقها التاريخي. ومن ناحية تاريخية بحثة، يتصادف أن تكون تلك الأمور صحيحة مثلما كانت تأويلات القومية الصربية صحيحة عام ١٩٩٤. لكن الصحافة، وهو ما يحسب لها، لم تقبل بتفسير الأمم المتحدة القائم على المثل الفرنسي القديم القائل إنه لكي تفهم كل شيء عليك أن تغفر كل شيء. فقد رأى الصحفيون في البوسنة أموراً لا يمكنهم أن يغتفروها، أمور كانت الأمم المتحدة مصممة على أن تذهب إلى أبعد الحدود لتغطيتها.

والواقع أن الأمم المتحدة كانت محقة بمعنى ضيق معين في رفضها للتفاعل بين الحكومة البوسنية ورجال الصحافة الأجنبية، فعلى مدى القتال، حاولت حكومة البوسنة تعبئة هذا التعاطف كما تعبىء شبابها وعاملت الصحفيين الأجانب وكأنهم ذخيرة حربية. وبمرور الوقت، أصبح البوسنيون متمرسين في القيام بذلك. لكنها لم

تعرض المأساة البوسنية بما يتفق مع أهدافها الاستراتيجية . ومهما اختارت قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة ، من جنرال ماكينزي عام ١٩٩٢ حتى الجنرال روز عام ١٩٩٤ ، من التلميح سراً ، بأن البوسنيين هم المسؤولون عن مذبحه طابور الخبز في سرايفو أو عن قصف السوق المركزي في المدينة فلم يكن ذلك من الصواب بحيث يمكن للأمم المتحدة أن تقول علناً وتسمح للصحافة بتحري الأمر . وحقيقة أنهم رفضوا إظهار الأدلة الحاسمة التي ادعوا أنها تدعم تأكيداتهم التي ذكروها سراً ومع ذلك صدقوها بإخلاص ، أوحى لكثير منا لا أنهم كانوا يعرفون أكثر مما يبحون به بل أن قوة الحماية ومسؤولو الأمم المتحدة يريدون أن يؤمنوا بأن البوسنيين وكذلك الصرب مذنبون ، لدرجة أنهم لم يتخلوا عن فكرة عدم وجود أبطال بل أشرار فقط في الصراع .

وقد خدمهم هذا الاعتقاد كثيراً في البوسنة . فاعتقاد الأمم المتحدة بخسة حكومة البوسنة زودها بوسيلة رخيصة لتحرير نفسها من الالتزام الأخلاقي بإعادة النظر في حيادها المشهور . وفي الواقع لقد فضل المسؤولون في قوة الحماية وفي سكرتارية الأمم المتحدة أن يتجنبوا السؤال الأخلاقي . وكانوا يميلون إلى تذكيرك بسرعة بأن هناك تفويضاً يؤخذ في الاعتبار حتى قبل أن توجه السؤال . لم يطرح مسؤولو الأمم المتحدة المسألة على هذا النحو ولكن منطقهم في تبرير أسلوب عملهم لم يكن يختلف كثيراً عن اتجاه آخر ذائع الصيت من التبرير المؤسسي تلخصه عبارة : «كنت فقط أنفذ الأوامر» . وكل ما كانوا يفعلونه ، رغم أنهم لم يستطيعوا إثبات تهمة حكومة البوسنة ، هو تعكير المياه بإطلاح قليل من الصحفيين الذين تأثروا بتلك النظرة مسبقاً على ما ادعوا أنه سر . ففي أعقاب مذبحه السوق ، اطلع عضو رفيع في هيئة الجنرال روز اثنين من الصحفيين على الصفحة الأولى من تقرير مبدئي مؤذي قدمه الفريق الملكلف بتحليل الفجوات الناتجة عن انفجار القنابل يشير إلى ضلوع البوسنيين في الموضوع . وأصر على أن داخل التقرير يوجد كل ما يلزمك للوصول إلى تلك النتيجة .

ولكن إذا وجد مثل هذا الدليل ، فلم يكن من القوة بحيث يقنع مسؤولي الأمم

المتحدة - الذين لا يمكن القول بأنهم راضون عن عزت بيجوفيتش أو سيلازيتش . فقد أمروا بتحقيق ثان موسع والذي لم يكن قاطعاً . ولو كان هناك تستر لكان ذلك يعني بين أمور أخرى أن المسؤولين الروس العاملين في المجموعة كانوا ضالعين في الأمر ، وهذا غير محتمل . كما أنه من غير المحتمل ، بافتراض أن الأمم المتحدة أخفت القصة لمصلحتها ، أنه في مؤسسة لا يبقى فيها شيء مهم سرّاً لفترة طويلة ، ألا يسرب بعض المتعاطفين مع الصرب داخل الأمم المتحدة القصة .

ولكن رجال الجنرال روز كانوا مشغولين برواية قصة مختلفة . فقد كشف في وقت لاحق المساعد نفسه للجنرال روز ، الذي سرب قصة من الذي قصف السوق المركزي في سراييفو ، أن روز ظل هادئاً حتى يستطيع أن يبقى على «بعض التأثير» على سلطات سراييفو . وادعى أن روز أجبر نائب قاد الجيش البوسني ، الجنرال جوفان ديفياك على حضور جولة من المفاوضات العسكرية بإشراف الأمم المتحدة في مطار سراييفو وذلك بتهديد الرئيس عزت بيجوفيتش بأنه يغير ذلك سيفضح «الحقيقة» حول مذبحه السوق . وكان تعليق مساعد روز هو أن عزت بيجوفيتش أذعن فوراً لأنه علم بالمأزق الذي هو فيه . أما مسؤولو الحكومة البوسنية فقد قدموا صورة مخالفة حيث قالوا إنه لم يكن لدى روز في الحقيقة أي دليل ، ولكن كان من الواضح أنه صدق ما يقوله . قال مسؤول بوسني : «كان يريد أن يصدق أننا قتله ، كان يريد ذلك بشدة» .

كان هذا بالضبط ما التزمت به الأمم المتحدة . وكما قال لي أحد المسؤولين : «إن الصرب قتله بالجملة والكروات سفاحون والمسلمون قتله» . وكم كان تصديق هذا مريحاً لقوة الحماية التابعة للأمم المتحدة . كانت تستطيع أن تظل في وضع سعيد بالتعاطف مع ضحايا الحرب البوسنية دون أن تضطر إلى اتخاذ موقف مما هو صواب وما هو خطأ . وعلى أي حال فهي لم تفكر في البديل . لقد احتاجت اللجنة الدولية للصليب الأحمر إلى عشرات السنين لتستعيد مكانتها الأخلاقية بعد أن تواطأت فعلياً مع النازيين بإرسال وفود لزيارة عرض معسكرات الاعتقال مثل ثيريزينستاد - وذلك في عام ١٩٤٣ - وعودتهم إلى جنيف ليعلنوا أنهم وجدوا الأحوال صعبة ولكنها مقبولة

بحسب الظروف المتاحة . وإذا كان ما تقف الأمم المتحدة أمامه مكتوفة في البوسنة هو الإبادة الجماعية فعندئذ تكون مصداقيتها الأخلاقية قد اهتزت بصورة مماثلة من خلال الأفعال «أو اللاأفعال» التي قامت بها هناك .

إن الازدراء الذي بدأ يشعر به الناس تجاه عصبة الأمم كان نتيجة مباشرة لعدم جدواها كأداة لمحاربة الفاشية في الثلاثينيات ، وكان ما حاول كثير من عمال الإغاثة والصحفيون الذين جاءوا إلى البوسنة كمساندين للأمم المتحدة أن ينقلوه إلى مسؤولي الأمم المتحدة هو أن رفضها مجابهة التطهير الفاشستي في التسعينات سيثبت أنه لا يقل تدميراً للمصداقية الأخلاقية التي تعتمد عليها فاعليتها ، من الوجهة العملية على الأقل .

وقد أدرك مسؤولو الأمم المتحدة كأفراد ، وبخاصة داخل اللجنة العليا للإغاثة ، مدى التدهور الذي لحق بمكانة المنظمة نتيجة لتورطها في البوسنة . ولكن ككيان رفضت الأمم المتحدة ببساطة أن تقبل أن ذلك هو ما حدث بالفعل . فالخطأ يكمن في التفويض أو تراخي القوى الكبرى أو ببساطة وحشية وتهور المحاربين أنفسهم . وكان من المحتم - مع تزايد إحباط جهود الإغاثة وقد صار واضحاً أن الإغاثة الإنسانية لن تأتي بأكثر مما أسماه أحد مسؤولي اللجنة العليا للصليب الأحمر ، ثيري جرموند ، ذات مرة «حد أدنى - دائماً غير سليم - من الإنسانية في مواقف كان يجب ألا تحدث» ، أن يكون كان هناك انجاء للإلقاء اللوم على الضحايا فيما ألوا إليه . وقد يتساءل كثيرون من مسؤولي الأمم المتحدة لماذا يصر البوسنيون على استمرار القتال بعدما صار واضحاً أنهم خاسرون؟ ففي عقول كثير من مسؤولي الأمم المتحدة أصبحت المقاومة البوسنية ذاتها نوعاً من الجريمة ضد الإنسانية ، فلو أن الضحايا قبلوا بكونهم ضحايا لكان في استطاعة المجتمع الدولي أن يفعل الكثير من أجلهم .

ومع تزايد إدراكها للطرف البوسني من هذا المنطلق كان من المنطقي أن تتمسك الأمم المتحدة بكل اتهام يجعل الطرف البوسني مسؤولاً عن قتل شعبه أو اقتراف جرائم الحرب ضد صرب البوسنة . ففي ٦ أكتوبر ١٩٩٤ شنت قوات حكومة البوسنة غارة على مواقع الصرب في سراييفو . وفي اليوم التالي ، تم اكتشاف عشرين جثة لجنود من صرب البوسنة ، وقد فصل عنها الرأس .

وسرعان ما أصدر صرب البوسنة بياناً يدعون فيه أن الهجوم «عمل إجرامي» ويبدو أن ياسوسوي أكاشي أيد ذلك فقد طار إلى سراييفو للاحتجاج شخصياً على «بتر» رؤوس الجنود الصرب. ولم يكن هناك أي أعمال بتر فكما اعترف المتحدث باسم قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة العقيد تيم سبايسر، في اليوم التالي فإنها كانت «عملية بأسلوب الكوماندوز» غير مسبوقة في وقت الحرب. وأعلن سبايسر أن الأمم المتحدة تسحب ادعاءها.

والحقيقة هي أنه يبدو أن حكومة البوسنة بما وصلت إليه من يأس كانت ترحب في مناسبات عديدة ليس بالفظائع التي التزم الصرب بارتكابها بل بمناسبات التصوير الفوتوغرافي التي توفرها تلك الفظائع.

فقد ظن بعض المسؤولين، وهو أمر مفهوم، أن منظر المدنيين وقد قطعت أجسادهم قد يشد من أزر القوى الكبرى أخيراً للقيام بحماية البوسنة بما هو أكثر من مجرد إصدار قرارات هزيلة في مجلس الأمن تطالب بنهاية للمذبحة. وكان البوسنيون على خطأ في هذا، كما كانوا في كثير من الآمال الأخرى التي علقوها على الغرب. وكان الغضب الذي أثارته مذبحه السوق استثناء لذلك. وقد اتضح ذلك بجملاء عندما بدأ الصرب قصف غوراجده بعد شهرين، واكتشف البوسنيون أن المنطقة المحظورة حول سراييفو لم تشكل سابقة لوقف إطلاق النار في باقي البوسنة والذي ادعاه السياسيون الغربيون في الأساس.

ولوا أن الصرب كانوا على استعداد للإذعان لإنذار الناتو الثاني لأبدت الأمم المتحدة استعداداً كافياً لتنفيذه. ولكن الصرب لم يكونوا ضعفاء ولم يكونوا بلهاء، لقد انحنوا قليلاً في غوراجده ولكنهم لم يثنوا. وبعد ثلاثة أسابيع من إنذار الناتو اعترفت قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة أن قوات الصرب دخلت المنطقة ثانية متخفين هذه المرة في زي الشرطة وقد تمركز بعضهم على بعد ١,٩ ميلاً من «المنطقة المحظورة على جنود المشاة» من مركز مدينة غوراجده. واعتبرت تلك المسافة طويلة حتى بالنسبة للقائد المحلي لقوة الحماية وهو عقيد بريطاني يدعى ديفيد سانتا أولا لا. أما سرجيويدي ميللو، والذي فعل أكثر مما فعل من أي مسؤول آخر للأمم المتحدة

لمنع الضربات الجوية بدخوله جورازدي قبل انتهاء فترة إنذار الناتو، فقد تخطى هذه المرة مهمة قوة الحماية وأخبر صرب البوسنة أنهم يستطيعون الإبقاء على شرطتهم هناك ويضربون عرض الحائط بالإنذار النهائي .

كان دي ميللو في ذلك يتصرف تماماً مثلما تصرف كبار مسؤولي الأمم المتحدة منذ بدء القتال . والآن وبعد أن عرف البوسنيون باتجاه الأمم المتحدة، لماذا لا يلجأون إلى الصحافة ويشنون في الإعلام الحرب التي كان يجب أن يسمح لهم بشنها في ميدان القتال فقد كان السلاح الوحيد المتاح لهم وبقدر وافر هو معاناتهم . وإذا كانوا في بعض الأحيان يؤخرون إزاحة جثة حتى يصل الصحفيون الأجانب وأحياناً يبدون مازوخين (يتلذذون بالاضطهاد) في رفضهم التفاوض على اتفاقات قد توفر كهرباء أو غاز أكثر لسرايفو فإن هذا، كما يجب رجال الأمم المتحدة في زغرب وسرايفو ونيويورك أن ياروا به أحياناً، لا يعني أنهم المسيبون لمعاناتهم . لقد كانوا الضحية . ولكن كونهم الضحايا كان يضايق بل ويقزز مسؤولي الأمم المتحدة بصورة متزايدة في كل من الميدان وفي نيويورك وجنيف . وأصبح ضباط قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة بشكل خاص أقل كتماناً للكراهية التي يحملونها للبوسنيين .

ومن ناحيتهم، فإن خطأ البوسنيين لم يكن فهمهم الخاطئ لقوة الحماية التابعة للأمم المتحدة — ارتكبوا هذا الخطأ بادية الأمر ولكن سرعان ما فهموا أن بعثات قوة الأمم المتحدة في البوسنة لم تكن تتضمن الدفاع عن البوسنيين — بل تصورهم أنه طالما أمكن جعل الناس في العالم الخارجي ساخطين بها فيه الكفاية على ما كان يجري، فإن مستقبل البوسنة سيخرج من أيدي قوة الحماية . وهذا هو سبب اتجاه البوسنيين نحو الصحافة . لقد حاولوا — وكذلك نحن، لقد فشلوا — وكذلك نحن . وعندما نكون جالسين في غرفة في فندق هوليداي إن في سرايفو آخر الليل نشرب أحدث زجاجة شعير أحضرها وافد جديد من سبليت أو أنكونا، بعد يوم قضيناه على خط النار أو في جناح الحوادث في المستشفى الفرنسي أو بين الباحثين عن الخشب على طول سفوح التلال الجرداء (كانت سرايفو مشهورة بحداثتها) كان يبدو لنا أنه يستحيل أن يظل العالم غير مبال بما يجري في البوسنة أو الأسوأ من ذلك أن يتصور أن ما يجري

كان مجرد نوع من الصراع العرقي القديم - مجرد حرب أخرى في البلقان حيث لا يفضل جانب عن الآخر.

من المؤكد أن صورة واحدة أخرى أو قصة واحدة أخرى أو وقفة مراسل منتصباً مسجلة على الفيديو أمام مبنى يتصاعد منه الدخان بعد قصفه ستجمع الناس وتجبرهم على التوقف عن هز أكتافهم أو لوم الضحايا، كما تفعل الأمم المتحدة، وهكذا كانت ترسل القصص بالفاكس عن طريق الأقمار الصناعية إلى نيويورك وباريس ولندن وواشنطن وتنقل الصور إلى وكالات العالم وتبث اللقطات التلفزيونية حية عندما توافق عليها مكاتب التحرير في شبكة CNN و TN أو القناة الثانية. ويسجل لمحرري الأخبار هناك أنهم أعطوا تلك التقارير والصور مساحة ضخمة من المشاهدة في السنتين الأوليتين من الحرب على الأقل. ولن يستطيع أحد في المستقبل أن يقول، كما قال كثير من الألمان بشكل شرعي بعد الحرب العالمية الثانية، أنه لم يعرف شيئاً عما كان يحدث في البوسنة. وقد تعزى الأمم المتحدة نفسها بأن الصحافة كانت منحازة. أما في الواقع فلم تغط الصحافة مذبحه بدقة ومقدرة أكثر من هذه.

ما فهمته الصحافة وعجزت الأمم المتحدة عن فهمه هو: أن تكون عادلاً وأن تكون محايداً ليسا الشيء نفسه. وكشخص لم يكن مطلقاً عضواً في الصحافة العاملة في الميدان - فلم اضطر مطلقاً لعمل ملفات أو مناقشة مسائل التحرير أو كتابة مقال حول موضوع غير ذي مغزى إنسانياً - ولكن قضى قرابة عامين قريباً منهم، فقد كان مؤثراً بالنسبة لي على الدوام، أن هذه المجموعة من الشكاكين المهنيين والذين كان يمكن أن يكون كثير منهم جنوداً لو لم يكونوا يسارين فوضويين كانوا يؤمنون «بالقيم الغربية» أكثر مما تفعل حكوماتهم، وقد كلف هذا الالتزام كثيراً منهم حياتهم. وحتى بالنسبة لمن لم يعاني مطلقاً أي جروح جسدية فإن مشاق العودة ثانية، رغم أنها لا تساوي شيئاً إلى جانب ما كان البوسنيون أنفسهم يعانونه، كلفتهم حتى الكثير شخصياً ومهنيًا. ولكنهم ظلوا يعودون.

ولأطول وقت كانت ساحات سرايفو مكتظة بالأحلام كما كانت مكتظة بنيران القنابل. وبحلول صيف ١٩٩٣ أصاب الناس في البوسنة الضجر من الصحافة

وأصبحوا متشائمين من مقدرتها على تغيير أي شيء وهو ما أصبح أخيراً المعيار الوحيد الذي يحمل معنى ، أما الصحفيون الذين كان يحتفى بهم سابقاً كأصدقاء موثوقين وعلق الناس في البوسنة عموماً وفي سرايفو بشكل خاص عليهم الآمال فقد أصبحوا يقابلون ببرود أشد . ولم يكن ذلك لأن البوسنيين اعتقدوا بأنهم لم يحكوا القصة بل لأن ذلك لم يأت بخير . ولقد كان من المحتم في تصوري أن يصبح وجود الغرباء مثيراً للغضب بعد أن كان تفضلاً . سألني صديق في سرايفو عندما رجعت إلى المدينة في أوائل شتاء ١٩٩٣ - ١٩٩٤ : «سفرة أخرى؟ ماذا تأمل أن ترى هذه المرة؟ زيادة في الجثث ، زيادة في الدمار؟ علينا أن نتقاضى رسوماً على بقاءك» .

قال كل ذلك برباطة جأش معقولة ولكنها لا تعرف طريقاً للصفح ، فقد اعتقد صديقي أن اهتمام الإعلام لم يفعل شيئاً . وبعد شهر قليلة ، عندما نجح وقف إطلاق النار في سرايفو وبدأت المدينة حركة عرجاء وهي محاصرة كسابق عهدها ولكن بغير قصف ، فإن المرارة نحو الغرباء أصبحت أشد حدة . والآن وقد أصبح الحضور إلى سرايفو أمناً نسبياً ، كانت الشخصيات الرفيعة تتدفق على المكان ، يزورون الأنقاض ويواسون الأهالي . كانت دوافعهم رقيقة في العادة ولكن أهل سرايفو لم يستطيعوا كتمان امتعاضهم لهذا الاهتمام ، وبالطبع لقدرتهم ، بعد ما أخذوا كفايتهم من المشاهدات ، على الذهاب إلى المطار في الناقلة المدرعة لقوة الحماية وركوب الطائرة والعودة إلى بلادهم . كانت التقارير الصحفية تتقلص بشكل ثابت حيث يخمد ثمانية التهديد بتدخل الناتو . فعندما كان القتال في ذورته ، فعلت الشهادة الجماعية للصحافة القليل لسرايفو . أما وقد خفت حدة القتال فقد استطاع الزوار فعل القليل ليضمّدوا جراحها وحتى ولو ساهموا في النهاية هم وقرناؤهم الغربيون في إعادة البناء المادي للبوسنة . وبالطبع نال الملل أخيراً من رؤساء التحرير في الوطن ، الذين أصبحوا متعاسين بشكل متزايد عن السماح لأفضل مراسليهم باستمرار العودة إلى البوسنة . وعلى مدى عام ١٩٩٤ سحبت مجموعات الإعلام الكبرى رجالها الدائمين خارج سرايفو .

وفيما عدا عمال الإغاثة ومهربي الأسلحة ظل السؤال حول ما إذا كان يستطيع أي

غريب أن يفعل شيئاً مفيداً جداً في البوسنة في المستقبل المنظور. ذلك أن القتال والموت لم يتوقف ولن يتوقف لزمن طويل مهما وقعت اتفاقات وسواء رفع خطر السلاح أم لا وسواء ظلت قوة الحماية أو انسحبت. فمستقبل البوسنة، بل ربما مستقبل الكثير من بلدان أوروبا الشرقية كذلك، يحمل السيف وليس غصن الزيتون. وبعد ما فعله الغرب والأمم المتحدة وما لم يفعلوه، كان كل ذلك متوقفاً. وربما كان أي شيء آخر مجرد حلم. وأياً كان ما كانوا سيفعلونه كان حلماً. إن سقوط الأباطوريات العظمى غالباً ما تتبعه سلسلة من الحروب الوحشية. ومن المؤكد أن كثيراً من الأحلام قد تلاشت في البوسنة خلال السنتين والنصف السنة الماضية: الحلم بأن للعالم ضميراً، والحلم بأن أوروبا مكان متحضر، والحلم بأن هناك عدل للضعيف كما للقوي. ولن يكون غريباً أن يموت هناك الحلم القديم بأن الحقيقة سوف ترفع الأغلال عنا. وتوضح معالم هذه الحقيقة في أجلى صورة في حطام وسط وسط المدينة بغوراجده وفي قرى بوسانسكا كراينا التي طهرها عرقياً وفي مقبرة لايون في سراييفو، أكثر مما تتضح في قصر الأمم المتحدة في جنيف أو في مبنى سكرتارية الأمم المتحدة في نيويورك، برغم أننا ما كنا نتمنى أن تكون كذلك. إن الهزيمة ساحقة والخزي شامل.



General Organization Of the Alexandria
Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

هذا الكتاب

على امتداد صفحات هذا الكتاب ، يدين دافيد ريف - من واقع رؤيته المباشرة كشاهد عيان- ومن قلب الأحداث في ميادين الحرب ، الغرب والأمم المتحدة لوقوفها موقف المتفرج بينما يجري إفتاء البوسنة . وخلال تنقلاته كمراسل لمجلة أمريكية في منطقة البلقان لأكثر من عامين ، من سراييفو إلى المدن والقرى الأخرى المحاصرة ، لم يكن ريف يتصور في البداية - شأنه في ذلك شأن البوسنيين أنفسهم- أن ما يشاهده إنما هو حرب للإبادة . ويحلل ريف ، في هذا الكتاب / الشهادة ، بدقة وصرامة بالفتن ، ومن خلال حواراته مع المسؤولين والناس العاديين في قلب هذه القصة المأساوية ، أبعاد السقوط الأخلاقي للغرب . إنها رحلة صادمة ومذهلة ، وشهادة لا تقل قوة وعمقا عن رواية جورج أورويل الكلاسيكية لوقائع الحرب الأهلية الإسبانية في «المجد لكتالونيا» .

